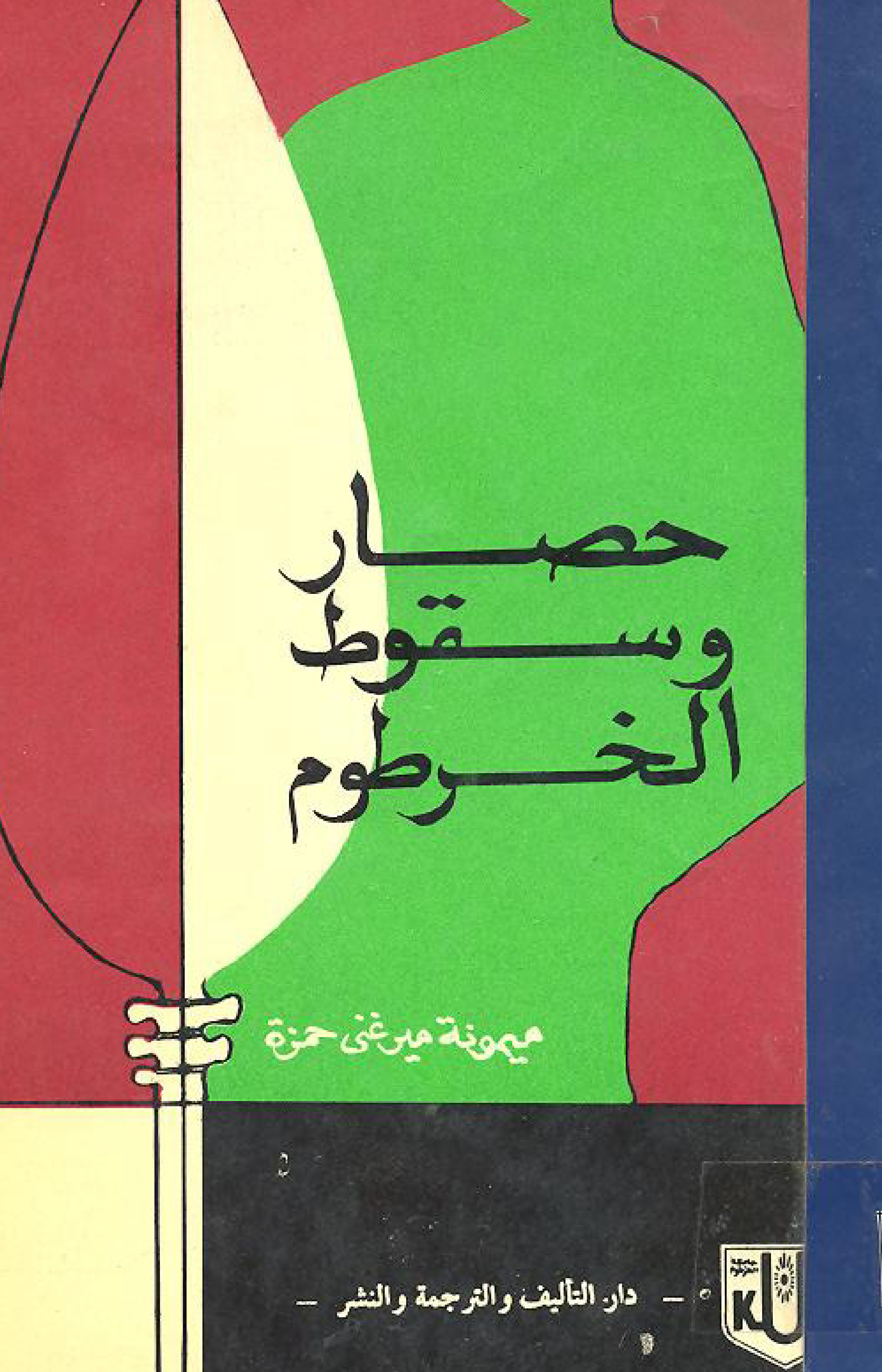

حصار
وسقوط
الخرطوم
ميمونة ميرغنى حمزة
— دار التأليف والترجمة والنشر —

إخراج إلكتروني / ابوبكر خيري

حصـــار وسقوط الخرطوم

ينـاير ١٨٨٤ — ١٨٨٥

القسم الاول

الى استقلال دون دماء

حصــار وسقوط الخرطوم

يناير ١٨٨٤ – ١٨٨٥

ميمونة ميرغنى حمــزة

– ١٩٧٢ –

الناشرون : دار التأليف والترجمة والنشر
جامعة الخرطوم
ص . ب : ٣٢١
الخرطوم

الطابعون
دار الطباعة
دار التأليف والترجمة والنشر
جامعة الخرطوم

الناشرون : دار التأليف والترجمة والنشر
جامعة الخرطوم
ص . ب : ٣٢١
الخرطوم

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

الطابعون
دار الطباعة
دار التأليف والترجمة والنشر
جامعة الخرطوم

المحتـــويات

كلمة شكر وتقدير

الآن وقد فرغت من كتابة هذا البحث أجد من واجبى ان أتقدم بكلمة شكر وعرفان بالجميل لكل الذين قدموا لى العون الصادق والمساعدة المقدرة. وأخص بالشكر من هؤلاء السيد الدكتور يوسف فضل حسن أستاذ التاريخ بكلية الآداب ومدير شعبة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم لتكرمه بالإشراف عليه . فكانت توجيهاته ومقترحاته القيمة خير عون لى فى إبراز هذا البحث بالصورة التي هو عليها الآن .

وبالشكر والامتنان أتقدم أيضا إلى البروفسير مكى شبيكة الذى ساعدتنى مقترحاته فى إنجاز أجزاء من هذا البحث كما مكنتنى إرشاداته من الحصول والاطلاع على بعض الوثائق التى تعالج الفترة قيد الدراسة .

وأتقدم بشكرى أيضا إلى المستر د. هل الذى لم يدخر وسعا أثناء وجوده فى مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درهام لمعاونتى فى الاطلاع على كل الوثائق المحفوظة لديه .

وبكثير من التقدير أتوجه إلى البروفسير إحسان عباس الأستاذ بالجامعة الأميريكية ببيروت الذى تفضل مشكورا ، رغم كل مشاغله ، فقام بمراجعة هذا البحث فصحح وقوم ما أعوج من قواعد اللغة .

لهؤلاء العلماء الاجلاء ولكل من قدم لى مساعدة مكنتنى من إعداد هذا البحث عظيم شكرى وفائق إمتنانى .

« المؤلفـــة »

رموز المصادر

الطريقة التى إتبعتها فى الهوامش بالنسبة للمصادر كثيرة التكرار هى طريقة المصدر المختصر ، وقد أثبت أدناه المصدر بالكامل مع إختصاره المستعمل .

وإخترت إسم المؤلف ، ليرمز إلى المصدر بإستثناء حالات ثلاث :

أ ــ المصادر التى اشتهرت بعنوانيها أكثر من أسماء مؤلفيها ، أثرت الرمز اليها بالأولى كما هو الحال بالنسبة للفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية .

ب ــ فى حالة الاستفادة من أكثر من مصدر واحد لنفس المؤلف إضطررت إلى الرمز إليها بعنوانيها كما هو الحال فى منشورات المهدى .

ج ــ آثرت عدم تطبيق القاعدة (ب) على مؤلفات محمد نصحى باشا . فقد اشتهر تقرير مجلس الضباط باسمه فرمزت به اليه وأبقيت عنوان تقرير شندى « جورنال الحوادث » كما هو .

ابراهيم البوردينى	
حصار الخرطوم وسقوطه	أبراهيم البوردينى
ابراهيم فوزى	
السودان بين يدى كتشنر وغوردون	أبراهيم فوزى
أحمد العوام	
نصيحة العوام للخاص والعام	أحمد العوام
اسماعيل بن عبد القادر	
سعادة المستهدى فى سيرة الإمام المهدى	إسماعيل بن عبد القادر
بابكر بدرى	
تاريخ حياتى	بابكر بدرى

عبد الرحمن النجومى

مخطوط النجومى   النجومى

عوض الكريم على المسلمى

الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية

محمد المهدى المنتظر   فيوضات

محمد أحمد المهدى

– منشورات الإمام المهدى الجزء الأول   منشورات ج ١

– منشورات الإمام المهدى الجزء الثانى   إنذارات ب

– الأحكام والآداب   أحكام

محمد خالد زقل

مخطوط محمد خالد زقل   زقل

محمد عبد الرحيم

النداء فى دفع الإفتراء   محمد عبد الرحيم

محمد نصحى باشا

جورنال الحوادث   جورنال الحوادث

نعوم شقير

جغرافية السودان وتاريخه   نعوم شقير

يوسف ميخائيل

تاريخ حياتى   يوسف ميخائيل

Cuzzi, G., 15 Years Prisoner of the False Prophet Cuzzi

Gordon, C. G., Journals of Gordon, At Khartoum, Journals of Gordon

Nushi Pasha, & Native Officers, Life of Gordon Pasha, in Khartoum Nushi Pasha.

Ohrawlder, J. Ten Years Captivity Ohrawlder in the Mahdist Camp 1882–1892.

Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan,   Slatin

Sudan Notes and Records   SNR

Dictionary of National Biographies   DNB

الملاحق

أحمد المصطفى الأمين إلى الملك خشم الموس

١٩ ذو العقدة ١٣٠١ ح

أحمد المصطفى الأمين إلى عثمان بك

٢٣ ذو الحجة ١٣٠١ ط

الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشايب إلى عثمان بك

٢٣ ذو الحجة ١٣٠١ ى

صورة التلغراف الصادر من غوردون إلى فرج الله باك

٣ محرم ١٣٠٢ ك

صورة جواب من العلماء إلى الشيخ عبد القادر وولد النجومى

٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ ل

خريطة الخرطوم م

قائمة بالاسماء التى وردت خطأ فى يوميات غوردون مع تصحيحها ن

تقييم المصادر الاساسية

كانت الخرطوم فى حالة حرب فى الفترة ما بين مارس ١٨٨٤ إلى يناير ١٨٨٥، ولهذا فقد كان لا بد أن تتعرض بعض الوثائق التى تعالج تلك الفترة سواء كان من جانب المحاصَرين أو المحاصِرين إلى الضياع غير المتعمد أو الإتلاف المقصود . كان غوردون (C. G. Gordon) يواظب على إرسال تقاريره إلى مصر منذ أن وطئت قدماه أرض السودان، إلا أن الأنصار لم يمهلوه طويلا، فقد قامت مجموعة منهم بنزع أعمدة سلك التلغراف وقطعت بالتالى أنجع وسائله فى الإتصال بمصر (١) إستعان بعد ذلك بالجواسيس ولعل قليلا من رسائله التى بعثها عبر هذا الطريق قد وصلت إلى وجهتها ولا بد أن كثيرا منها قد تعرض للضياع . بالإضافة إلى هذا هناك مجموعة من الوثائق لها قيمة تاريخية من الدرجة الأولى ، تلك هى الرسائل التى حملها ستيورت (J.D.H. Stewart) معه عند مغادرته الخرطوم فى ٩ سبتمبر ١٨٨٤ . وقد شملت هذه مجموعة من الرسائل وجهها غوردون إلى الخديوى

---

(١) غوردون باشا، شارلس جورج (١٨٣٣ – ١٨٨٥) اسكتلندى ، انضم إلى المهندسين الملكيين (Royal Engineers) في عام ١٨٥٢ وفي عام ١٨٦٠ غادر بلاده ليشترك في حرب (القرم Crimea) وعند انتهائها أوفد للصين حيث قام بدور بارز في القضاء على ثورة (Tai-Ping) التي نشبت هناك ما بين ١٨٦٣ – ٠٤ بدأت صلته بالسودان حينما قابل نوبار باشا بوغوس في القسطنطينية وقبل عرضا منه بالانخراط في خدمة الخديوى كحاكم للمديرية الإستوائية. وقد عمل أثناء ولايته تلك بنشاط لتوسيع رقعة الاراضى المصرية كما أنشأ عدة محطات على النيل الابيض في محاولة لايقاف تجارة الرقيق. استقال من منصبه عام ١٨٧٦ إلا أنه عاد مرة أخرى في ١٨٧٧ كحاكم عام للسودان وقد اشتهر خلال هذه الفترة بكثرة تجواله في انحاء متفرقة من البلاد . ثم انهى خدماته عام ١٨٨٠ أثر اقالة الخديوى اسماعيل ليعمل فى عدة مناطق من آسيا وافريقيا.

علم بالثورة المهدية اثناء وجوده في زيارة خاصة لفلسطين وعند عودته لبلاده قبل عرضا تقدمت به الحكومة الانجليزية ليقوم بمهمة رسمية في السودان.

Lord *Elton, General,* Gordon, pp. 13-39, B. Allen, *Gordon And The Sudan* pp. 1-170

وبيرنج (E. Baring) (١) عن الحالة فى المدينة ، ويوميات ستيورت التى بدأ فى تسجيلها منذ أول أيام وصوله . ومن المرجح أن تكون هذه الوثائق هى ضمن الأوراق التى أخذها جماعة سليمان نعمان ود قمر من الباخرة « العباس » وأرسلوها إلى بربر حيث تم نقلها إلى المهدى وكان فى ذلك الحين قد وصل إلى مشارف الخرطوم . كانت فكرة المهدى فى بادىء الأمر هى إرجاع الرسائل بكاملها إلى غوردون إلا أنه عدل عن هذا وكتب إليه رسالة مطولة ضمنها مقتطفات من المكاتبات التى وقعت فى يديه بهدف تأكيد الواقعة لغوردون . وجاء فى خطاب المهدى إشارة إلى رسائل باللغة الإنجليزية توضح « كيفية حصار الخرطوم وكيفية صناعة الوابورات ومقدار ما بها من العساكر والأسلحة والمدافع وعن الحركات العسكرية وإنهزام جماعتكم وطلبكم الإسعاف بالأمدادية ولو بفرقة (٢)» ولعل هذه هى مذكرات ستيورت . وسواء ضاعت تلك الرسائل عند سقوط المدينة أو فيما بعد أو ان المهدى قام بإعدامها فى وقت إستلامها خشية تسربها بوسيلة ما للخارج فهو أمر يقع فى دائرة التكهنات حتى اللحظة .

هناك أيضا مذكرات مفقودة «تخص دكتور نكولا الاغريقى» الذى عينه غوردون إثر وصوله للخرطوم مفتشا طبيا لها، وبقى هناك حتى سقوط المدينة وربما ضاعت مذكراته تلك فيما بعد .

---

(١) بيرنج ، أفلين . لورد كرومر الأول (١٨٤١ – ١٩١٧) 1st Earl of Cromer تخرج عام ١٨٥٥ من مدرسة وولويك الحربية وشغل أول منصب له في جزر ايونيا (Ionian Islands) بدأ عمله الدبلوماسي في كورفو (Corfu) وفى عام ١٨٧٢ رافق نورث بروك (Northbrook) إلى الهند كسكرتير خاص له . وفى عام ١٨٧٧ عين ممثلا لبريطانيا في (Caisse de la Detta) وبعد الإحتلال البريطاني لمصر اوكلت له مهمة انجاز الإصلاح الداخلى في سبتمبر ١٨٨٣ وأصبح منذ ذلك الحين المسئول الفعلى عن السياسة المصرية فقام بدور رئيسي في معالجة مشكلة السودان بعد هزيمة هكس باشا في نوفمبر ١٨٨٣ . شغل منصب مندوب بريطانيا في مصر حتى عام ١٩٠٧ .
Cromer, *Modern Egypt*

(٢) المهدى إلى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢ .

أما المصادر المعروفة حاليا فهى أساسا تقارير ورسائل الأفراد الذين عاصروا تلك الأحداث ويأتى فى مقدمة هؤلاء غوردون والمهدى . فمن ناحية المحاصرين هناك التقارير الرسمية وشبه الرسمية التى بعث بها كل من غوردون وستيورت إلى بيرنج قبل إنقطاع خط التلغراف . بالإضافة إلى رسائل ف. بور (F. Power) التى نشرتها صحيفة « التايمز » اللندنية . ورغم أن هذه تعتبر مصدرا أساسيا فى كشف وجهة النظر الرسمية ، إلا أنها تشمل فترة أقل من شهرين ، وهى الفترة التى لم يكن الحصار قد بوشر خلالها بصورة فعلية .

أما بالنسبة للحقبة التى أعقبت إنقطاع الخط التلغرافى ، فمصادرنا هى معلومات مستقاة من التقارير التى كتبها الأشخاص الذين عاشوا فى المدينة أثناء الحصار . وتختلف هذه التقارير عن بعضها البعض فى عدة نواح من حيث الحجم والزمن الذى سجلت فيه ، ومكانة الكاتب ودوره فى الأحداث ، ففى حين جاءت يوميات غوردون مثلا فى مجلد من ستة أجزاء إقتصرت بعض إفادات الجنود والمدنيين على بضعة أسطر .

ورغم أن هذه المجموعة الأخيرة تحوى معلومات ذات قيمة تاريخية إلا أنها تعانى من عدة نقائص ، فهى شديدة الإختصار ، جاء معظمها ردا على إستفسار بعينه أو حادثة محددة بالاضافة إلى أنها بلا إستثناء قد كتبت من الذاكرة فقط بعد سنوات من الحصار .

وسأحاول فى الصفحات التالية إلقاء مزيد من الضوء على تلك التقارير وبعض المصادر الأخرى التى عالجت الفترة قيد البحث .

١ — يوميات غوردون :

بدأ غوردون فى تسجيلها فى ١٠ سبتمبر ١٨٨٤ — أى بعد مغادرة ستيورت مباشرة — وأنتهى منها فى ١٤ ديسمبر من نفس العام .

وتعتبر اليوميات مصدرا أساسيا لتوثيق هذه الفترة، إذ أن مؤلفها هو الرجل الذى كان يجلس على قمة جهاز المسئولية فى الخرطوم . ولقد سجل أحداث المدينة اليومية طوال فترة ثلاثة أشهر ، فجاءت إنطباعاته وخواطره بمثابة الرأى الرسمى . كما أن بعض الرسائل التى ألحقها باليوميات تكشف لنا عن عدة جوانب للحصار ،وهى فى ذات الوقت النسخ الوحيدة التى وجدت حتى الآن .

إتجه غوردون أثناء تسجيل اليوميات إتجاهين ، فهو يدون الأحداث اليومية المتعلقة بالاستعدادات العسكرية ، والأمور المالية والادارية ، وموقف التموين،ونشاط الأهالى . ويسجل من ناحية أخرى ، خواطر وآراء متعلقة بالسياسة العامة . فهو يتعرض لتطور الأحداث فى البلاد منذ مجيئه ويملأ الصفحات بنقد مركز لسياسة كل من مصر وبريطانيا . وقد شغلت حملة الأنقاذ جزءا كبيرا من تفكيره،فأسهب فى تقديم المقترحات عما يجب عليها تنفيذه . ولا بد للمرء أن يلاحظ أن هذا الاتجاه قد تغلب على الاتجاه الأول فجاء ذكره لأحداث المدينة عابرا متقطعا .

ولعل القارىء يجد له عذرا فقد كان يعيش فترة حرجة تأكد له خلالها أن حصار الخرطوم بواسطة جموع الأنصار قد أصبح حقيقة واقعة ، وجاء فشل مهمة ستيورت ليقطع أمله الأخير فى الإتصال بالخارج . ولقد إكتشف فى أكتوبر أن مجموعة من أعيان المدينة ومن أعوانه كانت تتصل سرا بالمهدى وتقدم له العون المادى والمعنوى ، هذا فى الوقت الذى اشتدت فيه وطأة أزمة الغذاء . كما شهدت تلك الفترة أعنف المعارك ضد الأنصار فقد فيها خيرة رجاله . لم يكن غوردون يرى فى هذا الجو الخانق مخرجا سوى عون عسكرى من الخارج ، ومن ثم فقد أسهب فى شرح أهمية هذا العون مضمنا التفاصيل عن قوته،والطريق التى يجب سلكها،على أمل أن تصل هذه المعلومات الى السلطات،فيعجلوا بالتنفيذ . ولا بد أن تكون هذه التفاصيل ذات قيمة

حقيقية لدراسة جوانب أخرى من تاريخ تلك الحقبة ، إلا أنها لا تفيد كثيراً في محاولة البحث عن حقيقة الوضع داخل الخرطوم خلال فترة الحصار . فاليوميات لا تتحدث كثيرا عن مشاكل غوردون الإدارية ، والعسكرية والغذائية ، بل أننا نجمع منها خطوطا عريضة ونغذيها من مصادر أخرى .

تعاني اليوميات أيضا من ضعف آخر ، فهي لا تتناول الا أحداث ثلاثة أشهر فقط من العشرة أشهر التي قضتها المدينة تحت الحصار ، وبما أن تسجيلها قد بدأ بعد ستة أشهر من وضع الحصار فهي تشير إلى قضايا لا يجد القارىء نفسه ملما تماما بجذورها وبدايتها . ولعل طبيعة تسجيل اليوميات لا تساعد كاتبها في التعرض لمنشأ القضية . قبل الخـــوض في تطورها كما هي الحال في كتابة التقارير . فيوميات غوردون هي في الواقع خواطر ومقترحات ومجموعة أفكار تحتل مركزا أوليا في دراسة شخصية له ولكنها لا تمثل بالنسبة للموضوع قيد البحث مصدرا غنيا بالمعلومات ، التي يمكن أن تبنى عليها دراسة شاملة .

قام أجمونت هيك (Egmont Hake) بنشر اليوميات دون أن يتعرض لمحتوياتها بالتحقيق أو التصحيح إلا في حالات الأخطاء الإملائية . كتب غوردون بعض أسماء الأعلام وأسماء الاماكن بطريقة غير مألوفة جعلت ما ترمز إليه خاضعا في أغلب الأحيان لتكهنات القارىء .

ولقد ضاعف هيك هذه المشكلة بنقله بعض الأسماء بطريقة مغايرة لتلك التي ظهرت بها في اليوميات . وليس هذا بالأمر الشاذ ، فقد كان كل من المؤلف والناشر غريبين عن عالم الأسماء العربية بصفة عامة والسودانية بصفة خاصة ، ورغم زيارات غوردون المتكررة للسودان فلم يكن من السهل عليه التمكن من اللفظ الصحيح للأسماء فدرج على كتابتها كما ينطقها . وهو محق في هذا فلم تزل كتابة الأسماء العربية بلغات أخرى مشكلة حتى اليوم بعد مضي أكثر من نصف قرن من الزمان . أما أسماء الأماكن فقد

كانت ولم تزل خاضعة لكثير من المغالطات بين الباحثين ولعل طبع *(Sudan Gazetteer)* بواسطة مصلحة المساحة السودانية يساعد فى إيجاد صيغة موحدة لكتابة هذه الأسماء .

ولقد قمت بمحاولة لتصحيح بعض الأسماء التى وردت فى اليوميات ونشرت كما هى ،وتلك الأسماء التى ظهرت صحيحة فى الأصل ونشرت محرفة . (ملحق ن) .

إخراج إلكتروني / ابوبكر خيري

وجدت مع يوميات غوردون مجموعة من الرسائل التى تبودلت بينه وبين أمراء المهدى أثناء فترة الحصار . ولقد أورد الناشر ترجمة لبعض هذه الرسائل سأحاول فى الصفحات التالية إثارة نقاط معينة بصددها والتعرض لبعض أجزائها .

تتكون المجموعة من خطابين من الشيخ عبد القادر أبراهيم (١) وثلاثة خطابات من عبد الرحمن النجومى وعبدالله نور (٢) ، وخطاب من عبدالله ود جباره (٣) وخطاب من المهدى (٤). ويلاحظ أن هذا هو الخطاب الوحيد من جملة خطابات المهدى الذى أرفقه غوردون مع اليوميات . ورغم أن بعض المصادر تشير إلى أنه تسلم خطابا بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٨٨٤ أى قبل أن ينتهى من كتابة اليوميات فى ١٤ ديسمبر ،ولكنه لم يعثر عليه ضمن ملاحقها . هناك أيضا نسخة من رسالة العلماء التى بعثوا بها للشيخ عبد القادر أبراهيم وعبد الرحمن النجومى (٥) ، وثلاثة خطابات من أمراء مهدويين إلى قادة غوردون (٦) . أما ردود غوردون فهى تشتمل على خطابين لعبد القادر أبراهيم (٧) وخطابين لعبد الرحمن النجومى (٨) ، وهناك أيضا نسخة من رسالة برقية بعث بها غوردون إلى فرج الله بك قومندان طابية أمدرمان بتاريخ ٣ محرم ١٣٠٢ ، ٢٤ أكتوبر ١٨٨٤ (٩) .

---

(١) ملحق أ – ب .
(٢) ملحق ج – د – هـ .
(٣) ملحق و .
(٤) ملحق ز .
(٥) ملحق ل .
(٦) ملحق ح – ط – ى .
(٧) ملحق أ – ب .
(٨) ملحق ج – د .
(٩) ملحق ك .

يحمل أول خطاب وصل لغوردون من الأمراء تاريخ ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ هـ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) (١) ولم يتبين بعد بصورة قاطعة ما اذا كان غوردون قد تسلم رسائل قبل هذا التاريخ ، إلا أنه من الأرجح أن يكون هذا قد حدث . فنصحي باشا يقرر أن كلا من العباس العبيد، والنور أبراهيم الجريفاوى ، والفكي مضوى ، قد بعثوا برسائل لغوردون قبل آخر مارس ، كما أن الشيخ العبيد ود بدر قد بعث له بخطاب ، وقد رد عليها جميعا . وقد ذكر أكثر من مصدر أن محمد عثمان أبى قرجـة قد كتب رسالة لغردون حال وصوله خارج بوابات المدينة . ولأن هذه المجموعة قد وصلته قبل أن يبدأ في تسجيل يومياته ــ أى قبل مغادرة ستيورت للخرطوم ــ فلعله قد أرفقها مع يوميات هذا الأخير كما إعتاد أن يفعل ، ولا بد أنها فقدت بالتالى معها .

ولم يعط الناشر ترجمة حرفية لكل المجموعة، بل تردد بين الترجمة الكاملة لبعضها والتلخيص لبعض آخر وإسقاط فئة ثالثة ، ولم تأت الترجمة فى كل الحالات سليمة ، بل هناك عدة أمثلة لتغييرات استحدثت فى اللفظ أو المعنى ، كما أن هناك حالات معينة تم فيها حذف أجزاء ذات أهمية .

جاء فى أول رسالة من الشيخ عبدالقادر إلى غوردون قوله ، «... لكن ثبوت حقيقة هـــذا الإمام المهـــدى المنتظر عليه السلام عندنا من إبتـــدى ظهوره مانع لنا من قبول مكاتبكم والعودة اليكم » . وقد أورد المترجم العبارة الختامية لتعنى « الرد على خطاباتكم . » (٢) ولا بد أن تحدث مثل هذه الترجمة بعض البلبلة . فقد أثبتت الوثائق المعروفة أن الشيخ عبد القادر قد بعث بخطابات أخرى لغوردون فيما بعد ، وهو يعنى بعبارة « العودة اليكم» أنه لن يعود للإقامة مرة أخرى فى الخرطوم حيث كان عند وصول غوردون اليها .

---

(١) ملحق أ .

(٢) Journals of Gordon, pp. 279-81.

درج المترجم أيضا على إستعمال كلمة « الدراويش » (١) على لسان الشيخ عبد القادر فى حين أن هذا التعبير لم يظهر فى أية رسالة منه ، بل كان يدعوهم بـ « فقراء الأنصار » ولعل المترجم كان متأثرا بذلك اللفظ الشائع الذى كان يطلق على أتباع المهدى، وكثر تداوله لدرجة أن المهدى أصدر منشورا يحرم فيه إستعماله .

لم يلتزم المترجم أيضا الدقة فى نقل الأسماء كما وردت فى الأصل، فهو يقول عبد القادر أبراهيم مرة وأبراهيم عبد القادر مرة أخرى (٢) .

جاءت النسخة العربية لرد غوردون على هذه الرسالة رديئة الخط ، ضعيفة الأسلوب وبلا تاريخ (٣) ولقد وردت فى ختامها العبارة التالية « واذا كان .... محمد أحمد المهدى فلماذا يفضل لحد الآن بالابيض بل اللازم أن .... كافة البلاد » . الإشارة هنا واضحة إلى مدينة الأبيض ولكن المترجم يقول إن الكاتب يعنى النيل الأبيض (٤) .

أما رد غوردون الثانى فهو يختلف عن سالفه من حيث الخط والأسلوب ولا بد أنه قد حرر بواسطة كاتب آخر ، فجاء مقروءا ومؤرخا ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ هـ (٢١ سبتمبر ١٨٨٤) (٥) . ورد فى النسخة العربية قوله : « .... فاخبروا ولد النجومى وأبو قرجة بأنهم يتوجهوا لكردفان وفيما بعد عند عمل ترتيبات نجعلهم سلاطين » وضع المترجم كلمة دنقلا مكان كردفان (٦) وهذا تغيير لم أجد له ما يبرره .

فقد كان غوردون يعنى كردفان وقد أشار إلى هذا الموضوع عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور فى رسالة لغوردون بالقول « .... تذكروا

---

(١) Ibid 279 - 81.

(٢) Ibid, pp. 279-81, pp. 298-9, pp.299-391.

(٣) غوردون إلى الشيخ عبد القادر ، ملحق أ .

(٤) Journals of Gordon, pp. 281-2.

(٥) غوردون إلى الشيخ عبد القادر ملحق «ب» .

(٦) Journals of Gordon pp. 298-9.

له أنه يخبرنا نحن وأبو قرجة نتوجه لدار الغرب أولا لنا وعند عمل ترتيبات تجعلونا سلاطين » (١) .

حذف المترجم من تلك الرسالة فقرة ذات أهمية فهى تكشف لنا أن غوردون كان يحاول استمالة الشيخ عبدالقادر بكافة الوسائل ، فبعث له بهدية أشار اليها بقوله ، « .... وأنا أعرف أنه يلزم لكم صابون لغسل وجهكم فها هو مرسل لكم صندوق صغير من غسيل وجهنا » .

حمل أول خطاب من عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور تاريخ ٢١ ذو القعدة ١٣٠١ هـ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) حذف المترجم فقرة قد تساعد فى إجلاء الحقيقة حول عدد الرسائل التى بعث بها غوردون إلى المهدى ، فحتى اللحظة لدينا نسخة من رسالة واحدة هى تلك المؤرخة ١٢ ربيع ثان ١٣٠١ هـ (١٠ فبراير ١٨٨٤) إلا أن بعض المصادر أشارت إلى أنه قد كتب رسائل أخرى وأورد بعضها نصوصا لتلك الخطابات .

يقول الأميران فى خطابهما « ... وحيث أنك أولا بحال حضورك بالخرطوم قد كاتبك الإمام المهدى عليه السلام بالتسليم لأمر الله ورسوله وأعلمك بالحقيقة التى لا كذب فيها واوعدك بعد هذا ان لم تسلم لأمر الله ورسوله فإن حزب الله واصل إليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فاستدعيت ملك عباده مع أن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده الصالحين ومع ذلك رددت لسيادته ردا غير المقصود والمفهوم منه عدم الامتثال والإنقياد لما أمرك به » . (٢)

فهل تعنى الاشارة هنا أن غوردون قد بعث للمهدى برسالة بعد أن استلم رد المهدى على خطابه الأول ؟ .

لقد أورد نصحى باشا رسالة نقلها عنه نعوم شقير ولأنها مؤرخه بـ ١٩

---

(١) عبد الرحمن النجومى وعبدالله النور إلى غوردون باشا ملحق د .

(٢) عبد الرحمن النجومى وعبدالله النور إلى غوردون باشا ، ملحق ج .

نوفمبر ، فلا بد أن إشارة الأميرين هنا لخطاب آخر[1] ولعله ذاك الذى بعث به العلماء للمهدى فهما يقولان فى نفس المصدر .... « وخاطبت سيد الجميع عليه السلام بعدم الامتثال مستدلا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية على لسان كتابك وعلمائك الضالون » .

حمل رد غوردون إلى النجومى تاريخ ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ ، (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) . وقد حذف المترجم أجزاء لها مدلولها فى الكشف عن نظرة غوردون واستخفافه بالمهدية ، فهو يكتب « أما من جهة المدافع والصواريخ الذى تريدوا ضربنا بهم فمع أنه موجود عندنا مثلهم كثير كنا نقرأ فى الجوابات أن المهدى يهلك بدون مدافع ولاصواريخ فما هى الحقيقة» كما حذف فقرة أخرى تعكس مبالغة غوردون فى مقدرته الذاتية وعدم تقديره الصحيح لأهمية التأييد الذى يسبغه عليه سكان المدينة ، فهو يقول « ... وكذلك الأهالى والعلماء الذين تقولوا إنهم مظاهرين معنا وباطنهم معكم ويوم ما يحصل القتال يتركونا ويهربوا عندكم فاننا ليس حاجزنهم بطرفنا ولا جابرنهم من التوجه لطرفكم فتوجههم وعدمه على حدا سوى ولماذا لم يتوجهوا لمقابلتكم » (٢) .

ولقد أرسل غوردون خطابا آخر لعبد الرحمن النجومى بتاريخ ٢ ذو الحجة ١٣٠١ هـ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) وتعاقب مع خطاب النجومى الذى يحمل نفس التاريخ (٣) . أغفل المترجم الجزء الأول من هذه الرسالة رغم أهميتها فى تصوير أساليب غوردون لإرهاب خصمه باعطائه معلومات مبالغ فيها عن قوة حملة الإنقاذ وعن معارك لم تحدث على الإطلاق أعقبتها إنتصارات وهمية . فهو يصف الحملة « .. الذين وصلو من جيوش الأنجليز لجهة

---

(١) *Nuṣhi Pasha*, p. 182.

(٢) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ملحق ج .

(٣) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ملحق د .

عبد الرحمن النجومى وعبدالله النور إلى غوردون باشا ملحق د .

مروى عشرة آليات بيادة وخيالة وطوبجية والباقين خلفهم فى دنقلا ووادى حلفا وأن مدير دنقلا أجرى قتل الفكى الهدى والشريف محمود .. وصار قطع جيوشهم عن آخرهم ومن إخبارية أخرى حضرت لنا من مخصوص من جهة بربر بأن وابوراتنا دخلوها ومنتظرين حضور العسكرية .. » (١) .

أما خطابات الأمراء ، فهى تشمل على خطاب من الصديق الطاهر، وحامد ولد ادريس الشايب إلى عثمان بك قائمقام طابية أمدرمان(٢) وخطابين من أحمد المصطفى الأمين، أحدهما إلى عثمان بك، والآخر لخشم الموسى (٣) لم يرفق غوردون أى نسخ للردود على هذه الرسالة مع اليوميات ، ويبدو أن قادته لم يبعثوا بردود كما هو واضح من خطاب أحمد المصطفى، فهو يخاطبهم « أيها الأحباب لقد طالما دعوناكم إلى الله ورسوله ومهديه عليه السلام بلا أجوبة فلم كان تحضروا ولا ترسلوا لنا رسل من طرفكم كما طلبنا منكم ذلك » (٤) .

حمل خطاب الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشايب تاريخ ٢٣ذى الحجة ١٣٠١ هـ (٥ أكتوبر ١٨٨٤) . أعطى المترجم ملخصا لهذه الرسالة ولكنه نقل اسم الصديق الطاهر « السيد الطاهر» (٥) . كذلك حمل خطاب أحمد المصطفى لعثمان بك نفس التاريخ . فسر المترجم الإشارة إلى الباخرة التى حملت ستيورت لتعنى باخرة باسم « خرطومية » (٦) ولكن لم تكن بين أسطول غوردون باخرة تحمل هذا الإسم. وعندما يقول الكاتب إن « الوابور الخرطومية قبضت والفقرا أهلكوا من فيها » فلابد أنه يعنى الباخرة «العباس».

---

(١) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ملحق د .

(٢) الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشايب إلى عثمان بك ، ملحق ى .

(٣) أحمد المصطفى إلى عثمان بك ، ملحق ح .

أحمد المصطفى إلى خشم الموسى ، ملحق ط .

(٤) أحمد المصطفى إلى عثمان بك ملحق ح .

(٥) Journals of Gordon pp. 311-2.

(٦) Ibid, pp. 313-4.

٢ ـ تقرير مجلس الضباط

في رمضان ١٣٠٣ (يونيو ١٨٨٦) وضع مجلس من العسكريين والمدنيين برئاسة محمد نصحي باشا تقريرا باللغة العربية عن حصار الخرطوم، منذ وصول غوردون إليها وحتى سقوطها تحت عنوان « حياة غوردون باشا في الخرطوم » (١) . إقتصرت عضوية المجلس على كل من السيد أمين أفندي الذي كان أثناء الحصار قائدا للفرقة الرابعة، واحتل مركزا من خط النار غرب بوابة الكلاكلة ، وحسن أفندي عبد الله وكيل المديرية ، ومرزوق أفندي رزق، وعبدالقادر بك حسن، وميخائيل أفندي داود . ليست هناك معلومات مؤكدة عما اذا كان هؤلا قد أقاموا في الخرطوم طوال مدة الحصار، وإلى أن سقطت المدينة، ولكن يلاحظ أن أعضاء المجلس بإستثناء نصحي باشا ومرزوق أفندي رزق قد قدموا شهود في محاكمة حسن بك بهنساوي التي إنعقدت في القاهرة (٢) .

فلا بد أنهم قد عاصروا الحصار وشهدوا السقوط . إلا أن نصحي باشا لم يكن هناك، إذ غادر المدينة إلى شندي في ٣٠ سبتمبر ١٨٨٤، ولم يعد إليها مرة أخرى.

---

(١) محمد نصحي باشا (١٨٣٨ – ١٩٠٣) تركي الاصل، درس العلوم العسكرية في برلين، واشترك في الحرب الروسية – التركية ١٨٧٧ – ٠٨ ذهب إلى السودان وشهد اندلاع الثورة المهدية وساهم في حصار الخرطوم ، إلا أنه غادر المدينة بآخر سبتمبر ليقود ، الاسطول المكلف بانتظار حملة الانقاذ في شندى. بعد سقوط الخرطوم ، رجع مع الحملة إلى مصر وفي نفس العام تمت ترقيته إلى رتبة لواء، ولكنه تقاعد بعد ذلك بقليل .

Hill, *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan*, p. 241.

(٢) كان حسن بك بهنساوي أثناء الحصار مسئولا عن خط الدفاع الممتد من النيل الابيض وحتى بوابة الكلاكلة. ولقد اتهم عند رجوعه إلى القاهرة بتهاونه في صد هجوم الأنصار عشية ٢٦ يناير ١٨٨٥. فعقدت له محكمة عسكرية في ابريل ١٨٨٧ وبعد الاستماع إلى عدد من الشهود قررت تبرأته.

Wingate, *Mahdiism and the Egyptian Sudan*, pp. 556-90.

ولم يذكر المؤلفون عما إذا كان تقريرهم قد كتب من الذاكرة أم أنهم إستعانوا ببعض الوثائق التى سجلت أثناء الحصار .

من المرجح أن يكون نصحى باشا قد إحتفظ بمثل هذه التسجيلات ، إذ أنه ترك لنا يوميات شاملة عرفت بـ « جورنال الحوادث » سجل فيها وقائع الفترة التى قضاها فى شندى . ولعله قد فعل ذات الشىء أثناء وجوده فى الخرطوم .

ويبدو أن التقرير قد كتب بمبادرة من الضباط أنفسهم فى محاولة لتسجيل أحداث تلك الفترة من وجهة نظرهم . ولقد قام نعوم شقير بترجمته للإنجليزية ، وإعتمد عليه فى تأليف الجزء الخاص بحصار الخرطوم فى كتابه « جغرافية وتاريخ السودان » . ولأن كل الذين تطرقوا لمعالجة تلك الفترة إعتمدوا فى الأساس على نعوم شقير يبقى هذا التقرير المصدر الذى أعطى حصار الخرطوم صورته المعروفة حتى الآن فى التاريخ .

كان ونجت على علم بوجود التقرير ، إلا أن محاولاته فى الحصول عليه قبل إنجاز كتابه (*Mahdiism and The Egyptian Sudan*) لم تثمر ، ولكنه علم فيما بعد أن الخديوى يحتفظ به فى مكتبته الخاصة ، فاستأذنه فى الإطلاع عليه ، وقدم ملخصا له فى (*SNR XIII,* 1930) . إعتمد ونجت هنا على ترجمة نعوم شقير ونشرها كما هى ، اللهم إلا تعديلات طفيفة فى الأسلوب وحذف بعض الفقرات التى رأى أنها ليست على أى قدر من الأهمية .

ويعتبر التقرير الوثيقة الوحيدة المعروفة حتى الآن التى تعالج حصار الخرطوم منذ بدايته إلى نهايته وبصورة تفصيلية .

فهو يقع فى حوالى ٢٨٠ صفحة فلسكاب كتبت بخط اليد . وقد ركز على الأحداث اليومية دون أن يسجل أى إنطباعات أو آراء سياسية . ولعل هذه هى ميزته الرئيسية على يوميات غوردون . فأمدنا التقرير بمعلومات عن موضوعات شتى ، منها سلوك سكان المدينة وتعاونهم مع غوردون

وإستجابتهم لاجراءاته وعلاقتهم بالأنصار . وأعطى تفصايل عن الأمور المالية، والإدارية، والعسكرية، وتطرق إلى مشكلة الغذاء ودورها فى تصعيد الأزمة والتعجيل بالسقوط ، كشف لنا أيضا عما إتخذ من خطوات فى سبيل تنفيذ الإخلاء كما أورد معلومات عن البعثة التى أوفدها غوردون لإنتظار حملة الإنقاذ فى شندى .

تضمن التقرير أيضا ملخصات لبعض الرسائل المتبادلة بين غوردون والأنصار، وبين هذه الرسائل رسالة من عبد القادر أبراهيم ورد غوردون عليها ، ورسالتان من المهدى ورد غوردون عليهما، ورسالة من علماء المدينة لى المهدى، ورسالة من أبى قرجة، ورسالتان من النجومى ورد غوردون عليهما.

واذا ما قارن القارىء بالمصادر الأخرى ، فإنه قلما يجد تناقضا فى الحقائق الأساسية، كما أن أبراهيم البورديني ، وهو تاجر مصرى أقام فى الخرطوم وبقى حتى سقوطها ، قد كلف بقراءة التقرير وتسجيل ملاحظاته عليه، ورغم أنه أبدى بعض التحفظات ولكنه قبله بصورة عامة .

ويلمس القارىء بين سطور تعليق البورديني أن نصحى باشا قد ألبس نفسه ثوبا أكبر مما يستحق، وأنه لم يكن بأى حال ذاك الرجل الذى صوره المؤلفون . وإذا استعنا بالمصادر الأخرى ثبت بالفعل أن نصحى باشا قد اضطلع أثناء الحصار ببعض المهام ذات المسئولية والأهمية . فقاد بعض الحملات العسكرية الناجحة ضد الأنصار .

كما أن بعثته إلى سنار عادت محملة بالأغذية ،وأنعم عليه غوردون بلقب الباشوية ، ثم عقد إليه لواء قيادة إسطول شندى .

ولكن يبدو أن تلك الثقة لم تكن مطلقة،وربما كان إرساله لشندى محاولة لإبعاده ، خاصة ، أن غوردون سبق أن طلب منه مغادرة البلاد مع الجنود المصريين ، كما يلاحظ من يوميات غوردون وجورنال الحوادث أنه درج على مخاطبة نصحى باشا بلهجة عنيفة طوال مدة بقائه فى شندى .

بالإضافة إلى هذا فقد رفع توصية عن طريق يومياته لقائد حملة الإنقاذ طالبا منه بالا يعود بأى من « الجنود البيض » المتمركزين فى إسطول شندى مـرة أخـرى للخرطـوم . ومـن ثـم لا بـد أن يميل القـارىء إلى الإعتقاد بأن نصحى باشا قد جنح إلى المبالغة فى تصوير نشاطه أثناء الحصار ، ولعله كان يهدف من وراء ذلك للحصول على أكبر قدر مـن الإنعامات المادية والمعنوية من الحكومة المصرية .

ومن ناحية أخرى ، علينا أن نأخذ تعليق البورديني بحذر ، إذ لا يبدو أنه خال من الغرض . فقد كتب هو تقريرا منفصلا وصور نفسه تاجرا يشار اليه بالبنان ، وساعد غوردون الأيمن الذى كثيرا ما أنقذه من الأزمات المالية والادارية ، إلا أن مؤلفى التقرير تجاهلوه تماما ولم يذكروا اسمه إلا فى مناسبتين لم يكن الحديث فيهما من مصلحته : وكانت المناسبة الأول تتعلق بحادثة التاجر الإغريقى الذى يملك مخبزا مناصفة مع البوردينى ، وقد اتهم هذا التاجر بإخفاء الذرة حتى يتمكن من بيعها بسعر عال عند اشتداد الحصار. ورغم أن الإتهام لم يوجه للبوردينى إلا أن الإشارة كانت كافية لإثارة الشك حول نشاطه . أما المناسبة الثانية فتشير إلى أن البوردينى كان يدل أحمد سليمان عند سقوط المدينة على الجميلات من النساء والأثرياء من الأهالى . وقد أنكر البوردينى التهمة الأولى ولكنه إعترف بالثانية وبررها بأنها كانت ضرورية لحماية أمواله الخاصة . ولعل استماتة البوردينى فى الدفاع عن نفسه هنا كانت مرتبطة بخشيته من أن يتهم بالتعاون مع الأنصار ، ويتعذر عليه بالتالى إسترداد أى مبالغ يحتمل أن يكون قد أقرضها لغوردون مقابل أوراق البون أثناء الحصار . فربما جاء إذن تشككه فى الدور الذى لعبه نصحى باشا كرد فعل لتجاهل المؤلفين له .

ولقد أورد التقرير ترجمة لخطابين بعث بهما غوردون إلى المهدى أولهما بعث به بعد إستلامه لرد المهدى على خطابه الأول ، والثانى أرسله له بعد

وصوله إلى أمدرمان (١) ولم تذكر أي مصادر أخرى شيئا عن هذه الخطابات سوى نعوم شقير (٢) وقد جزم البورديني أن غوردون لم يبعث للمهدي سوى رسالة واحدة تلك التي تحمل تاريخ ١٠ فبراير ١٨٨٤ .

نقل التقرير أيضا ترجمة للخطابات التي بعث بها الأمراء لغوردون، إلا أن أجزاء من هذه تختلف إختلافا كبيرا عن الأصل كما يلاحظ القاريء في بعض الحالات وجود فقرات لم ترد على الإطلاق، مما يدل على أنهم كانوا يكتبون عن هذه الرسائل من معلومات سماعية، أو لأنهم قد قرأوها في وقتها ولكنهم نسوا محتوياتها عند كتابة التقرير .

وفي ترجمة لخطاب من عبد الرحمن النجومي ذكر المؤلفون على لسانه « أنا أمير أمراء قوات المهدي ، فاتح كردفان وجبل قدير الملقب بالسيف المشهور » (٣) لم ترد هذه العبارة في أي من خطابات النجومي ولعل الفقرة التي سمع بها المؤلفون هي قوله (إن المهدي) « قد عينا نحن العاملين المذكورين بهذا وأمدنا برجال ثقات من أصحابه يحبون الموت كحبكم للحياة » (٤) .

ولقد تعرض رد غوردون للتحريف أيضا ، ولعلهم كانوا يسعون إلى تصويره كالبطل المقدام الذي لا يهاب مخاطبة خصمه بلهجة مثل « عليكم أن تتأكدوا أني لن أعر سيدكم المزيف المهدي إهتماما وسترون عما قريب جيشكم منهارا كما حدث لقوات أبو قرجة، وجيش إبن عمكم في الحلفاية فأمسكوا ألسنتكم وكفوا عن هذا الهراء » (٥) .

---

(١) Nushi Pasha, p. 74, p. 182.

(٢) نعوم شقير ص ٨٤٧ .

(٣) Nushi Pasha, p. 113.

(٤) عبد الرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا ، ملحق ، ج .

(٥) Nushi Pasha, p. 113-4.

إختلفت المصادر حول الكيفية التى إستسلم بها صالح الملك عندما كان محاصرا فى جزيرة فداسى من قبل أعوان محمد الطيب البصير . ذكر التقرير أن هذا تم نتيجة لخدعة من أبى قرجة والعبيد بدر اللذين أوهما صالح الملك بأن الخرطوم قد سقطت . فما كان منه إلا أن رمى عدته وعتاده الحربى فى النهر واستسلم وهو مكتئب (١) وقد ذكر التقرير أن أبا قرجة إخترع هذه الحيلة بعد أن ذهب إلى الخرطوم، وتأكد له أنه لن يتمكن من إقتحام بواباتها بالقوة التى لديه . فسار إلى فداسى على أمل أن يجبر صالح الملك على التسليم ويعزز جيشه بجنود الشايقية وأسلحتهم . ولكن إسماعيل ابن عبد القادر يورد رواية مختلفة يذكر فيها أن صالح الملك قد استسلم من تلقاء نفسه، وكتب رسالة للمهدى يعلن فيها اعتذاره عما إقترفه سابقا فى حق الأنصار، ويسأله أن يبعث بأحد قادته ليتم التسليم على يديه. وأنه كان متخوفا من التسليم لمحمد الطيب البصير خشية من أن يتعرض هو ورجاله إلى بعض الإجراءات الإنتقامية . فإستجاب المهدى لطلبه وبعث بمحمد عثمان أبى قرجة الذى سار من توه لفداسى وتوجه منها إلى الخرطوم، حيث شرع فى وضع الحصار ، ولقد أيد أبراهيم فوزى هذه الرواية .

وذكر التقرير أيضا حادثة فى هذا الشأن تجعل القارىء يتشكك فى صدق رواية المؤلفين. فهويقول: إن غوردون كان على علم بنوايا أبى قرجة، فبعث برسول لصالح الملك يحذره الايعير أى أنباء ينقلها له أبو قرجة التفاتا (٢) وقد تأكد تبليغ تلك الرسالة لصالح الملك فإذا كان الأمر كذلك ، لماذا استسلم وهو يعلم سلفا أن رواية سقوط المدينة إنما هى محض إختلاق .

---

(١) Ibid, p. 63.

(٢) Nushi Pasha, pp. 40-1.

٣ ـ تقرير ابراهيم البورديني

كان أبراهيم البورديني يعمل بالتجارة في الخرطوم وبقي فيها حتى وصول غوردون . ولقد عاصر فترة الحصار حتى سقوط المدينة . ثم سافر إلى بربر فيما بعد ، وتمكن من الفرار إلى سواكن في يونيو ١٨٨٧ ومنها وصل إلى القاهرة . ولقد كتب تقريرا بعنوان (حصار الخرطوم وسقوطه ١ ذو الحجة ١٣٠٤) . وهو يقع في حوالى ٢٠ صفحة تشمل الفترة منذ وصول غوردون إلى ما بعد سقوط المدينة .

ويعالج البورديني في الأساس الجانب العسكري فهو يصف المعارك التي جرت بين قوات الحكومة والأنصار ، ويركز على المرحلة الأخيرة من الحصار .

وذكر التقرير أن المهدي أرسل لغوردون « كسوة الزهاد » مع خطاب بعد وصوله إلى ديم أبي سعد ، ولكن هذا قد تم قبل مجيء المهدي بحوالى خمسة أشهر حينما كان مقيما بالرهد . ورغم أن البورديني قد جزم في معرض تعليقه على تقرير نصحي باشا أن غوردون لم يرسل للمهدي سوى رسالة واحدة إلا أنه يعود ويذكر في تقريره أن غوردون قد كلف أبراهيم بك رشدي ليكتب خطابا للمهدي يحذره من الإتصال به مرة أخرى . وقد جاءت هذه الرسالة بعد تسلمه لخطاب المهدي الذي يرفض فيه سلطنة كردفان .

نصيحة العوام للخاص والعام

كان أحمد العوام كاتبا لعرابي باشا ونفي إلى الخرطوم بعد معركة التل الكبير ، وقد أبدى تعاطفا مع المهدي وبذل محاولات لإقناع الأهالي بدعوته ، فكان يخطب علانية في التجمعات منددا بوعود غوردون ، ومشيدا بإنتصارات المهدي . حاول غوردون التفاهم معه فعينه كاتبا ، ويقال إنه حرر بعض الخطابات التي بعث بها غوردون للأمراء . ولكن ما أن وصل المهدي

إلى أمدرمان حتى عاود سيرته القديمة . فذكرت بعض المصادر أنه كان يقوم بكل ما من شأنه أن يغضب الحكومة، وفى النهاية أوعز لأحدى النساء إضرام النار بمخزن الذخيرة، فاكتشف أمره وقرر غوردون الحكم عليه بالإعدام ونفذ فورا .

ولقد كتب العوام نصيحته فى ٢٠ رمضان ١٣٠١هـ، وصدرها بقوله « هذه الرسالة المسماة بنصيحة العوام للخاص والعام من إخوانه أهل الإيمان والإسلام فى وجوب إتحادهم وإئتلاف قلوبهم بإتباع سيدنا أمام الزمان محمد المهدى المنتظر عليه السلام » . وهى ليست سجلا للأحداث بقدر ما هى خواطر وآراء فى الدين والسياسة وتقع فى حوالى ٦٠ صفحة قسمها إلى خمسة فصول .

ويبدو أن الغرض من كتابة النصيحة كان رغبته فى النيل من الحكومة التركية، فهو يحملها كافة مسؤولية ما يحل بالمسلمين من بلايا، لأن الحكام لا يتقيدون بكتاب الله وسنة رسوله . وهو يدعو المسلمين إلى عدم إتخاذ اليهود والنصارى أولياء لهم، ووجوب وقف القتال بين بعضهم البعض، والالتفاف حول المهدى لأنه يدعو إلى إقامة دين الحق .

السودان بين يدى كتشنر وغوردون

ضمن أبراهيم فوزى كتابه بالعنوان أعلاه فصلا عن حصار الخرطوم منذ وصوله إليها مع غوردون فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ . ولم يكن أبراهيم فوزى غريبا عن البلاد، فقد سبق أن عمل فيها أثناء ولاية غوردون الأولى، وقد اتهم بالاشتغال بتجارة الرقيق حينما كان حاكما على بحر الغزال، ولكن غوردون عفا عنه وطلب منه أن يعود معه مرة أخرى للسودان عندما إلتقى به فى القاهرة .

أورد أبراهيم فوزى معلومات أساسية عن أحداث المدينة ولكنه يميل إلى الإختصار، ويعطى أحيانا معلومات غير دقيقة . وهو يقول أن غوردون

بعث بخطابه إلى المهدى من كورسكو فى حين يذكر ستيورت أن هذا قد تم من قرية شمال بربر بقليل ولعل تاريخ الخطاب (١٠ فبراير) يؤيد الرأى الأخير .

ويورد المؤلف أرقاما مبالغا فيها ، من ذلك مثلا تقديره لسكان الخرطوم الأجانب بـ ٢٠٠ ألف ، والوطنيين الذين هجروا المدينة إلى المهدى بـ ٣٠ ألف ، وقدر قوات أبى قرجة بـ ٢٠ ألف مقاتل ، والذين ساروا مع المهدى ٨٠٠ ألف تقريبا .

سعادة المستهدى فى سيرة الامام المهدى

لمؤلفه إسماعيل بن عبد القادر ، ابن أخت أحمد الولى الكردفانى . درس فى الأزهر وأصبح مفتيا لمديرية كردفان ومقيما فى الأبيض . عند وصول المهدى إلى منهل كابا أعلن تأييده له وبقى فى معيته إلى أن كلفه الخليفة عبد الله بكتابة سيرة المهدى . فاستعان بالأنصار الذين شاركوا فى الأحداث ، فكتب سيرة شاملة للفترة منذ قيام المهدى إلى ما قبل موقعة توشكى (رمضان ١٢٩٨ إلى ٣ ربيع أول ١٣٠٦) . ولقد وشى به البعض فنفاه الخليفة إلى الرجاف ١٨٩٣ وحرق كل نسخ سيرته ، ولكن أحد العساكر المصريين تمكن من إخفاء نسخة إستعان بها نعوم شقير فيما بعد فى كتابة تاريخه .

ويبدو أنه سلمها لونجت فحفظت ، مع أوراقه فى جامعة درم .

وقد ركز إسماعيل بن عبد القادر على المعارك التى خاضها الأنصار ضد قوات الحكومة بل هو يعالج تاريخ المهدية من خلال « الغزوات » . فسجل حصار الخرطوم من خلال حملات الأمراء مبتدئا بـ « سرية محمد عثمان الشهير بأبى قرجة ثم « سرية عبد الرحمن النجومى » ثم « ذكرى غزوة المهدى عليه السلام إلى الخرطوم » ثم « ذكر فتح خندق أمدرمان » .

ورغم أنه قد أعطى تفاصيل للأحداث إلا أنه لم يورد أى أرقام . ويلاحظ

القارىء أنه لم يذكر شيئا عن الرسائل المتبادلة بين غوردون والأمراء سوى رسالة أبى قرجة .

رسالة كوزى *Cuzzi, G. Fifteen Years Prisoner of the False Prophet.*

جاء المؤلف جوسيبى كوزى إلى الخرطوم فى ١ر١ر٨٢ كمندوب لإحدى الشركات التجارية. وبقى فيها إلى ما بعد هزيمة يوسف الشلالى حين سافر إلى سنار ، ولكنه عاد مرة أخرى فى يونيو ١٨٨٣ وبقى حتى آخر نوفمبر ،ثم سافر إلى بربر وبقى هناك إلى ما بعد سقوط المدينة . ووقع فى أسر الأنصار حتى أطلق سراحه عند مجىء جيش كتشنر . إذن ، فالمعلومات التى أوردها عن الحصار هى فى مجموعها سماعية لأنه لم يكن داخل المدينة أثناء تلك الفترة رغم أنه قد زارها لمدد قصيرة . وفوق هذا لم يؤلف الكتاب بنفسه بل أعطى المعلومات لصحفى ألمانى فنشرها هذا بأسمه فى أبريل ١٨٩٩ .

ولقد أورد فى الفصل الأول والثانى معلومات عن المهدية منذ بداية الدعوة فى أبا إلى معركة شيكان ولعله قد حصل على هـــذه من بعض الأشخاص الذين إلتقى بهم أثناء الأسر . فإشتملت على وصف لأحداث وقع بعضها وبعضها الآخر لم يقع ويعدها هو جرائم إرتكبها الأنصار ، فهو يذكر مثلا أنهم كانوا يقتلون يمنة ويسرة عند دخولهم الأبيض . فى حين أن هذا لم يحدث على الإطلاق .

ولقد ركز فى الفصول التى تلت هذه (الثالث – الرابع – الخامس – السادس) على أحداث بربر ومجيئه إلى الخرطوم كرسول من قبل محمد الخير ،ثم سفره لمقابلة المهدى ورجوعه مرة أخرى إلى بربر ، وخصص الفصل السابع للفترة التى أعقبت سقوط المدينة وحتى مجىء جيش كتشنر .

ولقد أخطأ كوزى حينما قال: إن غوردون أرسل هدية مع خطاب إلى المهدى بعد وصوله الخرطوم ، فقد تم هذا قبل وصوله إلى بربر ، ثم أن غوردون لم يعترف به سلطانا على السودان الغربى حسب رواية المؤلف، بل على كردفان فقط .

النـــداء فى دفع الافتراء :

عالج مؤلفه محمد عبد الرحيم موضوعات متفرقة عن تاريخ المهدية . وكان المؤلف قد شهد حصار الخرطوم مع الأنصار ولكنه سجل بعض الأحداث المتعلقة بالجانبين ، فوصف المعارك التى دارت مدعمة بالتواريخ والأسماء .

ولقد إنفرد هذا المصدر بايراده نصا قيل إنه للخطاب الذى ألقاه غوردون عند وصوله للمدينة ، ورغم أنه تضمن بعض المعلومات التى رددتها مصادر أخرى الا أن القارىء لا يملك الا أن يتشكك فى بعض التفاصيل. منها مثلا قول غوردون « ... وقد خابرت السيد محمد أحمد المهدى بفحوى مأموريتى » ومصدر الشك هنا أن غوردون كان يتجنب دعوة المهدى بهذا الإسم ، لأن هذا يعنى الإعتراف به ، وقد خاطبه فى رســالته التى ضمنها مجموعة المسلمى بـ « السيد محمد أحمد » فقط وأشار المؤلف إلى أن غوردون قد إعترف به سلطانا على « السودان الغربى برمته » ولكن خطاب غوردون يحدد السلطنة بكردفان فقط . وعن تجارة الرقيق ذكر المؤلف أن كل الأوامر الصادرة بشأنها قد الغيت ورغم أن نصحى باشا قد أورد معلومات مماثلة إلا أن المنشور الذى أصدره غوردون فى هذا الشأن كان ينادى بالغاء الإتفاق الذى صدر عام ١٨٧٧ والذى نص على عتق الرقيق بعام ١٨٨٩ فقط كما أن العفو الذى أصدره غوردون لم يشمل « جميع المسجونين على إختلاف جرائمهم » كما يذكر المؤلف هنا بل إستثنى القتلة .

تاريخ حياتى :

كان بابكر بدرى ، مؤلف هذه السيرة ، يقيم مع عائلته برفاعة ، وعند إندلاع الثورة إستجاب والده لدعوة المهدى فحضر بعائلته إلى أم‌درمان فوجد المهدى قد إستقر فى ديم أبى سعد . ولقد شارك المؤلف فى العمليات التى شهدتها الأيام الأخيرة من الحصار وكان بين أوائل الذين دخلوا المدينة فى صبيحة ٢٦ يناير من الجزء الجنوبى الغربى من الخندق الذى هدمه فيضان النيل.

ولقد تعرض لأحداث الحصار فى بضع صفحات كانت أساسا حول الأسابيع التى سبقت سقوط المدينة، ولم يورد أرقاما ولا تواريخ. وقد أخطأ فى تاريخ بعض الأحداث، فهو يذكر مثلا أن المعركة التى قتل فيها ساتى بك تمت بعد مجىء النجومى ولكنها فى الواقع قبله وهو يقول أيضا إن صالح الملك قد سلم للشيخ العبيد بدر، ولكن المصادر تتفق على أن التسليم قد تم على يد أبى قرجه وربما بحضور الشيخ العبيد.

* * *

الفصـــل الأول

تمهيــد

نبذة فى تاريخ مدينة الخرطوم

يجمع المؤرخون أن الخرطوم ــ كقرية صغيرة يؤمها صائدو الأسماك قد وجدت فى التاريخ منذ أزمان سبقت قيام مملكة الفونج فى ١٥٠٤ إلا أنها لم تحظ بأى إهتمام من جانب أى من الحكام ، ولعل كل ما اكتسبته فى العهد الجديد هو قيام عدة خلاو لرجال الدين فى منطقتها (١) ، فنشأت احدى هذه الخلاوى فى قرية توتى ، وكان من رجالها الشيخ أرباب العقائد الذى ما لبث أن إنتقل إلى الخرطوم فى ١٦٩١هـ (٢) ويبدو أن بعض الأهالى قد سعوا إلى التقرب من الشيخ فانتقلوا إلى الإقامة معه فى القرية، الا أن هذا لم يكسبها شهرة تذكر فبقيت كما هى ، قرية للصيادين لا تجذب إنتباه المسافرين الأجانب فلم ترد أى إشارة لها فى كتاباتهم أو خرائطهم رغم أن البعض قد وضع قرى أخرى . مثل توتى وأم‌درمان والحلفاية فى مواضـــعها الصحيحة .

بدأ تطور القرية مع فتح محمد على باشا ، إذ قام أحد أحفاد الشيخ أرباب ، محمود ود على ، بإستقبال إسماعيل باشا فى مكان مقابل للحلفاية عند وصوله فى ٢٤ مايو ١٨٢١ . وعند عبوره النيل استقبله فى الخرطوم الفكى أرباب ود على خليفة الشيخ أرباب . وفى أولى مراحل تنظيم الإدارة بعد الفتح ، وضعت الخرطوم فى نطاق مديرية سنار الا أن الاحتفاظ بحامية صغيرة فى كررى قد اسبغ على المنطقة بعض الأهمية . ثم جاء مقتل إسماعيل باشا والمآسى التى صحبته لتستحوذ على إهتمام السلطات الكامل فى كل من

---

(١) Stevenson, "Old Khartoum 1821-1885", *SNR* (47, 1966), p. 3.

(٢) أبو سليم ، معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم ص ٤ .

مصر والسودان، ولم يكن التفكير فى تعمير البلاد واردا فى تلك الأيام، فبقيت الخرطوم بعيدة عن الأضواء .

وفى ١٨٢٤ تسلم عثمان بك برنجى ، مقاليد السلطة من الدفتردار ، فأتى بكتائب من الجند شيد لهم معسكرا فى أمدرمان فى حين عبر هو النيل إلى الخرطوم، واستقبله هناك الشيخ شنبول ود مدنى الذى تم تعينه، فيما بعد شيخا على المنطقة الممتدة من حجر العسل إلى جبال الفونج (١) . ويبدو أن عثمان بك قد فطن إلى إستراتيجية موقع الخرطوم فعين عثمان بك خربوطلى وكيلا له فى القرية . وقد أعقب هذا تشييد مبنى لرئاسة الإدارة الحكومية نقلت اليه وحدات من المصالح ومخزونات الدولة (٢) .

وعند إنتهاء ولاية عثمان بك برنجى خلفه محوبك مدير مديرية بربر، فأتى بجنوده وشيد لهم معسكرا فى حلة خوجلى شمال الخرطوم، وحظيت القرية ببعض الشهرة عندما تم بناء مقر دائم للحكومة فيها (٣) .

بدأ تفكير الحكام الجدد يتجه نحو إيجاد عاصمة للبلاد بعد أن أتضح أن مناخ سنار لا يلائمهم صحيا . وقد استبعدت ود مدنى لنفس السبب فيما بعد، والمعتقد أن محمد على باشا قد اختار شندى مقرا لعاصمة ملكه بناء على نصيحة الأطباء ، إلا أن مقتل إبنه هناك جعله يصرف النظر عنها .

غير أن خورشيد باشا تنبه عند مجيئه إلى أهمية موقع الخرطوم وهوائها الطلق، فحاول أن يعمر القرية بدعوة أهالى المناطق المتاخمة لها وبعض عائلات سنار إلى الإقامة بها . فأكسبها هذا بعض الأهمية وصارت تحتوى على حوالى خمسمائة منزلا جديدا . وفى ١٨٢٨ بدأ تشييد مبان للمصالح الحكومية ، ويعتقد أنها قد أعلنت عاصمة للبلاد فى عام ١٨٣٠ .

---

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة ، تاريخ ملوك السودان ، مراجعة م. شبيكة ص ٢٢ .

(٢) Stevenson "Old Khartoum 1821-1885" *SNR* 47 (1966) p. 8.

(٣) أبو سليم، معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم ص ٦.

واصل خورشيد باشا تشجيعه للأهالى بالإنتقال للخرطوم عن طريق إمدادهم بالأراضى وبمواد البناء من طوب وأخشاب كى يستعملوها بدلا عن الجلود والقش، وهى المواد التى كان يستخدمها السواد الأعظم فى تشييد المنازل بإستثناء مساكن احفاد أرباب العقائد، وفكى حمدنا الله، وقبيلة البادناب، فقد كانت هى الوحيدة فى القرية التى بنيت من الطوب . واستغل خورشيد خرائب سوبا لإمدادهم بالطوب، فأوكل للشيخ عبد السلام ، زعيم المغاربة المقيمين فى حلة كوكو ، بترحيله إلى الخرطوم، ولكن سرعان ما أدى ازدياد الطلب عليه إلى قيام كمائن فى كل من برى والجريف .

وقد صاحب اعلان الخرطوم عاصمة للبلاد توسع فى المبانى الحكومية، فبنى خورشيد معسكرا للجهادية، وجامعا حكوميا إلا أنه هدم فى عام ١٨٣٤ ليقوم مكانه آخر أكثر سعة منه . وقد شهدت تلك الفترة أيضا نشاطا ملحوظا من قبل الأهالى لتعمير قريتهم وتجميلها .

ويبدو أن زيارة محمد على باشا المرتقبة فى عام ١٨٣٨ قد زادت من حماس المسؤولين والأهالى لتبدو القرية فى أبهى حللها . فامتدت من موقع حديقة الحيوان الحالى إلى مبانى جامعة الخرطوم .

وكانت أحياؤها الهامة هى حى الحكمدارية الذى يقع شرقى المدينة حيث يقوم قصر الحكمدار الذى شيده ممتاز باشا (١٨٧١ — ١٨٧٢) كمقر رسمى للحكمدار، وعلى مقربة منه تقع السرايا وهى مقر الحكمدار الخاص، وكان أول من شيده هو محوبك، إلا أن عبد اللطيف بك(١٨٥٠ — ١٨٥٢) أعاد بناءه، وجدده ممتاز باشا فيما بعد، ثم أكمل فى زمن إسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ — ١٨٧٦) .

وإلى الجنوب من قصر الحكمدارية قامت مبانى المديرية . وهى تشمل البريد والبرق والمالية التى نقلها غوردون أثناء الحصار إلى القصر . وكانت هناك أيضا مطبعة ملحق بها مصنع للورق، وقد بدأ ممتاز باشا فى تشييد مستشفى

أكمله إسماعيل باشا أيوب فيما بعد . وكانت شونة العيش تقع إلى شرقى السرايا، وأقيم غربها مرسى للسفن وورشة لتصليحها.

أما حى المسجد فكان موقعه إلى الغرب من حى الحكمدارية وهى منطقة سكنية للأعيان وكبار التجار ، وعلى مقربة من هذا قامت حلة موسى بك التى جاء إسمها من إسم الحكمدار موسى بك حمدى (١٨٦٢ – ١٨٦٥) بإعتبار أنه شيد أول منازلها،أما أحياء سلامة الباشا ، النوبة ، هبوب ضربانى فقد استوطنها فقراء الأهالى.

وصحب تطور الخرطوم المعمارى تطور إقتصادى هام ، فأنتعشت حركة التجارة الداخلية والخارجية واتخذ عدد من التجار من المدينة موطنا لهم . ففى حين كانت منطقة السوق تشمل حوالى العشرين مبنى فى أوائل سنى الإحتلال نجدها قد توسعت فيما بعد لتشمل منطقة للأجانب وأخرى للوطنيين إمتدت كل منهما فى مساحة أربعة شوارع .

ويبدو أن أهمية الخرطوم كمركز تجارى ، قد ساعدت فى إبراز إسم المدينة فى الأوساط الدولية،فصار يغشاها كثير من الأوربيين والشرقيين ولعل أول من دخل الخرطوم من الأوربيين هما الضابطان ، كايسو (Caisson) وكادو (Cadeau) اللذان كانا فى إحدى فرق جيش إسماعيل باشا (١) ، ويعتقد أن أعداد أخرى قد دخلت البلاد بعد الفتح،حتى أنه فى عام ١٨٢٩ كان هناك قنصل فرنسى مقيم فى الخرطوم، وقد مثل بريطانيا قنصل سورى الأصل يدعى خليل الشامى (٢). وفى ١٨٤٨ وصلت بعثة الإرسالية النمسوية. وفى ١٨٥٠ تم تعيين البارون ميلر (Baron Miller) قنصلا للنمسا ، وعينت بريطانيا جون باتريك (John Patherick) مساعدا للقنصل . إلا أن القنصلية قد أغلقت فى ١٨٦٤ عندما تواترت أنباء عن إشتغال القنصل بتجارة الرقيق.

---

(١) Hilli, Egypt in the Sudan, P. 78.

(٢) سليمان كشة تأسيس مدينة الخرطوم ص ٣٤.

عينت بريطانيا بعد ذلك روست (Rosset) قنصلا لها ، وخلفه فرانك باور الذى كان مراسلا لصحيفة التايمز فى ذات الوقت .

ولقد بقى فى الخرطوم وشهد النصف الأول من الحصار ، وفى سبتمبر ١٨٨٤ إغتاله المناصير وهو فى طريق عودته إلى القاهرة . وقد توافد بعد ذلك ممثلو كثير من الأقطار إلى الخرطوم ، وكان بينهم ممثلون عن أيطاليا ، واليونان ، وإيران ، وأمريكا .

وتزايد عدد سكان المدينة طوال فترة الحكم المصرى التركى ، فقد كانت بوصفها عاصمة البلاد ومركزا هاما للتجارة تضم عددا كبيرا من الأجانب من الموظفين والتجار .

ولقد نشأت طبقة مهنية تشمل أطباء ، وقضاة ، ومعلمين ، جاءت طلائعهم مع الفتح . كذلك جاء فلاحون من مصر لإرشاد المزارعين السودانيين إلى وسائل الزراعة الحديثة . وتسلل مع هؤلاء آخرون لزراعة المخدرات ودباغة الجلود ، ثم تبعهم الحدادون والبناؤون والنجارون ، ثم جاء الفنيون لتشغيل ورشة تصليح السفن . وهكذا ظلت وفود المهاجرين تتقاطر طوال فترة الحكم التركى المصرى طلبا للرزق فى دواوين الحكومة ككتبة ومحاسبين ، أو فى الأعمال الحرة . كذلك هاجرت إلى السودان فئة كانت تجد فيه ملاذا للتهرب من الضرائب الباهظة التى تجبى فى شمال الوادى بنسبة أعلى منها فى جنوبه .

وقدر عدد سكان الخرطوم بـ ١٥٫٠٠٠ نسمة تقريبا فى ١٨٣٠ . ثم قفز هذا العدد إلى ٢٠٫٠٠٠ فى ١٨٤٠ ، وإلى ٣٠٫٠٠٠ — ٤٠٫٠٠٠ فى عام ١٨٥٠ وفى ١٨٧٥ قدره أحد الزوار بـ ١٠٠٫٠٠٠ ، الا أن آخر قدره فى عام ١٨٨٣ بـ ٥٠٫٠٠٠ ويبدو أن هذا الإنخفاض يعود إلى إندلاع الثورة المهدية حيث هجرت المدينة أعداد كبيرة من الأجانب والوطنيين .

لقد خلق الفتح التركى المصرى الخرطوم وطورها من قرية صغيرة

لصائدى الأسماك إلى عاصمة للبلاد تتمتع ببعض مقومات الحضارة بمقاييس تلك الأزمان . وقد ظلت الجهود تبذل على مدى ستين عاما لتصبح الخرطوم مقرا مريحا للحكام والتجار وممثلى الدول الأجنبية، ورغم هذا فقد تضاربت الآراء حول نجاح تلك المساعى ، فوصفها أحد الزوار بأنها تتمتع بموقع ممتاز وطبيعة ساحرة حيث ترقد فى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق وتبدو كمدينة متحضرة،وعلق آخر بأن الخرطوم تكشف عن ذوق معمارى سيء لضيق شوارعها ولعدم تناسق مبانيها ووجود المقابر فى وسط المناطق السكنية .

المهدى من أبـــا إلى الخرطوم

فى عام ١٨٨١ تقاطرت الأنباء لرؤوف باشا ، حـــكمدار عموم السودان ، بأن شيخا يدعى محمد أحمد قد أعلن أنه المهدى المنتظر فى جزيرة أبا (١) . ومن توه سارع رؤوف باشا لتأمين مساندة علماء المدينة له قبل أن يعلن أنه لن يتهاون فى قمع مثيرى مثل هذه الإدعاءات (٢) .

ومن ثم بعث بأحد معاونيه ، محمد أبو السعود ، ليعود بالمهدى إلى الخرطوم بالتى هى أحسن .

ويعتقد أن الشيخ محمد شريف قد سبق أن لفت نظر الحكمدار إلى خطورة النشاط الذى يمارسه المهدى،إلا أن هذا لم يعره التفاتا وأرجع إشارة محمد شريف إلى التطاحن التقليدى الذى كان قائما بين الرجلين .

ولكن مهمة أبى السعود السلمية باءت بالفشل فأرسل رؤوف باشا قوة عسكرية لتجبر المهدى على الإنصياع له عنوة. إلا أن المهدى تمكن من

---

(١) محمد أحمد بن السيد عبدالله ، ولد في حوالى ١٨٤٠ في جزيرة لبب قرب دنقلا . هاجرت عائلته إلى الخرطوم وراء البحث عن ميدان أغنى وأكثر ربحا لصناعة المراكب ولنفس السبب واصلت العائلة هجرتها جنوبا حتى استقرت في جزيرة أبا حيث توجد كيات وفيرة من خشب الغابات. تلقى محمد أحمد تعليم القرآن في خلوة احد رجال الدين وأبدى ميلا شديدا للاستزادة من العلم فألتحق بخلوة الشيخ الأمين الصويلح . ثم ارتحل إلى قرية الغبش حيث تقوم خلوة الشيخ محمد الفكير بالقرب من بربر. ثم ما لبث أن تركه إلى الشيخ محمد شريف نور الدايم واستقر به المقام أخيرا مع الشيخ القرشى .

يبدو أن المهدى قد بدأ اتصالاته مع شيوخ الإسلام ورجال الدين بعد وفاة الشيخ القرشى فكان يحدثهم عن تدهور التقاليد الإسلامية وأصول الدين ، ثم قام برحلة إلى كردفان وعند عودته منها أعلن أنه المهدى المنتظر.

نعوم شقير ص ٦٣٧ — ٤٤ .

(٢) Holt, *The Mahdist State in the Sudan* 1881-1898. p. 47.
Shibeika, *British Policy in the Sudan*, pp. 12-20.
Hill, *Egypt in the Sudan*, p. 164.

إنزال هزيمة ساحقة بهذه القوة فى أغسطس ١٨٨١ .

وقد لاقت حملة حاكم فاشودة ، راشد أيمن ، فى ديسمبر ١٨٨١ نفس مصير قوة الجزيرة أبا .

وكان أن أعقبت هزيمة الحكومة فى معركتين متتاليتين تصاعد كبير فى شهرة المهدى . ولم يجد رؤوف باشا بدا حينئذ من الإتصال بالقاهرة طلبا للعون ، كانت القوات المصرية فى السودان تفتقر إلى المقدرة الحقيقية للتصدى لهذه الثورة التى ظهرت بوادرها ،إذ أن غالبية أفراد القوات كانوا من الباشبوزق غير النظاميين ، وغير المؤهلين عسكريا . ولم تكن ثمة استعدادات لخوض حرب مهما كان نطاقها . فشرعت السلطات فى تشييد التحصينات فى المدن الرئيسية على عجل ، فجاءت تحمل كثير من الأخطاء الفنية أفقدتها فوائدها الدفاعية (١) .

جند المهدى ، من ناحية أخرى ٨٠٠٠ مقاتل تقريبا ، وأعانته هزيمته لراشد أيمن بكمية من المال والسلاح والذخيرة . ثم دعم موقفه دعما أكثر بإنتصاره على يوسف الشلالى فى مايو ١٨٨٢ فوجه بهذا ضربة قاصمة للحكم التركى ،وأرتفعت سمعته إلى آفاق أبعد، فقفز عدد مؤيديه إلى ما يقارب ٢٠ ألفا ، وبدأ بعضهم يشعل نار الثورة فى مناطقهم .

أيقنت الحكومة فى القاهرة عندئذ أن ما يجرى فى السودان هو أمر خطير ،ورغم هذا إقتصرت استجابتها على إرسال فرقة من الزنوج تحت قيادة أبراهيم بك فوزى ، وكما يحدث عادة فى مثل هذه الظروف من تعليلات وتبريرات فقد أرجعوا الهزيمة إلى ضعف فى الجهاز الإدارى وليس لسوء الاداء العسكرى، ومن ثم تم استدعاء رؤوف باشا وعين مكانه عبد القادر باشا حلمى فى مطلع ١٨٨٢ .

أصدر عبد القادر باشا حال وصوله تعليماته لتعزيز التحصينات فى

(١) نعوم شقير ، ٦٣٥-٦ .

كل من الخرطوم، وسنار، وبارا، والدويم، والكوه، وفاشودة. وقد بدأ واضحا أن القوات الموجودة فى البلاد كانت عاجزة عن إحراز أى نصر، فكرر عبد القادر باشا مطالبته للقاهرة لتساعده بإرسال كتائب إضافية فلم يجد إستجابة أذ كانت الحكومة هناك تسعى آنئذ لإيجاد مخرج لمشاكلها الداخلية.

قرر المهدى بعد أن هزم قوات الحكومة فى ثلاث معارك التقدم نحو قلب كردفان. سقطت بارا والأبيض فى يناير ١٨٨٣ وتبعتهما المراكز الصغيرة المتناثرة فى المديرية، فخضعت له بأسرها. ولم يكن نشاط الأنصار مقتصرا على كردفان وحدها، فقد لوحظ إنتشار موجات من التمرد على السلطة التركية فى كل من بحر الغزال والإستوائية منذ ١٨٨٢. وتأكد نشاط أتباع المهدى فى جهات متفرقة من الجزيزة. وكانت سنار فى حالة حصار منذ بداية ١٨٨٣ وكسلا والقضارف فى نوفمبر من ذات العام.

وفى أكتوبر ١٨٨٣ سقطت سواكن وإنقطع الإتصال بين الموانىء وقرى جبال البحر الأحمر، ووقع طريق سواكن - بربر فى قبضة الأنصار.

واصل حكام الخرطوم ضغطهم على القاهرة لتمدهم بالجنود والعتاد لوقف تيار الثورة. ولم تكن حكومة الخديوى فى موقف يسمح لها بذلك. فقد كان الجيش الجديد تحت التكوين ولم تكن بريطانيا لتسمح بإيفاد أى وحدات منه إلى السودان. فأضطرت الحكومة إلى إرسال فلول جيش عرابى المسرح. ولم يكن لهؤلاء رغبة فى القتال، فقاوموا إعادة تجنيدهم ورحلوا إلى السودان عنوة. وكان أن منى هذا الجيش الذى قاده أحد الضباط البريطانيين المتقاعدين - هكس باشا - بهزيمة ساحقة فى الخامس من نوفمبر ١٨٨٣ قضت على جميع أفراده تقريبا، وكان أن أدت هذه الهزيمة إلى إنهيار الحكم التركى المصرى فى كل من دارفور وبحر الغزال مباشرة.

وقد تضاعفت ثقة المهدى فى نفسه ومقاتليه بعد أن إنهزم أمامه ذلك الجيش الذى قاده ضابط بريطانى بمساعدة مجموعة من الضباط الأوروبيين

والأتراك . كان واضح أنه يملك المقدرة ليسيطر على البلاد بكاملها ، إذ أن هذا لا يعنى أكثر من التصدى لحاميات صغيرة تضم فى مجموعها الباشبوزق وبعض الجهادية . فأنتشرت موجة من الذعر فى الأوساط الرسمية ، وأيقنوا أن الخرطوم بلا شك ستكون هدف المهدى فى القريب ، فأتخذت جملة ترتيبات لتقوية وسائل الدفاع فى المدينة .

كانت خطة المهدى هى محاصرة الخرطوم حتى التسليم . فبدأت أولى مراحل الحصار فى مطلع ١٨٨٤ بنشوب ثورة الأهالى الذين استنفرهم المهدى فى ضواحى الخرطوم . وبوصول محمد عثمان أبو قرجه على رأس مقاتليه فى يونيو بدأت المرحلة الثانية من الحصار (١) ثم أوفد المهدى بعد ذلك عبد الرحمن النجومى فباشرت قواته فور وصولها حصار الخرطوم ومارست مزيدا من الضغط عليها ، فدخل الحصار بهذا مرحلته الثالثة (٢) وفى أكتوبر ١٨٨٤ حل ركاب المهدى تصحبه جموع مؤيديه فتمكنوا من السيطرة على كل المناطق المحيطة بالعاصمة وبقوا فى مواقعهم تلك حتى تم لهم الإستيلاء على الخرطوم .

---

(١) محمد عثمان أبو قرجة ، من أبناء دنقلة يعتقد أنه كان يسكن في الخرطوم ويعمل «نوتيا» في مركب تخص حمد العقد ، انضم إلى الانصار واشترك فى معارك شيكان وجبال النوبة. اوفده المهدى ليتم تسليم صالح الملك في فداسي على يديه ثم سار إلى الخرطوم ووضع حصارها ولعب دورا رئيسيا في أحداث تلك الفترة . عمل في شرق السودان في زمـــن الخليفة عبدالله ، ولكنه استدعى إلى امدرمان بسبب الخلافات التى نشبت بينه وعثمان دقنة. اتهم بالاتصال بالايطاليين وأبعد الى الرجاف. أطلق البلجيك سراحه فسار إلى دارفور ثم عاد إلى أمدرمان وبقى فيها حتى وفاته عام ١٩١٦.

Hill, *A-Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan*, p. 279.

(٢) عبد الرحمن النجومى ، من زعماء الجعليين ، انضم إلى المهدى فى ١٨٨١ ، شارك فى معارك كردفان ، وبعد شيكان قاد الحملة التى جردها المهدى ضد جبل الداير. لعب دورا بارزا في حصار الخرطوم وبعد سقوطها تعقب حملة الانقاذ إلى أن وصل بربر ولكنه استدعى ثم عاد إلى الشمال مرة أخرى ليقـود جيشه الذى انهزم في جنيس . قاد الحملة التى كان مقررا لها أن تغزو مصر فتصدت لها قوات جرنفيل وقتل النجومى في معركة توشكي في اغسطس ١٨٨٩ .

Hill, *A. Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan*, p. 17.

الفصـــل الثـــانى

مهمة غوردون وخطته الأساسية

جاء الإحتلال البريطانى لمصر فى سبتمبر ١٨٨٢ ليخلق لها أزمة فى كيفية التصدى للمشكلة التى نشبت فى السودان، إذ لم يعد الخديوى وحكومته هما السلطة صاحبة الحل والعقد ، بل أصبح لزاما عليه أن يستشير جهات أخرى قبل إتخاذ خطوة ما .

ولقد إتسعت رقعة السلطة لتشمل مكتب المندوب البريطانى ، أفلن بيرنج ، وحكومة صاحبة الجلالة نفسها . وبتعدد مراكز السلطة تعددت المقترحات حول الوسيلة المثلى لحل أزمة السودان . كانت كل جهة تحاول ربط الحل بظروفها ومصالحها الخاصة . فكان لا بد من الدراسة الجادة المتأنية للموقف بكل متطلباته حتى يمكن الإتفاق حول سياسة موحدة واضحه المعالم . بيد أن شيئا من هذا لم يتم فتباينت وجهات النظر واختلفت الآراء بالصورة التى سيتم عرضها فى هذا الفصل .

ثبت لمراكز السلطة أن نفوذ المهدى آخذ فى الإزدياد، ولم يكن هناك بد من سحب الرعايا من جند ومدنيين من البلاد . فى نهاية عام ١٨٨٣ بدأت المشاورات تدور حول الكيفية التى سيتم بها الإنسحاب، ورغم أن الإتفاق قد تم آخر الأمر على إختيار غوردون للعمل بالسودان ، إلا أن الصعاب التى إعترضته فيما بعد كان مردها بدرجة كبيرة إلى الأسلوب الذى عولجت به المشكلة من أساسها، فهو أسلوب تميز بالإرتجال، وافتقر للدراسة الموضوعية

طبيعة مهمة غوردون :

ولعل أولى القضايا التى عولجت بهذا الأسلوب هى المهمة التى بعث غوردون للسودان من أجلها . فمن جهة تعتقد أنها استشارية بحته ، إلى طرف آخر يعتقد من البداية أنها تنفيذية من الدرجة الأولى ، إلى جهة ثالثة درجت

على تغيير موقفها بين هذا وذاك .

ويبدو أن هذا التضارب في الآراء يعود إلى الظروف والملابسات التى صاحبت إختيار غوردون لتلك المهمة .

فى مطلع نوفمبر ١٨٨٣ قدم وزير الخارجية البريطانى ، جرانفيل (١) إقتراحا إلى رئيس الوزراء جلاد ستون (٢) ، يرمى إلى إيفاد غوردون إلى «مصر» دون أدنى تحديد للدور الذى سيطلع به، وجاء هذا الإقتراح فى وقت لم تكن فيه بريطانيا قد قررت شيئا فيما يختص بالسودان بعد . هل ستضع خطة لإخلائه فقط أم الإستغناء عنه كلية،أم سترسل قوات أجنبية لإحتلاله ؟.

ولقد كان واضحا لدى الرأى العام البريطانى أن العواقب المترتبة على سياسة التردد هذه جد وخيمة ، ومن ثم وجهت حملات نقد عنيفة للحكومة من الدوائر الشعبية والبرلمانية تطالبها بإتخاذ موقف حاسم وعاجل،ويبدو أن جرانفيل تقدم باقتراحه لإرسال غوردون ليحاول التخفيف من حدة الهجوم ، فهى ليست خطوة إيجابية فحسب بل أن الجنرال كان يتمتع

---

(١) جرانفيل جورج ، ليفسن – جاور (١٨١٥ – ١٨٩١) من زعماء حزب الاحرار، شارك هارتنقتون في قيادته عند تقاعد جلادستون وانسحابه من الحياة العامة في ١٨٧٤ ولكن عند انهزام حكومة المحافظين في ١٨٨٠ نودى بجلادستون ليشكل حكومة من الاحرار فشغل جرانفيل فيها منصب وزير الخارجية. حمل جرانفيل مع زملائه مسئولية مقتل غوردون في الخرطوم وضياع الحاميات ، ورغم أن الحكومة قد استقالت في ١٨٨٥ لفشلها في كسب التأييد اللازم لامر يتعلق بالميزانية ، إلا ان السبب الحقيقى كان في سياستهم نحو السودان. وفى وزارة جلادستون الثالثة عين جرانفيل وزيرا المستعمرات ، وبعد خروج تلك الوزارة من السلطة بقى زعيما لحزبه فى مجلس اللوردات حتى وفاته.
D. N. B., P. 3326.

(٢) جلادستون، وليم – اوارت (١٨٠٩ – ١٨٩٨) زعيم حزب الاحرار، جاء للحكم عام ١٨٨٠ بعد هزيمة المحافظين بقيادة دزرائيل . وفي فترة حكمه تم التصدى العسكرى لثورة عرابي في مصر في سبتمبر ١٨٨٢ . كرس جهد وزارته للإصلاح البرلمانى الذى كان على حساب الاهتمام بمشكلة السودان ففشلوا في اتخاذ الخطوات المطلوبة في الوقت المناسب لانقاذ غوردون. انهزمت حكومته بعد عدة أشهر من سقوط الخرطوم ولكنه عاد مرة أخرى في ١٨٨٦ ليبقى لفترة قصيرة.
D. N. K., p.1001-2.

بسمعة طيبة فى كل من مصر وبريطانيا ، وتعيينه بلا شك سينظر إليه بعين الرضا والاستحسان فى البلدين ، وبعد أن تأكد جرانفيل من موافقة جلادستون أبرق بيرنج يسأله اذا كان بالإمكان الاستفادة من غوردون وكيفية هذه الإستفادة ، ويمكن أن يستشف من هذا أن المهمة التى ستوكل لغوردون لم تتحدد لدى جرانفيل بعد .

سارع بيرنج ورفض هذا العرض ، إلا أنه لم تمض ثلاثة أسابيع حتى بعث برسالة يطلب فيها الموافقة على تعيين أحد الضباط البريطانيين للعمل فى السودان ، وتجنب الإشارة إلى إمكانية شغل غوردون لهذا المنصب . وتجدر الملاحظة هنا أنه حتى هذه اللحظة لم تكن خطتهم نحو السودان قد إتخذت شكلا نهائيا واضحا .

وفى مطلع يناير ١٨٨٤ إستقر رأى بيرنج والحكومة المصرية على إخلاء السودان . فبعث لوزارة الخارجية البريطانية بنص برقية كان دى كتلوجن (De Goetlogen) قد بعث بها للخديوى من الخرطوم وفيها يحثه على ضرورة الأسرع بإصدار تعليمات الإنسحاب مباشرة ، اذ أن البلاد بأكملها قد أعلنت الحرب ضد الحكومة المصرية التى لاتملك الإمكانات المادية لمواجهتها . ومن ثم أرفق بيرنج مع هذه البرقية مذكرة جاء فيها «إن التعليمات الأولية قد صدرت للاستعداد للإنسحاب ، سيصل وزير الحربية الجديد غدا حيث يكون بالامكان إصدار تعليمات مفصلة للإخلاء » لم يشر بيرنج هنا إلى أمر الضابط البريطانى الذى سبق أن طلبه ، وربما لأنه كان يأمل أن يوكل بالمهمة التى حددها للضابط لعبد القادر باشا حلمى وزير الحربية المصرى الذى جاء ذكره فى المكاتبة .

أعقب هذا إقتراح من جرانفيل يعرض فيه إسمى غوردون وتشارلز ولسن مستفسرا عما إذا كان هناك سبيل لإستخدام أى منهما ، ويبدو أن بيرنج قد فهم من هذا أن وزير الخارجية يسعى لإيفاد أحدهما لقيادة عملية

الإنسحاب . وبما أنه كان يفكر فى إسناد المهمة لعبد القادر باشا فقد جاء رده للمرة الثانية بالنفى . بعد ثلاثة أيام بعث إليه برسالة جاء فيها « سيسافر عبد القادر باشا إلى الخرطوم ، لقد صدرت التعليمات لإخلاء النساء والأطفال .. الخ .. وسحب حامية سنار إلى الخرطوم . فى نفس اليوم إستشار جرانفيل رئيس الوزراء فى أمر تعيين غوردون لمهمة هى نفسها قيادة الحاميات المنسحبة ، إذ أنه كتب يقول « علينا أن نستشير غوردون إذا كان بامكانه أن يستغل نفوذه الشخصى وسط القبائل لتأمين إنسحاب الجند والأهالى من الخرطوم إلى سواكن » .

تجاهل جرانفيل رفض بيرنج عندما طلب منه إستخدام غوردون مرتين على التوالى ، وعزا هذا إلى مشاجرة قديمة بين الرجلين .

وفى ١٥ يناير أبرق جلادستون وزير الخارجية معبرا عن تأييده المطلق لكل مقترحاته ، إذن فقد كان جرانفيل يأمل فى إرسال غوردون فى مهمة تنفيذية . ولكنه عندما أرسل إخطارا لبيرنج بهذا حدد له مهمة غوردون بصورة مغايرة تماما لتلك التى أوضحها لرئيس الوزراء ، فقد ذكر لبيرنج أن إيفاد غوردون قد يساعدهم فى جمع معلومات عن الموقف الراهن فى السودان . هناك عاملان يحتمل أن يكونا السبب وراء هذا التغيير المفاجىء أولهما ، من الجائز أن يكون جرانفيل قد تسلم رسالة بيرنج التى أعلن فيها تعيين عبد القادر باشا بعد أن بعث بمذكرته لجلادستون ، ومن ثم قرر إيفاد غوردون فى مهمة تكميلية لمهمة عبد القادر باشا . أما العامل الثانى ، فهو المقابلة التى تمت بين غوردون وولزلى والتى أوضح فيها غوردون أنه لن يستطيع أن يتقدم بأية توصيات دون الإلمام بأطراف القضية فى موقعها . فهو إذن يرفض أن يقوم بمهمة تنفيذية ويعرض خدماته لدراسة الوضع فقط ، وهذا بالضبط هو المفهوم الذى حدده جرانفيل فى رسالته لبيرنج . وهذا يعنى ، من ناحية أخرى ، أن التوصيات التى يمكن أن يرفعها غوردون قد تتعارض تماما مع سياسة الإخلاء التى سبق أن أقرتها الحكومة ، والتى اعتبرت غير قابلة

للنقض. ومن هنا إتجه تفكير جرانفيل ليكسب القضيتين، أن يرسل غوردون للسودان لا ليتقدم بمقترحات حول كيفية حل المشكلة. بل ليقترح لهم حلاً داخل الإطار العام لسياستهم، وهو الإنسحاب، فجاءت التعليمات لغوردون ليقرر لهم أفضل السبل التى يمكن إتباعها لتأمين إنسحاب الحاميات المصرية فى سلام.

كان بيرنج بوصفه الرجل الأول الذى يقع عليه عبء مجابهة المشكلة أكثر إحساسا بخطورة الوضع، وأكثر دراية بمتطلبات الموقف من حكومته، فكان رأيه أنهم ليسو فى حاجة لأى معلومات عن كيفية تنفيذ عملية الإخلاء، بل هم فى حاجة إلى من يقود العملية مباشرة، فالأمور تتطور بسرعة مذهلة، ومن الضرورى الشروع فى التنفيذ وإلا ضاعت فرصة رعايا الحكومة المصرية فى النجاة.

رفض عبد القادر باشا حلمى المنصب الذى عرض عليه، وعندئذ بعث بيرنج برسالة إلى جرانفيل موجهة من الحكومة المصرية مفادها أن هذه الأخيرة أى الحكومة «ستشعر بالإمتنان اذا أعارتها بريطانيا أحد الضباط المؤهلين ليقوم بالمهمة التى رفضها وزير الحربية. وسيعطى سلطات مطلقة عسكرية ومدنية لتنفيذ عملية الإنسحاب». وفى ذات اليوم تسلم بيرنج برقية من جرانفيل مقترحا تعيين غوردون للمرة الثالثة. فما كان منه إلا أن أجاب بأن غوردون هو الرجل المناسب تماما ليس للمهمة التى حددها جرانفيل فى رسالته السابقة، وإنما كبديل لوزير الحربية، ولا بد أن الحكومة البريطانية كانت على علم بأن مهمة وزير الحربية هى مهمة تنفيذية ولا مجال هناك لرفع توصيات أو تقديم معلومات.

إن صياغة تعليمات غوردون بعد يومين من إستلام رسالة بيرنج وتحديدها لمهمته بأنها تقريرية فقط، تكشف أنهم قد تجاهلوا تلك الرسالة تماما. وقد أرفق جرانفيل مع تعليمات غوردون مذكرة إلى بيرنج يقول فيها إنهم قد أرسلوا غوردون ليمدهم بمعلومات. ويبدو أن الحكومة

البريطانية أرادت التحفظ فى هذا الأمر، إذ أنه فى حالة إيفاده فى مهمة تنفيذية سيكون لزاما عليهم مساندته بكافة الوسائل حتى يتم تنفيذ تلك العملية .

أما المهمة التى وافقوا عليها كتابة فى تعليماتهم فهى تلزمهم فقط بضمان سلامته شخصيا ، ولعل هذا يفسر لنا وجود الفقرة التى تنص على أن ينفذ غوردون أى مهام توكل إليه من قبل الحكومة المصرية ، ولم يكن سرا أن الحكومة المصرية ستعهد إليه بقيادة عملية الإنسحاب .

وقد وافقت الحكومة البريطانية ضمنيا على هذا، ولذا يصبح من الصعب وجود تفسير للآراء التى ضمنت فى التعليمات ، فهم يبعثون بغوردون ليمدهم بمعلومات عن أفضل السبل لتنفيذ الإخلاء مع علمهم فى ذات الوقت بأنه سيقوم بهذه المهمة فور وصوله . ولعل الحكومة البريطانية أرادت أن تعفى نفسها من المسؤولية، فأوكلت للحكومة المصرية أمر تفويض غوردون لينفذ تلك المهمة وتتحمل هى بالتالى التبعات المترتبة على هذا دون أن تزج بالحكومة البريطانية فى المسألة .

وضع بيرنج تعليمات جرانفيل جانبا، وأخطره فى رده عليه أن الأوامر قد صدرت للجهات المعنية لتعمل على ترحيل المدنيين إلى بربر ، وأوضح أن واجب غوردون سيكون أساسا تنظيم عملية الإنسحاب ، إذن فقد كان بيرنج يرى فى مهمة غوردون من البداية إلى النهاية عملية تنفيذية، بحتة وقد جاءت آراؤه المضمنة فى رسائله منذ التاسع من يناير ١٨٨٤ تتوافق تماما مع هذا الفهم . أما جرانفيل فقد إقترح فى بادىء الأمر مهمة غامضة غير واضحة المعالم ، ثم عاد فعدلها لمهمة تنفيذية وإنتهى بمهمة تقريرية . أما غوردون فرغم إعلانه بأنه لن يستطيع أن يتقدم بتوصيات دون مراجعة الموقف على الطبيعة سرعان ما إتخذ موقفا مغايرا . فبعد أربعة أيام من مغادرته لبريطانيا كتب مذكرة مطولة مفادها أن مهمته هى تأمين إخلاء المدنيين والجند من تلك البلاد بسلام، وقد كان من جراء هذا أن لم تناقش المهمة بوصفها هذا

على أي مستوى فى بريطانيا قبل مغادرة غوردون ، إذ كان هو والحكومة البريطانية يعتقدان أنه مبعوث ليرفع لهم تقريرا فقط .

إخــلاء الســودان :

لعل تضارب الآراء حول المهمة نفسها ، هو النتيجة المنطقية للأسلوب الذى عولجت به طبيعة مهمة غوردون . فبعد وصوله إلى القاهرة تم الإتفاق بصورة عامة ، بين الأطراف المعنية على إيفاده ليخلى السودان دون التعرض للتفاصيل هنا ، أى هل سيخلى كل الحاميات التى ما زالت صامدة فى وجه قوات المهدى ، أو أنه سيجلى حاميات بعينها ، وما هى هذه الأخيرة ؟ وهل ستشمل العملية كل المدنيين ، أو فئات منهم ، أو أولئك المقيمين فى مدن معينة ؟ كانت كل جهة تحمل أفكارا خاصة بها حول هذه المسائل ، الأمر الذى أدى بصورة مباشرة إلى بقاء غوردون داخل استحكامات الخرطوم عاما كاملا محاولا أن يصل مع الأطراف المعنية إلى إتفاق ، فى حين إستفاد المهدى من عامل الزمن وحشد طاقاته حول المدينة .

تضاربت الآراء منذ البداية حول موضوع الإخلاء ، ففى الفترة التى كان جرانفيل يدعو فيها إلى إيفاد غوردون لقيادة عملية الإنسحاب ، كان من رأيه أن تشمل العملية كل الحاميات الموجودة داخل السودان بإستثناء موانىء البحر الأحمر . وقد قدر عدد جند الحاميات فى ذلك الحين بحوالى ١٥ ألفا ، كان توزيعهم فى أواخر ١٨٨٣ كالآتى :

دنقلا	٨٩٧
بربر	٦١٦
الخرطوم	٢٤٩٠
كسلا	١٢٥٩
سنار	٣٨٩١
قلابات	٥٩٣

الدويم ١٠٨٧
الكوة ٥٠٠
فشودة ٢١٣١
بحر الغزال ٨٨٦

ويبدو أن الحكومة البريطانية قد باتت تعتقد بعد إرسال غوردون أن مهمته هى سحب جميع الحاميات ، إذ صرح رئيس وزرائها فى مجلس العموم بأن غوردون سيعمل على إخلاء حوالى ٢٩،٠٠٠ شخص . ولعله يشير هنا إلى الخمسة عشر ألف جندى بالإضافة إلى عدد مماثل من المدنيين. كما أعلن أحد أعضاء تلك الحكومة ، نورث بروك ، فى وقت سابق أن عملية الإنسحاب ستشمل كل الحاميات الموجودة داخل القطر .

أما بيرنج فقد أبدى تناقضا ملحوظا فى آرائه فيما يتعلق بأى الحاميات يجب سحبها . ففى الثانى والعشرين من نوفمبر ١٨٨٣ بعث برسالة إلى جرانفيل يقترح فيها أن تشمل عملية الإنسحاب حامية الخرطوم والمراكز المجاورة بالإضافة إلى التجار الأوربيين والقساوسة الكاثوليك الموجودين فى العاصمة . ومن الصعب تحديد أى المراكز يعنى بالمجاورة،ويبدو أنه يشير إلى حاميات الجزيرة الصغيرة المنتشرة جنوبا إلى جهات الدويم والكوة. ومن المستبعد أن تكون حامية سنار داخل هذا التعريف ، إذ أنه قدر العدد الكلى بحوالى ٦٠٠٠ نسمة، ولكنه عاد وغير رأيه بعد حوالى شهر من هذا،إذ بات يعتقد أن الضابط البريطانى الذى سيوفد إلى السودان سيعطى صلاحيات كاملة ليقوم بإخلاء جميع الحاميات . ويعترف بيرنج بأن هذه العملية ستكون شاقة معقدة ، وإن سحب حاميتى سنار والخرطوم وحدهما سيجلب مشاكل لا حصر لها .

ولعله لهذا يقترح ترك الحاميات النائية فى أماكنها،إذ أن أفرادها لا يتعرضون لخطر مباشر،فهم قد إستوطنوا فى تلك الأصقاع وخلقوا علائق ود

مع الأهلين . ومن الجائز أن يكون رأى بيرنج قد إستقر أخيرا على سحب حاميات الخرطوم والجزيرة وسنار ، إلا أنه لم يشر إلى هذا من قريب أو بعيد فى التعليمات التى صدرت لغوردون من القاهرة .

أوضحت تلك التعليمات أن الخديوى له رغبة أكيدة فى بذل كل ما يمكن من جهد لإخلاء رعايا الحكومة المصرية دون إراقة دماء ، ولم تحدد بالتالى أماكن أو فئات معينة . ووصف فرمان التعيين مهمة غوردون بصورة فضفاضة ، هى إخلاء السودان وسحب الجند المصريين دون الدخول فى التفاصيل .

إذن فقد كانت السياسة المقررة فى بادىء الأمر ، هى سحب كل الحاميات المصرية فى السودان . وقد أكد هذا إقتراح بيرنج فيما بعد الرامى إلى التضحية بحاميات سنار وبحر الغزال والإستوائية إذا ثبت أو هناك إستحالة فى إخلائها . وهذا يعنى أن الخطة الأولى كانت تشملها ، وقد كان غوردون يحمل هذا الرأى منذ أن صاغ أول مذكرة له فى ٢٢ يناير ١٨٨٤ . وقد جاءت رسائله من الخرطوم تحمل إلتزاما بتلك السياسة .

وفى مطلع مارس ١٨٨٤ بعث لبيرنج برسالة يقول فيها : إن إخلاء الخرطوم مباشرة لن يكون فى مصلحتهم . إذ أن سقوطها فى أيدى الأنصار سيكون حتميا وسيتعذر ، وفقا لهذا ، سحب الجند والمدنيين من كسلا وسنار وبحر الغزال والإستوائية ، وأوضح له أنه لن يغادر السودان ، حتى لو تم استدعاؤه ، إلا بعد أن يتأكد من أن جميع الرعايا الأجانب قد غادروا البلاد .

وقد كان هذا رأى غوردون من البداية إلى النهاية ، ولم يعترض عليه بيرنج ولا الحكومة البريطانية ، إذن ليس هناك أساس مقنع لقول بيرنج إن غوردون قد حور فى مضمون تعليماته لتتناسب ورغباته الخاصة ، وأن مهمته كانت تقتصر على سحب حامية الخرطوم وبذل ما يمكن من جهد لبقية

الحاميات . هذه بالتأكيد لم تكن السياسة التى سبق أن أعلنت وتعهد غوردون بتنفيذها ووافق عليها بيرنج والحكومة البريطانية . حقيقة لقد حدثت مراجعة للموقف فيما بعد عندما خابرهم غوردون بإستحالة إخلاء جميع المناطق دون عون عسكرى وسياسى من الخارج . أعلنت بريطانيا عندئذ إعتراضها على إرسال أية قوات للسودان ، ووجهت غوردون إلى قيادة حامية الخرطوم شخصيا إلى بربر مباشرة ، وكان رأيهم أنه إذا تمكن غوردون من سحب حاميات الخرطوم وبربر ودنقلا سيكون هذا فى ذاته مكسبا كبيرا .

ولكن غوردون رفض هذه المراجعة ، وأعلن أنه لن يغادر البلاد حتى يعطى كل شخص يبتغى العودة إلى مصر الفرصة ليفعل هذا .

ولم يكن بالإمكان التخلى عن هؤلاء ، وجلهم من السودانيين ، والإنسحاب مع الجنود المصريين ، فبات الأمر بالنسبة له إخلالا بالوعد الذى قطعه معهم ،ومسألة كرامة وسمعة شخصية . ولقد نتج هذا الموقف المعقد من الأسلوب الذى صيغت به تعليمات غوردون .فلم تحدد له مهمته بوضوح ،ولم يبين له أى جزء منها يعتبر رئيسيا وأيهما ثانويا .

مستقبل السودان السياسى :

لمن يؤول الحكم فى السودان بعد إنسحاب السلطة المصرية ؟ تلك هى المسألة الثالثة التى إختلفت حولها الآراء وتباينت ، فرغم أنه كان هناك إتفاق بصورة عامة على ضرورة إيجاد حكم بديل موال بصورة ما للحكم الإنجليزى المصرى ، إلا أنه لم يكن هناك إتفاق على أهمية هذا بالنسبة للاخلاء ، ولأى منهما تعطى الأسبقية ، وكيفية تنصيب الحاكم الجديد ، هل ستكون من خلال معركة أم بالوسائل السلمية ؟ .

ولعل عدم الوضوح هذا ، يعود إلى أن موضوع التسوية السياسية قد عولج بصورة متقطعة وغامضة طوال الوقت. ففى مناقشات نوفمبر — ديسمبر

لم تبد أي إشارة إلى ضرورة إيجاد بديل للحكم المصرى عند إنسحابه. ذكر بيرنج هذا لأول مرة فى رسالته المؤرخة ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣ .

لم تعلق الحكومة البريطانية على هذا ، ربما لأن القضية الهامة والعاجلة التى كانت تشغلهم فى ذلك الحين هى ماذا هم فاعلون بالسودان ؟ . إذ أن سياسة الإخلاء لم تكن قد تقررت بعد. وفى ٤ يناير ؛ عندما قرروا الإنسحاب ؛ لم يرد أى تعليق على مسألة المستقبل السياسى ، ويبدو أن رأيهم كان هو الإستغناء عن السودان بعد إخلائه، حتى أن التركيز كان على الجنرال الذى سيقود عملية الإنسحاب، ولم تجد مسألة الحكم إهتماما فى هذا الظرف بالذات، لأن الأنباء التى كانت تتوارد من الخرطوم تنذر بأن شرا مستطيرا قد يلحق بالرعايا ويهددهم بمصير يشابه ذاك الذى إنتهى اليه جيش هكس باشا .

كانت القضية العاجلة كيفية إنقاذ هؤلاء ، ومن الذى يتولى المهمة ؟ حسمت رسالة بيرنج بتاريخ ١٦ يناير أمر القائد وأوضحت أنه سيعطى صلاحيات عسكرية ومدنية لينفذ الإخلاء ولا شىء غيره ويبدو أن إقتراح ٢٢ ديسمبر قد سقط فى هاوية النسيان فى الوقت الحاضر، ولعله من الطبيعى أن تأتى تعليمات لندن التى صيغت بعد يومين من هذا خالية من أية إشارة إلى مسألة الحكم . ولم يكن ثمة تفكير فى كيفية ملء الفراغ السياسى الذى سينتج بعد إنسحاب السلطات المصرية من البلاد .

جاء غوردون ليعيد للأذهان مرة أخرى مسألة مستقبل الحكم فى السودان ، فأورد فى مذكرته المؤرخة ٢٢ يناير ١٨٨٤ إقتراحا يقضى بتسليم السلطة فى السودان لأولئك الأشخاص الذين كانت عائلاتهم فى الحكم عند فتح محمد على باشا ، وقد وافقت الحكومة البريطانية ــ مبدئيا ــ على الفكرة رغم أن المشروع كان يفتقر إلى الدراسة الجادة المتأنية. ولعل التغيير الجوهرى الذى طرأ على سياستهم المعلنة لم يعد خافيا على أحد . فقبول هذا الإقتراح يعنى أن سياستهم نحو السودان لم تعد الإستغناء عنه ، بل إخلاء الرعايا

الأجانب من جند ومدنيين وتنصيب حكام سودانيين يدينون لهم بالولاء، ويحافظون على بقاء النفوذ الإنجليزى المصرى ولو بصورة شكلية .

ولا يجب أن يخدعنا تصريح رئيس الوزراء البريطانى تعليقا على الثورة المهدية بأن السودانيين يكافحون من أجل الحرية ولهم كل الحق فى هذا. لقد جاء هذا القول أثناء مناقشة مسألة إرسال قوات للسودان للعمل على إنقاذ الحاميات ، ولقد وقفت الحكومة البريطانية بصلابة ضد الأمر ،فجاءت قولة جلادستون لتبرر هذا الرفض ، إذ لا يستقيم عقلا أن تبعث بقوات لتحارب مواطنين يكافحون لإسترداد حريتهم . إلا أن التناقض الواضح يكمن فى موافقة الحكومة البريطانية على إقتراح غوردون الرامى إلى خلق طبقة حاكمة جديدة فى البلاد ، هذه الطبقة قد تفرض فرضا على المواطنين الذين عناهم جلادستون بحديثه . ليس هذا فحسب بل أن الحكومة البريطانية قد وافقت على كل الخطوات التى إتخذت فى القاهرة لخلق مراكز نفوذ مضادة للمهدى، وأعلن نورث بروك أن أنجع وسيلة لإيقاف زحف المهدى هى وضع حكام مسلمين فى كل من الخرطوم وبربر ودنقلا، وعندما أثير موضوع الحاكم الذى سيخلف غوردون جاء إعتراضهم على التفاصيل وليس على المبدأ نفسه ، فكان أن أعلنت الحكومة البريطانية أنها ليست بالسلطة التى تملك حق التعيين، فطالما أن الأمبراطورية العثمانية هى صاحبة الحق قانونيا فعليها أن تعين حاكما للسودان، وقد رفضت أيضا التصديق على تعيين الزبير باشا خلفا لغوردون ، إستنادا إلى عدم صلاحية شخصه وليس على المبدأ ، إذ أنها سارعت بإعلان إستعدادها للموافقة على أى بديل له وإمداده بقدر معقول من المال .

وأيدت الحكومة المصرية إقتراح غوردون الخاص بوضع الحكام المحليين فى السلطة . كان واضحا من التعليمات أنهم لن يتركوا السودان يقع فريسة فى أيدى الأنصار، فكلف غوردون بتكوين حكومة صالحة فى البلاد، وبالسعى لتأمين العدالة والنظام فى ارجائها .

ولقد أعلن بيرنج — صراحة — أن مسألة إيجاد رجل ، أو مجموعة من الرجال لتحفظ النظام فى السودان أمر له أهمية من الدرجة الأولى،إذ أن هذه هى الوسيلة التى ستجعل المهدى يقف عند حده . وكان رأيه أن إنسحاب الحكم المصرى دون وضع بديل فى مكانه يعنى سيطرة المهدى على البلاد، الأمر الذى سيهز الموقف العسكرى والمالى فى مصر بدرجة خطيرة .

أما غوردون فقد كان يرى فى السودان موقعا إستراتيجيا هاما بالنسبة للنفوذ البريطانى فى منطقة الشرق الأوسط ، ولا بد من السيطرة عليه . فالتطورات التى تحدث فى السودان سيكون لها ردود فعل بعيدة المدى فى كل من مصر وبقية البلدان العربية .

كان رأيه أنه إذا تم الإستغناء عن السودان فسيقع فى أيدى المهدى بلا منازع ، وستحس كل قرية فى مصر وفقا لهذا أن بإمكانها التخفى وراء الدين لتطرد الدخيل الكافر . كما أن بوادر تداعى الإمبراطورية العثمانية تجعل من الضرورى أن تفرض بريطانيا سيطرتها — ولو بصورة إسمية — على الدول العربية حتى تتمكن من إستلام السلطة الكاملة عند إنهيار الحكم العثمانى ، وبقاء نفوذها فى السودان سيزيد من فرصتها لفرض تلك السيطرة .

وعندما وضع غوردون خطة تنصيب الحكام المحليين ؛ رأى أن المهدى الذى لم تكن عائلته ضمن أولئك الذين كانوا فى السلطة عند فتح محمد على باشا يجب ألا يؤخذ فى الحسبان على الإطلاق ، ولكنه عدل عن خطته هذه عند دخوله الأراضى السودانية ، وإعترف بالمهدى سلطانا على كردفان . [1] ولعله قد لمس عن كثب مدى التأييد الذى يحظى به المهدى وسط الأهلين ، فأراد أن يحتال عليهم ويحد من هذا التيار بإقناعهم أن زعيمهم قد أصبح حاكما على جزء من البلاد ، فليس هناك ما يبرر الثورة بعد ذلك . يلاحظ فى ذات الوقت أن تعيين المهدى حاكما على كردفان يعنى بقاءه بعيدا عن

---

(١) غردون الى المهدى ١٢ ربيع اول ١٣٠١ (١٠ فبراير ١٨٨٤) فيوضات ج/١/١٥١ .

الخرطوم، وبالتالى يمكن غوردون من تنفيذ مخططه بتنصيب حكام وفق إختياره فى الخرطوم وبقية المناطق المتاخمة لمصر والتى هى فى الواقع مصدر الخطر الحقيقى ، أما كردفان فتبدو أبعد من أن تؤثر تأثيرا مباشرا على مجرى الأحداث فى الشرق الأدنى .

كان غوردون يعتقد أن باستطاعة هؤلاء الحكام جمع المؤيدين حولهم وخلق مراكز ثقل مضادة للمهدى ، إذ أن السند الجماهيرى الذى يلقاه يعود فى إعتقاده إلى كونه الجانب القوى القادر على حماية أرواحهم وممتلكاتهم وليس لأنه زعيم دينى . كان رأيه أن المهدى يتخذ من الدين ستارا ليغطى أعمالا لا يسندها الحق .

وقد صرح للعلماء عند وصوله الخرطوم أنه من المخزى أن يتخل الناس عن دياناتهم ويتبعوا مدعى المهدية فقط ليحموا ممتلكاتهم وينقذوا أرواحهم (١) ، إذ أن السودانى يميل إلى الإحتفاظ بأغنامه إذا طلب منه أن يختار بينها وبين ربه ، وهم لهذا قد أيدوا المهدى ضد الحكم المصرى المتهالك الذى فقد المقدرة على حمايتهم . فلو تمكن من خلق حكم محلى تسانده بريطانيا بقدر من المال فقد ينجح فى جذب أنصار المهدى إلى صفوفه .

ولعل تجريده للثورة من محتواها الدينى وتفسيرها على أساس مادى هو الذى دفع غوردون لتنفيذ مخططه الرامى إلى إعلان سياسة إصلاحية يمكن أن تجذب الأهالى إليه ، فبات يعتقد أن مناصرة السودانيين للمهدى مردها قوته التى أثبتها خلال عدة معارك . إلا أنه إعترف فى ذات الوقت بالظلم والغبن اللذين ظل يعانى منهما الأهالى طيلة فترة الحكم التركى . فتصور الحل للأزمة فى إيجاد جهاز إدارى قوى يعتمد على الوطنيين وينفذ برنامج للاصلاح المالى والإجتماعى يشمل بضعة تنازلات فى الضرائب وتجارة الرقيق .

Journals of Gordon Vol. 1, 12th September 1884,.

وما أن بدأ غوردون مسيرته جنوبا حتى تكشفت له بعض بوادر الترحيب بمقدمه ، إذ لم يتوان أهالى قرى شمال السودان من إستقباله وتحيته كممثل للحكومة المصرية وبصفته هذه رفعت إليه بعض الطلبات من أشخاص يسعون للعمل فى وظائف حكومية ،وفى أبى حمد قدمت له عرائض تعبر عن غبطة الأهالى بمقدمه والترحيب به، وقد رأى غوردون فى هذه الإشارات بوادر تأييد له ، الأمر الذى شجعه على المضى فى مخططه السالف الذكر .

ولعل غوردون كان متسرعا فى استنتاجه من أن تلك البوادر تدل على ضعف التأييد الذى تلقاه المهدية فى تلك المناطق . ربما كان المهاجرون من أبناء مصر الذين يقطنون تلك المناطق المتاخمة لبلادهم هم الذين رفعوا راية الولاء . كذلك فى بعض القرى أبدى المشايخ والعمد ـ بوصفهم الفئة التى ستتأثر مصالحها بالثورة ـ مظاهر الإبتهاج بقدوم الجنرال وقافلته الصغيرة، ومن الصعب فى كلتا الحالتين الوصول إلى الحكم المطلق بأن السودانيين بصفة عامة ما زالوا موالين لمصر ،وكل ما يجب عمله لإستعادة الأمن والطمأنينة هو بعض الإصلاحات الإدارية والمالية، ونقض خطة الإخلاء التى ستقابل بجزع شديد .

ومن ناحية أخرى كان لغوردون إلمام تام ، من بعض شهود العيان ، بما آلت إليه الأمور ومدى التأييد الذى يلقاه المهدى . فقد إتصل به عبد القادر باشا حلمى أثناء وجوده فى القاهرة وذكر له أن نفوذ المهدى قد تغلغل وسط السودانيين بصورة يصعب معها إقتلاعه بالطرق السلمية (١)، كما أكد له هذه الحقيقة بعض القساوسة الكاثوليك الذين كانوا فى طريقهم من الخرطوم إلى القاهرة ،وأوضحوا له أن المهدى لن تخضعه الا القوة ،ثم أن غوردون كان قد إلتقى بأحد المهندسين البريطانيين ، مستر بيرد (Baird) ، فأسر له الأخير بأن مشاعر السودانيين ، حتى فى تلك المناطق ، قد إتجهت بصفة قاطعة نحو المهدى .

---

(١) ابراهيم فوزى ، ص ٢٦٥ - ٦ .

ويلاحظ أن ستيورت ، مرافق غوردون في تلك الرحلة ، كان له رأى مغاير تماما لرأى غوردون ، إذ بات يعتقد أن هيبة الحكومة المصرية آخذة فى الزوال فعلا .

ولكن يبدو أن تفكير غوردون قد إستقر بصورة قاطعة نحو تنفيذ الخطة الإصلاحية، ولم يشأ أن يأخذ فى الإعتبار رأى مرافقه أو آراء أولئك الأشخاص الذين هيأت لهم الظروف البقاء فى موقع الأحداث ولمس الحقائق منذ بدايتها وإلى أن وصلت إلى ما هى عليه .

وما أن وصل إلى بربر ، حتى وجد فى الأحداث هناك غذاء جديدا لتفاؤله . فقد كان إستقباله حافلا ورفعت له حوالى أربعمائة عريضة من المواطنين الذين يبغون العمل فى الحكومة ، ففسر هذا بأنه تأييد للسلطة التى يمثلها ورغبة فى إحلال السلام،وبدأت فكرة الإجراءات الإصلاحية تروق له أكثر،فذكر عندما سئل عن الهدف من مجيئه بأنه يسعى للوصول إلى إستقرار وأمن بطرق سلمية ، كان إستقبال غوردون فى بربر مدعاة إلى الوصول إلى تلك الأحكام،إذ أن أعدادا كبيرة من السكان تقاطرت نحوه فى مبنى المديرية ، وفى أيديهم عرائض ذات أهداف متباينة ، وكان رد غوردون إيجابيا ، يتمثل فى توزيع بضع قطع فضية كانت بحوزته ، ولعل هذا يفسر لنا تزاحم الأهالى حول مسكنه ، إذ أن الحصول على قطعة نقود مقابل عريضة لا تكلف سوى قيمة الورق الذى كتبت عليه لهو أمر شديد الإغراء. وبالإضافة إلى هذا أمر الجنرال بتوزيع كميات من الذرة على الأهالى .

ولعل هذه الإجراءات قد أدت إلى إستمالة بعض سكان المدينة إلى صفه،فسارع بدوره إلى تكوين حكومة يمكن أن يلتف حولها المؤيدون . هذه الحكومة قوامها مجلس من الشيوخ يكون مسؤولا لديه رأسا بوصفه حاكما عاما للسودان،وممثلا للحكومة البريطانية، وقد كان يعتقد أنه بهذا سيتمكن من القضاء على المهدية فى ظرف شهر واحد، لن يدعى بعده « محمد أحمد بأنه

المهدى المنتظر » .

خطط غوردون للإستعانة بالأعيان ، فهم الفئة التى تخشى على مصلحتها وذاتها من الثورات ، علاوة على أن إنحيازهم لجهة ما يغذى تلك الجهة بجموع مؤيديهم وذويهم .

قرب غوردون إليه حسين باشا خليفة ، زعيم العبابدة الذين يسيطرون على المنطقة الممتدة شمالا من بربر حتى حدود مصر ، وكان صاحب عدة مزارع فى تلك القرى ، ويملك منزلا فى أسوان ، ولا بد أن الشك قد ساوره فى مصير ممتلكاته تلك فى حالة نجاح المهدى فى السيطرة على البلاد ، فوجد غوردون فى نفسه إستجابة لتأييده ، فأسر له بأمر فرمان الإخلاء (١) ، وتخوف حسين خليفة فطلب من غوردون ألا يعلن هذا خشية من العواقب (٢) ولكن غوردون تجاهل هذا الرأى ، فكشف الفرمان لمجلس الأعيان الذى سيقوم بأمر الحكومة فى مديرية بربر ، ضم المجلس بعض الموظفين الذين سبق أن عملوا فى خدمة الحكومة ، أمثال القاضى محمد أفندى الطاهر ، ومحمد أفندى حجال ، ومن زعماء القبائل جاء بالشيخ أحمد الجابرى ، ومحمد أحمد هاشم ، وسليمان اغا ، ومحمد على قمر من المناصير ، ومثل المجاذيب أمين اغا أحمد المجذوب ، ويعنى تكوين هذه الوحدة الإدارية بقاء المنطقة تحت النفوذ المصرى حين يتم تنفيذ سياسة الإخلاء ، وقد كان كشف الفرمان لهم بمثابة إستغلال لإطماعهم وطموحهم فى السلطة ، وما داموا سيبقون حكام بعد إنسحاب الحكومة المصرية فعليهم إذن الحفاظ على منطقتهم خالية من نفوذ المهدى وأتباعه .

ويبدو أن غوردون قد وطد العزم على تنفيذ ذلك المخطط ، فقد كان يعلن للأهالى فى القرى ، وهو يتقدم نحو الخرطوم ، عن إنسحاب الحكومة المصرية . ولعلها كانت محاولة للحد من موجة الإنعطاف نحو المهدى ،

---

(١) Ohrawlder, p. 123.

(٢) Statin, p. 297.

فإذا كان الأهالى قد ثاروا ضد الحكومة المصرية فقد أعلن لهم إنسحابها وليس هناك ما يبرر إنضمامهم للمهدى .

أما من الناحية المالية فقد خطط غوردون ليخفف العبء الضرائبى عن الأهالى كجزء من سياسة الإصلاح، فأعلن تخفيض تقديرات الضرائب إلى النصف، كما الغى كل المتأخرات حتى نهاية عام ١٨٨٣، وأوضح للأهالى فى إعلان نشره على نطاق واسع أن هدفه هو استتباب الأمن العام وإدخال الطمأنينة فى النفوس ، ولما كان على علم بالتذمر الذى أحدثته إجراءات الحكومة فيما يتعلق بتجارة الرقيق فقد رأى فسخ إتفاق عام ١٨٧٧ (The Anglo-Egyptian Convention) الذى كان ينص على عتق الرقيق عند نهاية ١٨٨٩ . وكان غوردون يعتقد أن هذا الإجراء قد يساعد فى إستعادة شعبية الحكومة خصوصا وقد زعم له أحد المهندسين البريطانيين عندما التقى به قبل وصوله إلى بربر أن السودانيين قد أيدوا المهدى لأنه يبيح لهم تجارة الرقيق .

بالإضافة إلى سياسة تهدئة الخواطر وإصلاح ما أفسدته الحكومات السابقة ، رأى غوردون أنه قد يكون مفيدا إستعمال سلاح الإرهاب ، فأعلن أن السلطان بوصفه خليفة المسلمين ، كان ينوى إرسالى قوة من جند الأتراك الذين عرفوا بشجاعتهم وبأسهم لإستعادة المناطق المتمردة ، ولكنه تدخل بشخصه لإيقاف تلك الإجراءات حتى تتسنى له فرصة دراسة أسباب التذمر عن كثب .

ولعل الهدف من وراء هذا الإعلان هو إمكان إستعماله وسيلة للضغط على الأهالى لقبول الإجراءات الإصلاحية . إذ أن رفضها والإنخراط فى سلك المهدية سيعرضهم إلى حرب إنتقامية يشنها جنود الأتراك . وهو يكشف من ناحية أخرى عن تخوف غوردون من إمكان نجاح السياسة السلمية التى كان يدافع عنها فى بادىء الأمر، أو على الأقل تخوفه من الا تكون تلك الإجراءات وحدها كافية لإغراء الأهالى للالتفاف حول مجلس الأعيان .

وفى نفس الوقت الذى كان يحاول غوردون جاهدا استمالة أهالى المنطقة إلى جانبه ، كان زعماء الأنصار يعملون بنفس القدر من الحماس. فبدأت قوة منهم تحت قيادة الشيخ محمد خير تزحف نحو بربر .

ولم يتردد هذا فى توجيه رسائله لنفس الأعيان الذين وضعهم غوردون فى مركز السلطة لينضووا تحت رايته . فما كان من هؤلاء الا أن عبروا النيل إلى الشاطىء الآخر ، حيث كانت ترابط قوات المهدى ، وأنضموا اليهم دون أدنى إعتبار للالتزام بسياسة غوردون (1) .

ولعل هذا التصرف كان نابعا من تقديرهم لقوة المهدى بالمقارنة إلى نفوذ الحكومة . فقد أصبح جليا أن الحكومة تفقد كل صباح أرضا جديدة، وقد جاء غوردون وهو يحمل معه الأمنيات الطيبة وبضعة عملات ذهبية لم تكن لتساوى شيئا أمام جحافل الأنصار .

بالإضافة إلى هذا ، فقد كان إعلان فرمان الإخلاء فى غير مصلحته ، إذ أن الأعيان الذين أراد أن يغريهم به قد أيقنوا بإنتهاء نفوذ الحكومة،فلم يترددوا فى إخطار ذويهم بهذا .

فتقاطرت مشايخ القرى الواقعة جنوبى بربر لإعلان تأييدهم لعمال المهدى،وفى المتمة لم يتردد شيخ مثل على ود سعد الذى عرف بأمر الفرمان من غوردون من الإنضمام إلى المهدى لينجو بنفسه .

---

(1) Cuzzi, p. 56.

الفصل الثالث

مخططات غوردون والمهدى للسيطرة على الخرطوم

تنفيذ الخطة الإصلاحية فى الخرطوم :

وصل غوردون الخرطوم فى الثامن عشر من فبراير ١٨٨٤، وما زالت افكاره الرئيسية حول مهمته تتوافق تماما مع السياسة التى سبق أن أعلنها ونفذها فى بربر، إذ كان يرى فيها الوسيلة الفعالة لجذب الأهالى نحو حكومته. كان إعتقاده أن ثقة السكان فى الحكومة المصرية لم تزعزع، وما زالت رغبتهم فى بقائها أكيدة، ولا يجد المهدى بينهم تجاوبا أو عطفا. ومن ثم إستقر رأيه على مساندة تلك الفئة التى قدرها بثلثى سكان الخرطوم والتى كشفت عن رغبة حقيقية فى إستتباب الأمن.

ولقد إبتهجت المدينة التى قدر عدد سكانها بـ ٤٣٫٠٠٠ نسمة تقريبا بوصول غوردون (١) ولا بد أن أغلبيتهم رأت فى مجيئه إنقاذا لها ولسلطاتها وممتلكاتها من الثورة التى أوشكت أن تسيطر على المدينة، لا سيما وأن الخرطوم كانت – بوصفها عاصمة البلاد – مقرا لعدد كبير من الأجانب. ولا بد أن هؤلاء كانوا يشكلون قسما كبيرا من الفئة التى وصفها غوردون بثلثى السكان الذين لا يجد المهدى بينهم تأييدا أو تعاطفا. ومن ثم إستمد من موقفها هذا تفاؤله وإستند على مشاعرها فى إقرار الصيغة النهائية لتصفية الثورة.

كان سكان الخرطوم خليطا من ثلاث مجموعات، مجموعة أوربية، وثانية شرقية، وأخرى سودانية(٢). شكل الإغريق والايطاليون والنمساويون أغلبية الأوربيين. أما الشرقيون فقد كانت أغلبيتهم من المصرين والسوريين الذين

---

(١) Nushi Pasha, p. 16.

(٢) ابو سليم، «مدينة الخرطوم في التاريخ»، الخرطوم يناير ١٩٦٦ ص ٨.

كانو يمثلون أكبر مجموعة من الأجانب على الإطلاق، إذ قدر عددهم فى عام ١٨٨٠ بسبعمائة ألف تقريبا، ولكن يبدو أن اعداد منهم كانت قد غادرت البلاد بعد إندلاع الثورة، وعلى الخصوص بعد هزيمة هكس باشا (١). وشكل الجعليون والدناقلة أغلبية السودانيين الذين كانوا يمثلون فى مجموعهم خمس سكان المدينة. ولكن هذا العدد كان قد تقلص فى مطلع عام ١٨٨٤، إذ هجر بعض الدناقلة منازلهم وإستقروا بقرية الكاملين جنوب الخرطوم (٢).

يشكل السودانيون المقيمون فى المدينة الطبقة الفقيرة عموما، إذ إستطاع الأجانب السيطرة على ميدان التجارة بخبرتهم وعملهم، فكان الإغريق هم أصحاب القدح المعلى فى هذا المجال. أما الخدمة المدنية فقد سيطر عليها المصريون كموظفين موفدين من قبل حكومتهم، فى حين حظى الأتراك بالوظائف الكبرى فى جهاز الإدارة.

وجد غوردون إذن عند وصوله أن الأجانب يمثلون أغلبية السكان وفى أيديهم الثروة والسلطة، وكانوا يرون مصلحتهم فى بقاء المدينة تحت قبضة الحكومة القائمة مهما كلف الأمر ولعل غوردون قد لمس الحقيقة حين قال إن المهدى لا يجد تأييدا بينهم. ففى رسالة لمراسل صحيفة التايمز من الخرطوم ذكر أن فئة التجار من هولاء ترغب بطبيعة الحال فى مقاومة المهدى والتمسك بالحكم المصرى لآخر لحظة. ولعلهم لهذا السبب توسلوا لغوردون كى لا يشرع فى تنفيذ خطة الإخلاء، اذ أيقنوا أن سياسته السليمة التى أعلنها لن تنجح بأية حال فى قلب ميزان القوى لصالحه. وكان واضحا بعد معركة شيكان أن الخرطوم ستكون الهدف المقبل للمهدى، الأمر الذى أثار موجة من الذعر بينهم وأصبح جليا أن الحكومة بامكانياتها تلك لن تتمكن من خلق شبكة دفاعية فعالة للمدينة، فأتجه التجار إلى تصفية أعمالهم تأهبا لمغادرتها متى ما بدأ الخطر ماثلا على الأبواب.

---

(١) Cuzzi, p. 41.

(٢) Nushi Pasha, p. 4.

وذهبت كل جهود دى كتلوجن فى تهدئة الخواطر أدراج الرياح، اذ فقدت الأغلبية ثقتها فى الحكومة ولم يعد بإمكان رجالها إخفاء حقيقة الموقع الذى يحتله المهدى، فقد كان يكسب كل يوم أراضى جـديدة، وتتصاعد بإستمرار موجة الكراهية ضد الحكومة والأجانب بصفة عامة.

ولكن مجيء غوردون بعث فى نفوسهم أملا جديدا، غير أنهم كانوا يرون من الضرورى تطبيق خطة عسكرية لحماية الخرطوم، ومن هنا جاء توسلهم له للابقاء على حصون المدينة (١) ورغم أن غوردون قد شرع فى بادىء الأمر فى تنفيذ خطته الإصلاحية لإجهاض الثورة سلميا إلا أنه أضطر فيما بعد إلى الإمتثال إلى رأى تلك الفئة فى مواجهة المهدى عسكريا.

ورغم قلة السودانيين داخل الخرطوم فقد عمل غوردون عـلى إستمالتهم وإستمالة أولئك الذين يقيمون فى المنطقة بأكملها، فجاء فى خطابه الاول الذى أملاه على أبراهيم باك لبيب مأمور الضبطية قوله: « إنكم لا تجهلون شفقتى عليكم، ومحبتى لكم، وقد ساءنى ما سمعته عنكم حيث نشبت الحرب بينكم، وتعطلت تجارتكم، وسفكت دماؤكم، ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الإسلام وزيارة قبر النبى (ص) وقد ساء هذا الحال كل من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم » (٢). ثم برهن على حسن نواياه بإتخاذ جملة قرارات، فأعلن عن تخفيض الضريبة المقررة إلى النصف مع الغاء المتاخرات حتى نهاية عام ١٨٨٣ (٣). كما قرر إطلاق سراح جميع السجناء بإستثناء القتلة، وأعلن أيضا الغاء الإتفاق الخاص بعتق الرقيق، وكان غوردون يهدف من وراء هذا إلى تغيير الصورة السابقة التى عرفها السكان عن الحكم التركى. فهذه إدارة جديدة متعاطفة معهم وتتخذ موقفا يختلف كثيرا عن مواقف الإدارات السالفة. وما دام الحال هكذا

---

(١) ابراهيم فوزى، ص ٢٧٦.

(٢) محمد عبد الرحيم، ص ٨.

(٣) Nushi Pasha, p. 5.

فقد يقتنع البعض أنه ليس هناك ما يبرر مناصبتها العداء بالإنضمام إلى المهدى.

شرع غوردون بعد ذلك فى تكوين إدارة محلية قوامها مجلس للأعيان، كما فعل فى بربر، ويلاحظ أنه لم ينشر الفرمان الخاص بالإخلاء هنا، إلا أنه قد أشار اليه فى خطابه الأول حينما ذكر أنه منتدب «من قبل حكومة صاحبة الجلالة الملكة لأكون واليا على السودان ومرخصا لى فوق العادة، وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاما وفوض إلى الحكم المطلق» (١). وفى هذا إشارة صريحة إلى مضمون الفرمان، إلا أنه لم يذكر مسألة إنسحاب الجند، ربما تخوفا من رد الفعل السيىء الذى أحدثه الإعلان فى بربر، وقد بعث برقية إلى الخديوى يخطره فيها أنه لم يكشف عن أمر جلاء العساكر المصريين خوفا من الإضطرابات التى قد يثيرها الإعلان.

وذكر غوردون للأهالى أنه ينوى تشكيل حكومة من الوطنيين حتى يستطيع السودان أن يحكم نفسه بنفسه، وقد كانت فكرته هى سحب الجند والموظفين المصريين وتعيين حكومة جديدة يمكن أن تقف فى وجه المهدى وتحتفظ بالخرطوم فى قبضتها، وهى حكومة سودانية فى مظهرها، إلا أنها تدين بالولاء للحكومات التى أتت بها إلى السلطة.

عين غوردون عند وصوله عوض الكريم أبوسن، رئيسا لمجلس الأعيان ومديرا للخرطوم فى ذات الوقت (٢) وقد إختار أبوسن وأنعم عليه بلقب الباشوية، لأنه كان شيخا ذا نفوذ وسط قبيلة الشكرية التى تشكل أكبر

---

(١) محمد عبد الرحيم، ص ٩.

(٢) عوض الكريم باشا أحمد أبو سن (– ١٨٨٦) الإبن الأكبر لأحمد بك أبو سن، عين ناظر للشكرية في ١٨٧٢. بعد موت والده ترك النظارة ليلتحق بوظيفة في الحكومة بالخرطوم، فعين أخوه على ناظرا مكانه. الا أن عوض الكريم عاد مرة أخرى للنظارة عند اندلاع الثورة المهدية وناصر الحكومة. لم يتمكن من الحضور إلى الخرطوم خلال فترة الحصار فعاش في منطقة ريرة إلى أن سقطت المدينة. اعتقله الخليفة عبدالله فيما بعد ومات سجينا.

Hill, *A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan* pp. 63-4.

تجمع قبلى فى منطقة الخرطوم ، إذ قدر عدد أفرادها بـ ٣٥ ألفا تقريبا (بالمقارنة مع ستة ألاف من البطاحين ، وأربعة الآف من الحسنات ، وبضعة مئات من كل من الحسانية والاحامده والقريات) ، فانحياز أبو سن إلى جانب الحكومة سيعنى كسب أعداد كبيرة من أفراد تلك القبيلة ، هذا بالإضافة إلى أنه حتى ذلك الحين لم يزل فى ولائه للحكومة المصرية ، فقد حارب مع قوات جيجلر باشا ضد الأنصار فى عام ١٨٨٢ ، وعند بداية حصار صالح الملك فى جزيرة فداسى سار أبو سن لنجدته ، وحاول إحتلال موقع مقابل للجزيرة ، إلا أن أبنه عبدالله ـ الذى أعلن إنضمامه للمهدى ـ سبقه إلى هناك فأحتل الموقع (١) جاء إذن إختيار غوردون لأبى سن بمثابة الإغراء ليبقى فى ولائه للحكومة ، وقد يجر من ورائه بعض بطون الشكرية . وقد ضمت عضوية المجلس السعيد باشا حسين ، وهو جعلى عمل فى الجيش المصرى وعرف بإخلاصه لغوردون منذ ولايته الأولى فى السودان ، إذ نبهه آنذاك إلى مؤامرة كان يحيكها سليمان الزبير بدارفور ، فأنعم عليه غوردون برتبة البكباشى .

ويبدو أنه كان يتمتع بقدر من الكفاءة العسكرية ، إذ عين فى عام ١٨٨٣ قائدا لقوة الدويم . ولعل غوردون كان يسعى لتمثيل بعض الضباط فى المجلس حتى يساهموا بخبرتهم فى الأمور الحربية التى قد تواجه المدينة ، فبالإضافة إلى السعيد باشا ، عين حسين باشا أبراهيم الشلالى ، ومن موظفى الحكومة جاء ببابكر أفندى الجاركوك ، ومحمد باشا حسين ، وهو مصرى الجنسية عين فى ذات الوقت مديرا للمالية . ولم ير غوردون فى تعيينه خرقا لمبدأ تكوين حكومة من السودانيين ، إذ أن محمد باشا قد حضر إلى الخرطوم منذ طفولته ومارس التجارة وإشتهر بها فأصبح من كبار التجار فى عام ١٨٨٣ (٢) .

---

(١) بابكر بدرى ص ٢٨.

(٢) نعوم شقير ص ٦٩٣ .

وفى نطاق سياسة الإستعانة بزعماء القبائل ليكسب ذوى عشيرتهم أشرك فى المجلس سليمان أغا ود الملك، والحاج ناصر أبو حسوس، كما قرب اليه رجال الدين والفقه أملا فى الاستفادة منهم فيما بعد فى اصدار الفتاوى التى تدحض إدعاءات المهدى، فمثلهم بالشيخ محمد الأمين الضرير رئيس ومميز علماء السودان، وحسين المجدى الذى كان مدرسا بالجامع، والشيخ عبد القادر أبراهيم المعروف بقاضى الكلاكلة (١).

أراد غوردون أن يفوز أيضا بولاء تلك الفئات من سكان المدينة التى تتعاطف سرا مع المهدى، فتعرض للرسالة التى بعث بها إليه فى الخطاب الذى ألقاه يوم وصوله إلى الخرطوم بقوله : « وقد خابرت السيد محمد أحمد المهدى بفحوى مأموريتى وأعترف له بالسلطة على السودان الغربى برمته، على شرط أن لا يمد يده لغيره .. ولى الأمل بأن العلائق ستصبح بينى وبين سلطان الغرب وثيقة العرى » (٢).

هدف غوردون من وراء هذا بلا شك إلى كسب تلك الفئة التى أوشكت أن تقف فى الخط المعتاد له، ولا بد أن تصريحه ذاك سيجعلها تتخلى بصورة نهائية عن أى فكر فى خلق قاعدة للمهدى وسط العاصمة نفسها . فالمهدى لم يعد عدوا للحكومة تلزم محاربته، بل وجد الإعتراف الرسمى، ولم يعد هناك ما يبرر رفع رأية العصيان سواء فى السر أو العلانية .

وعمل غوردون على كسب فئات من مجتمع المدينة عن طريق الإغراء المادى، فقرب إليه العلماء وجعل لهم رواتب عينية ونقدية، واستطاع أن يستغلهم فى خلق جبهة دينية مناوئه للمهدى، فكانوا يلقون الخطب فى

---

(١) Nushi Pasha P. 5.

(٢) محمد عبد الرحيم، ص ٩.
القول بأن المهدى قد عين سلطان على الغرب غير صحيح، إذ كان التعيين على كردفان فقط ويؤيد هذا رد المهدى لغوردون حيث يقول « انك تزعم ارادة اصلاح المسلمين ... وأن تجعلنا سلطانا على كردفان » انذارات ب ص . ١٠٩ — ١٨.

المساجد يكذبون فيها إدعاءات المهدى ويصورنه كعدو للمسلمين (١) .

ويبدو أن غوردون قد طلب منهم تحرير الخطاب الذى أرسل إلى الشيخ عبدالقادر ، وعبدالرحمن النجومى ، بتاريخ ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ . وقد تعوضوا فيه إلى دحض أقوال المهدى بنصوص من الأحاديث والفقه الإسلامى ووصفوه بأنه مرتد لأنه فارق الجماعة » وشق عصا الإسلام ، وخرب ديار المسلمين ، ونهب أموالهم ، وهتك أعراضهم ، وسلط بعضهم على بعض بما يوجب إرتدادهم حيث استحلوا قتل المؤمنين ، وهتك أعراضهم ، ونهب أموالهم ، وسمتهم الكفرة بدون وجه مع إقامتهم شعائر الدين وسلوكهم الطريق المتين » (٢).

وقد ذيلت هذه الرسالة بامضاء كل من الشيخ محمد الأمين ، والشيخ حسين المجدى ، والشيخ محمد خوجلى قاضى عموم السودان ، والشيخ شاكر أفندى مفتى الإستئناف ، والشيخ محمد موسى مفتى مجلس الخرطوم .

وكانت هذه محاولة لإضعاف التأييد الذى يلقاه المهدى ، فاولئك الذين يثقون فى مقدرة العلماء يمكن أن يروا فيه رجلا خارجا على أصول الدين وتقاليده .

إستغل غوردون أيضا طبقة « الفقراء » والمتصوفة ذات النفوذ وسط الأهالى ، وطلب منهم التوجه إلى الله بالدعاء ليعين المدينة ، وكانوا يتقاضون على هذا أجراً ثابتا من خزينة الدولة (٣) . وعمل أيضا على مراعاة العادات والتقاليد الإسلامية ليدحض إتهامات المهدى للادارة التركية بجهلها وتجاهلها للدين وإنشغالها بغير الله .

---

(١) ابراهيم فوزى ، ص ٢٤٦ .

(٢) العلماء الموضحة اسماؤهم ادناه إلى الشيخ عبد القادر وولد النجومى ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) (ملحق ح).

(٣) Nushi Pasha, p. 30.

كما حاول أيضا إستمالة فئات أخرى وذلك بالإنعام على أفرادها بالرتب والألقاب ، فبدأ فى توزيعها يمنة ويسرة حتى « وصلت رتبة البيك والباشا الرفيعة الشأن إلى أوباش الناس كالحجام والجزار » (١) .

كانت سياسة غوردون ، إذن محاولة كسب السكان عن طريق إعطائهم بعض السلطات الإدارية وتخفيف الضغط الإقتصادى الذى كان من مخلفات الحكومات السابقة ، بالإضافة إلى بعض الإجراءات الإصلاحية الأخرى . وكان يعتقد أن الحكومة التى سيكونها لتخلف الحكومة المصرية ستلقى التأييد الذى يمكنها من مواجهة المهدى . فكتب لبيرنج يطمئنه على إمكانية إخلاء الجند والموظفين المصريين من المدينة ذاكرا له فى نفس الرسالة أنه كان يخشى من إضطرابات قد تثيرها العناصر المدنية ،ولكنه كسب تأييدهم بواسطة بعض الإجراءات الإصلاحية .

ولكن يبدو أن تخوف غوردون هذا ظل قائما ،ولم تنجح تلك الإجراءات تماما فى إستمالة السكان ، فأخذ يستعين بسلاح الإرهاب . فأعلن فى المدينة أنه لولا تعاطفه معهم لكانوا الآن تحت رحمة قوة عسكرية ترسل خصيصا لإخضاعهم . وقد أصبح سلاح الإرهاب جزءا من مخطط غوردون لإقرار السلام . فإذا كان فى الإمكان تبليغ الأهالى بصورة غير رسمية عن إحتمال إرسال قوات تركية فقد يدفعهم هذا إلى هجر المهدى .

وكان يعتقد أيضا أنه من المفيد نشر إشاعة فحواها أن هناك إتجاها لإرسال قوة إنجليزية للسودان ، فهذا أمر بلا شك سيثير الفزع ،وربما ساعد فى جذب بعض العناصر المعادية ،فأصدر منشورا بهذا المعنى بعد إسبوع تقريبا من وصوله يقول فيه إنه « لعدم إقبال الأهالى عليه مع ما أزاله من المظالم والمغارم وإطلاق السجناء وإحراق دفاتر الأحوال المتأخرة جميعها قد يضطر لإستحضار عساكر إنكليزية لقمع الثائرين » (٢) .

---

(١) أحمد العوام ، ص ٥٤ .

(٢) أحمد العوام ، ص ٥٥ .

إستراتيجية الحصار فى تاريخ المهدية :

إنحصر نشاط المهدى الشخصى حتى أواخر ١٨٨٣ فى كردفان ، فى حين أوكل لأتباعه مهمة رفع راية الثورة فى أنحاء متفرقة من البلاد ، ولم يستثن منطقة أواسط السودان من هذا النشاط ، فعقد لواء قيادتها لمحمد الطيب البصير . كان تقليد المهدى هو تزويد عماله بالرسائل والمنشورات الموجهة إلى رجال القبائل والعلماء ، يدعوهم فيها إلى مساندته ، ويبدو أنه قد أرسل مع ود البصير بعضا من هذه لسكان منطقة الخرطوم . ويعود تاريخ أول رسالة لهؤلاء معروفة حاليا إلى ١٠ محرم ١٣٠١ (١١ نوفمبر ١٨٨٣) أى أنها قد كتبت بعد ستة أيام من معركة شيكان فى ٤ محرم (١) ومن المرجح أن يكون المهدى قد بعث لهم بعدة رسائل قبل هذا التاريخ . فهو ينبههم لهذا فى الرسالة المشار إليها آنفا . ولعل هذه الأخيرة قد إستحوذت على إهتمام خاص لإختلافها عن سابقاتها من حيث أنها أشارت صراحة إلى ضرورة إعلان الحرب على الحكومة فى عاصمتها . ويستطيع القارىء أن يجد تفسيرا منطقيا لهذا الإتجاه الجديد الذى برز فى نشاط المهدى ، لم يعد يدعو الناس للهجرة إليه وحسب ، بل لإلقاء حصار على الخرطوم ، تقفل به جميع المسالك ، ويمارس بواسطته ضغطا على السكان حتى يستسلموا ويهلكوا بداخلها جوعا . جاء هذا النداء بعد إندحار جيش هكس باشا أمام الأنصار ، وهى هزيمة أمنت له السيطرة على السودان الغربى برمته . كما كان ذلك الجيش يختلف فى عدة نواح عن الجيوش التى سبق للمهدى أن سحقها .

فهذه قوة أرسلت خصيصا من مصر بغرض القضاء نهائيا على الثورة ، فهزيمتها تعنى مقدرة المهدى الفائقة على دحر الجيوش التى تنظمها حكومة الخديوى نفسها ، بالإضافة إلى هذا فلقد جلس على قمة القيادة مجموعة

---

(١) المهدى إلى فلان وفلان من اهالى الخرطوم ١٠ محرم ١٣٠١ فيوضات ج ٧٩/٣ .

من الضباط البريطانيين الذين تلقوا تعليما وتدريبا عسكريا منتظما (١) وكان من الطبيعي أن تتضاعف ثقة المهدى فى نفسه وأتباعه بعد هذا الإنتصار، وبدأ تفكيره ينفتح جديا على السيطرة الكلية .

ومن ناحية أخرى فقد إهتزت بعد شيكان الصورة التى عرفت بها مصر وبريطانيا كمثال للقوة والجبروت ، وإذا كان هذا هـو الحال بالنسبة للدولتين الكبيرتين ، فلا بد أن تكون هيبة حكومة الخرطوم قد زالت تماما . ولم تعد هى تلك الحكومة المهابة التى كان جندى واحد من جنودها « يرهب رهطا من الاهلين » ولقد كان فى هذا تهيئة نفسية من الدرجة الاولى للمهدى ليقود حملته الختامية .

ولقد صحب تلك التهيئة النفسية إطمئنان لموقفه العسكرى ، فإذا كانت حامية الخرطوم ستدافع عن نفسها بالأسلحة النارية فقد غنم المهدى من جيش هكس باشا الكثير من تلك الأسلحة .

كانت أمام المهدى وسيلتان للسيطرة على الخرطوم ، أولاهما حشد كل قواته فى المنطقة والإنقضاض على الحامية فى هجوم مباشر، والثانية إلقاء حصار حول المدينة وممارسة حرب إستنزاف بطيئة يفقد غوردون خلالها أعدادا من قواته المحاربة وعتاده ومؤنه،ويضطر فى النهاية إما إلى التسليم أو إلى الدفاع الشكلى . ويبدو أن المهدى قد عزم منذ البداية على إنتهاج الطريق الثانى، كما كشفت رسالته المؤرخة ١٠ محرم ١٣٠١ هـ. ولعله إستند فى قراره على تجاربه السابقة ، فلم تزل محاولة الهجوم الفاشل الذى شنه على الأبيض ماثلة فى الأذهان، فى حين كانت حصيلته وافرة من الإنتصارات التى تمت عن طريق الحصار .

ارتكزت خطة الحصار — كما مارسها الأنصار — فى مواقع كثيرة فى الغرب على قاعدتين . الأولى عزل الموقع المحاصر عن العالم الخارجى

(١) كان مع هكس باشا من البريطانيين : الميجور مارتن ، الميجور فارقوار ، كابتن ماس، كابتن دارنر ، كابتن أفانس. - محمد عبد الرحيم ، ص ١٣٤-٥ .

بصورة تامة، بحيث يستحيل على حكامه إيفاد أى مبعوثين لطلب الإنقاذ من مراكز أخرى ، كما يستحيل على أية قوة آتية من الخارج الوصول اليه دون أن تتعرض هى نفسها لهجوم عنيف قد تقاومه وتمنى بالهزيمة أو تؤثر التسليم بلا إراقة دماء . أما القاعدة الثانية فهى الرقابة المشددة على دخول أى مواد غذائية للمحاصرين، حتى يجبروا على إستهلاك مخزونهم . ومع الأيام تنخفض مقدرة الجندى على القتال وتنهار معنوياتهم ، وحينما يوجه الأنصار ضربتهم فأما أن يرفع المدافعون الرأية البيضاء أو يواجهوهم بمقاومة هزيلة لا تشكل بأى مقياس خطرا على المهاجمين .

يكشف تاريخ فتوحات المهدى فى الغرب أن أول تجربة للحصار قد نفذت بنجاح فى موقعة البركة فى مايو ١٨٨٢ ، عندما بعث المهدى بعبد الله ود النور لإستنفار قبائل الحمر ، والبديرية ، والحوازمة ، لفرض ذلك الحصار (١) ثم أعقبه حصار الطيارة فى شرق كردفان بقيادة المنا إسماعيل ، وجند له بنى قومه من الجوامعة ، فدام من ٢ يوليو إلى ٦ غسطس ١٨٨٢ .

ولعل تجربة الهجوم المباشر الذى شنه رحمة محمد منوفل على بارا فى ٢٤ يوليو وصدها لذلك الهجوم قد أقنعت الأنصار أكثر بإيجابية سياسة الحصار ، فشرعوا فى محاصرتها بإحكام وتمكنوا من قفل جميع الدروب المؤدية اليها ، وبعد صمود دام خمسة أشهر اضطرت بارا للتسليم لنفاد موادها الغذائية .

ولقد جاء حصار الأبيض فى منتصف ١٨٨٢ ليزيد من تجارب المهدى فى هذا الميدان ، تلك التجارب التى كان لها أبلغ الأثر فى كيفية التصدى لحامية الخرطوم فيما بعد والإستيلاء على المدينة .

تعود صلة المهدى بالأبيض إلى ما قبل الجهر بدعوته ، فقد درج على زيارتها بإنتظام ، ووطد علاقته بأصحاب النفوذ فيها من الأعيان ورجال الدين ،

---

(١) MacMichael, *The Tribes of Northern and Central Kordofan*, p. 37.

وكان ينشر بينهم تعاليمه الداعية إلى العودة لحياة فجر الإسلام بما فيها من نقاء فى الروح وصفاء فى السيرة والسريرة .

ويبدو أن تفكير المهدى قد إنحصر فى تلك الآونة فى غرب السودان - الذى تمثل الابيض قلبه النابض - كهدف مرحلى لدعوته . عرفت المدينة بعراقتها فى الميدان التجارى ، فاهتمت بها الحكومة التركية عند الفتح وجعلتها مركزا إداريا هاما شيدت فيه دارا للمديرية ، وثكنات للجيش ، وفتحت مدرسة إبتدائية ، وأقامت مستشفى ، وقد قدر عدد سكانها بحوالى خمسين ألفا ، بينهم أعداد كبيرة من التجار الجعليين والدناقلة والمحس ، الذين أقاموا بها بصفة دائمة جنبا إلى جنب مع قبائل تلك الجهات ، كما عرف بين ساكنيها تجار من الهند والشام ودول أوربا (١) .

ولم يكن خافيا على المهدى أن إستيلائه على الابيض سيكون قفزة كبيرة بالدعوة ، فمهد طريقه بالزيارات المتكررة لأهلها ووطد علاقاته بالتجار والأعيان أمثال أولاد محمدين العريق ، وأولاد عربى ، والفكى مكاوى الركابى ، وولد أبو صفيه ، والياس باشا أم برير ، وبانقا الرازقى ، وحاج خالد العمرابى . ويبدو أنه قد ترك إنطباعا حسنا فى المدينة ، فقد أخذوا بعلمه وتواضعه وطلاقة لسانه .

لم يتجه تفكير المهدى نحو الخرطوم فى ذلك الوقت ، ولم تشر الوثائق إلى أنه قد أقام أى صلات مع أهلها ، ولعله لم يفعل كى لا يقدم نفسه فريسة سهلة للحكومة وهو أعزل من المؤيدين . فاختار مكانا بمنأى عنها حتى تتسنى له فرصة تكوين جبهة جماهيرية عريضة ، تملك المقدرة للتصدى لأى هجوم قد تدبره الحكومة .

ولم تقتصر إتصالاته على الابيض فحسب ، بل نشط أتباعه فى الطواف على كل أجزاء المديرية ، فانتشرت خطاباته بين القبائل ، وكسب تأييد زعماء

---

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٤٢ .

الحمر والجوامعه ، الذين شكلوا رأس الرمح لقواته وأحرزوا جملة إنتصارا فتحت له الطريق نحو الابيض . وقد استخدم نفس الاسلوب قبل إنطلاقه صوب الخرطوم فلعب الشيخ العبيد ود بدر، والشيخ مصطفى الأمين ، ادوار مماثلة لتلك التى قام بها المنا اسماعيل ورحمة منوفل .

أحدثت إنتصارات المهدى فى البركه والطياره رد فعل فى الابيض يشبه الذى أحدثته معركة شيكان فى الخرطوم . فانقسم السكان إلى فريقين فريق التجار من الأجانب، والجعليين، والدناقلة، والمحس، الذين إنتابتهم موجة من الذعر هاجروا على إثرها إلى الخرطوم . ثم فريق الاهالى أمثال الياس باشا أم برير، وبانقا الرازقى، وحاج خالد العمرابى، ومحمد بن العريق، وود سوار الدهب الذى قرر الإنضمام للمهدى .

وسارع محمد باشا سعيد ، مدير الابيض ، إلى تحصين المدينة بحفر خندق حولها، شيد عليه الأبراج ووضع عساكره على طوله، الا أنه جوبه بقلة الامكانات، البشرية، إذ إتضح أن خط النار بحاجة إلى ٢٠٫٠٠٠ رجل تقريبا لحمايته فى حين لم تتعد قوته ٤٠٠٠ رجل، بالإضافة إلى أن الخندق لم يكن بالعمق ولا بالعرض الذى يشكل تخطيه عقبة فى وجه المهاجمين .

فقرر المسؤولون وفقا لذلك حصر الاستحكامات حول المكاتب الحكومية ، والمديرية ، والثكنات ، ومنازل الموظفين ، والتجار السوريين والإغريق الذين بقوا فى المدينة .

وكان اتجاه محمد باشا سعيد هو الاستعداد لمقاومة المهدى بالقوة . إلا أنه بذل فى ذات الوقت محاولة لصده سلميا حين استصدر فتوى من رجال الدين تدحض دعوة المهدى . ولقد حاول غوردون إستخدام نفس الأسلوب فيما بعد .

ويبدو أن هذه الفتاوى قد بلغت مسامع المهدى فأشار إليها فى إحدى رسائله بقوله « .... ولا تغتروا بالخطب التى ألفها فى ذمنا وتكذيبنا علماء

السوء كأحمد بن إسماعيل الولى ... فهؤلاء ممن أدخل فى قلوبهم النفاق بحب المال والجاه .. » (١)

مهد المنا اسماعيل، وعبدالله النور، الطريق للمهدى ليستولى على الابيض كما سبق أن ذكر.

فوصل بجيوشه إلى منهل كابا آتيا من قدير فى ١٧ شوال ١٢٩٩، (١ سبتمبر ١٨٨٢) وبدا جليا بأنه سيوجه ضربته القادمة للابيض.

وحسب التقليد الذى درج عليه حينئذ فى معاركه، والتزم به فيما بعد فقد أوفد مبعوثين، هما جابر ود جلى الزيادابى، ومحمد المغربى يحملان رسالة لمحمد باشا سعيد وأخرى لأعيان المدينة. ومن المرجح أن المهدى لم لم يكن قد قرر بعد الكيفية التى سيستولى بها على الابيض، بل كان فى إنتظار رد الفعل لرسائله.

ورغم أن المحتوى الحرفى لهذه الرسائل غير معروف، يبدو أنها كانت تحمل نداء للتسليم. لم يكن المهدى قد قرر مهاجمة الحامية، ولعله لم يكن ليفعل لولا استفزازه باعدام الرسولين شنقا. ولم تكد تمضى ثلاثة أيام على الحادث حتى إنقض رجاله على الابيض فى معركة كان تفوقهم العددى فيها واضحا، فوصفها أحد شهود العيان بقوله: « كانت جيوش المهدى دافقة لها صوت الخاوية، هجوا علينا وصبرنا عليهم حتى قربوا علينا وضربت الاربع أرباع القيقر دفعة واحدة، وأنصبت عليهم نيران الحرب من المدافع والصواريخ وسلاح الرمنغتون ونحن جميعنا على قدم واقفين صفوف صفوف، الكتف على الكتف، وقد أعطانا القدير السبات والصبر على البلا النازل من السما، حتى أنا قتلنا منهم المية والألوف وما زالوا نازلين علينا بلا خوف وجاوبناهم بالرصاص(٢).

ولم تنته تلك المعركة بهزيمة المهدى، بل باستيعابه درسا كان ذا فائدة

---

(١) المهدى إلى قاطبة العلماء والتجار والفقراء والمساكين القاطنين بمدينة الابيض، ذو القعدة ١٢٩٩ - انذارات ب، ص ٣٨ - ٤٥.

(٢) يوسف ميخائيل، ص ٥٠.

عظيمة له فى معركة الخرطوم فيما بعد . لقد تأكد له أن ثمة صعوبة حقيقية فى إنزال الهزيمة بجنود الحكومة الذين يحسنون الرماية بالأسلحة النارية من خلف حصونهم المنيعة . ولم تفلح كل تلك الجمـوع المؤلفـه المسلحة بالحراب والسيوف فى دحر حفنة ضئيلة من العساكر النظاميين . فقرر المهدى لتوه إيفاد الرسل لإحضار الأسلحة النارية التى غنمها من راشد أيمن ويوسف الشلالى ،وتركها فى جبل قدير تحت حراسة محمود عبد القادر . وحال وصولها تم تكوين فرقة قوامها الأسرى من الجهادية السود المدربين على إستخدام تلك الأسلحة ،وأوكل أمر قيادتها لحمدان أبى عنجة، الذى حفل تاريخه بالقتال مع جيش الزبير باشا وإبنه سليمان . وكان واضحا أن المهدى يسعى إلى خلق فرقة على نمط قوات الحكومة ، فأتى بالرجال الذين تلقوا شيئا من التدريب العسكرى والخبرة الحربية حتى يكونوا عضدا لاولئك الذين يحاربون بالسيوف والحماس الدافق، وهى أسلحة برهنت الأحداث أنها وحدها لا تكفى .

ولقد أزداد المهدى يقينا بعد المعركة بأن دفع قواته فى هجوم مباشر حتى ولو كان بالأسلحة النارية قد يفقده الكثير وأن سياسة الحصار هى الأكثر ملاءمة ، فاستقر رأيه عليها .

فوجه بعد يومين من المعركة نداء آخرا لسكان الابيض يدعوهم فيه إلى مراجعة موقفهم وموافاته خارج الخندق ، ويلاحظ هنا أنه يخاطب العلماء ،والتجار ، والعمد ، والفقراء ، والمساكين ، وقد استثنى الحكام عن قصد ، فلقد سبق أن خاطبهم فردوا عليه بقتل رسله .

ولم تكن فكرة توجيه الانذارات مستحدثة هنا ،فقد درج عليها منذ معاركه الأولى ، وواظب عليها حتى سقطت الخرطوم . كما أن محتوى تلك الرسائل لا يختلف فى جوهره من رسالة لأخرى . فهو يستعمل أسلوب الترغيب حتى يحصل على تأييدهم فيقول « إنى قد كاتبتكم لظن الخير فيكم

وأعلمتكم بالحقيقة التى لا كذب فيها . ولست فيها بمتحيل ولا متصنع وإنما هو الحق الصدق الآتى من الله ورسوله ومعلوم أنه لا يكذب على الله ورسوله الا من لا أخلاق له عند الله تعالى . ومن يعلم علم اليقين أن متاع الدنيا قليل لا يزن عند الله جناح بعوضة لا يؤثره على ما عند الله تعالى ، ولو آثره عليه لزال كأن لم يكن ، وأعقب عليه حسرة لا آخر لها ، فلا يوثر جاه الدنيا على التقوى والإقتداء بالأنبياء والأصفياء الا من لا عقل له . وأنى عبد مسكين لا طاقة لى بقوام أدنى شىء ، فلولا أنى على نور من الله وتأييد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدرت على شىء ولا ساغ لى أن أحكى بشىء ... » [1] وقد حذرهم من الإستماع لأراجيف الحكام فهؤلاء هم الظالمون الذين قال الله فيهم (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) والمصيبة إذا جاءت تعم .

وهو يحثهم على التسليم بقوله « فأن إتبعتم وسلمتم الأمر لنا فى الله ورسوله فاتركوا جميع أولادكم وعائلتكم وأخرجوا لملاقاتنا خارج البندر من غير سلاح ، وكونوا من جملة الأنصار ، فمن فعل ذلك فقد أحرز نفسه وماله وعليه أمان الله ورسوله ويكون له ما تركه من الأموال والأولاد وان لم تفعلوا ما ذكر فقد توكلنا على الله وحضرنا لجهادكم جهادا لتبديد شملكم وخراب دياركم » .

بقى المهدى ثلاثة أيام فى إنتظار إستجابة الأهالى لتلك الرسالة ، ثم أعلن بعدها قراره بمحاصرة المدينة « بأمر من سيد الوجود » حتى يستسلم أهلها أو يهلكوا بداخلها جوعا . وهو إنما يسير بهذا وفق الخطة التى طبقها بنجاح فى مواقع متفرقة من أنحاء كردفان وربما كان ينوى تنفيذها فى الابيض . ولكن مقتل مبعوثيه كان داعية للإنتقام السريع . فقرر أن يستولى على المدينة فى هجوم مباشر . أما القول بانه حاصر الابيض بناء على نصيحة الياس

---

(١) المهدى إلى قاطبة العلماء والتجار والعمد والفقراء والمساكين ٢٦ شوال ١٢٩٩ (١٠ سبتمبر ١٨٨٢) انذارات ب ص ٣٨ - ٤٤ .

باشا أم برير وبعض أهل الابيض ففيه شيء من المبالغة (١) فهو ينفذ خطا عسكريا غير مستحدث هنا ولا يخرج عن نطاق ما درج عليه سابقا .

ولقد قام ٤٠٫٠٠٠ رجلا تقريبا بينهم ٥ ألف من الفرسان بالقاء الحصار بعد ذلك مباشرة – أى قبل نهاية شوال ١٢٩٩ ، (سبتمبر ١٨٨٢) . وطبق المهدى خطة خلق معسكرات حول المدينة تماما كما فعل بالنسبة للخرطوم فيما بعد .

قاد المنا اسماعيل حوالى ١٠٫٠٠٠ محاربا ، وعسكر من جهة الشمالى الغربى ، وامتد خط القوات جنوبا حتى بقى المهدى فى نهايته من الجنوب الغربى (٢) ورغم أن رقابة دقيقة قد فرضت على مداخل المدينة حتى لا تتسرب اليها المواد الغذائية . إلا أن المحاصرين تمكنوا فى بادىء الأمر من سلب بعض الماشية من أصحابها ، أثناء مرورهم بأطراف المدينة . وقد فطن الأنصار إلى هذا فوجهوا الأعراب بإتخاذ طريق يمر فى وسط معسكراتهم ويجنبهم بالتالى قناصة الحامية .

ويبدو أن بعض الأنصار قد حاولوا إدخال المواد الغذائية سرا للمدينة بهدف بيعها بأسعار مرتفعة ، فأصدر المهدى منشورا حذر فيه من إنزال عقوبة قصوى على كل من تثبت عليه التهمة .

وقد نفذ بالفعل حكما بقطع أيدى بعض الاعراب لأنهم تجاهلوا هذا المنشور (٣) .

لم تكن قوات المهدى ترابط خارج الخندق مغلولة الأيدى بل كانت تسعى لاستنزاف قوة الحامية البشرية بالمناوشات والاشتباكات الصغيرة ، وذلك هو الأسلوب نفسه الذى اتبع من بعد فى حصار الخرطوم . وقد تمكن الأنصار عند حصار الابيض من احتلال المنازل التى أخلاها أصحابها

---

(١) Cuzzi, p. 34.

(٢) Ohrawlder, p. 39.

(٣) اسماعيل بن عبد القادر ، ص ٢١٥ .

وصاروا يطلقون قذائفهم فى عمق دائرة الاستحكامات حتى أن قذيفة منها أصابت أحد القومندانات أمام باب دار المديرية نفسها .

وكان لابد أن يتقلص مخزون الحكومة من المؤن ، فرأى محمد باشا سعيد وضع خطة تساعد على الأقل فى تأجيل حدوث الأزمة، ويلاحظ أن غوردون قد نفذ ذات الاجراء عندما واجهته المشكلة ذاتها فى الخرطوم فيما بعد . جمع محمد باشا كل الذرة من التجار واشتراها بالسعر الجارى ، على أن يتم الدفع بعد رفع الحصار (١) . وكان من أبرز ردود الفعل التى أحدثها الحصار فى المدينة هو ارتفاع أسعار الذرة بشكل غير مألوف « الربع من بعد ما كان بعشرة ريال صار بثلاثين ريالا ، وثانى يصبح بخمسين ريالا ، وعلى هذا الحال فى الشهر الخامس حصل مائتين ريالا ، وفى السادس مائتين وخمسين لغاية ما بلغ ثلثمائة وخمسة وعشرون ريالا » (٢) . ثم تعذر الحصول على الذرة حتى بهذا السعر المرتفع ، فلم يعد أمام السكان سوى « الهجليج والشجر وقش الرجلة الناشفة والصمغ وأولاد القرض » ولم يصمد الكثيرون إزاء هذا الحال فبدأوا يتسللون خارج الخندق ليلا وكان بعضهم يقوم برشوة الحراس حتى يغضوا الطرف عنهم (٣) .

نجح الأنصار فى عزل المدينة كلية عن العالم الخارجى ، وإن لم يكن فى الإمكان إرسال أية مكاتبات من الأبيض وإليها . أما القوة التى أرسلت من الخرطوم قد إضطر قائدها إلى التسليم ، فلم تكن ثمة وسيلة للوصول إلى هدفه ، إذ أن مقاومة ذلك الجيش كانت بمثابة الهلاك المحتم .

ولا بد أن تكون حالة المدينة قد تركت بصماتها على أجساد أولئك الذين درجوا على التسلل ليلا . ولا بد أن يكون بعضهم قد نقل الصورة بحذافيرها إلى المهدى ، فما كان منه إلا أن مارس مزيدا من الضغط فى مجال

---

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٥٧ .

(٢) يوسف ميخائيل ، ص ٥٦ .

(٣) اسماعيل بن عبد القادر ص ٢١٦ .

الرقابة والنشاط العسكرى . حتى تم له ما توقعه وخطط له طوال أربعة أشهر.

ولقد جاء استيلاء المهدى على الابيض ليؤمن سيطرته التامة على السودان الغربى ، فقد إنهارت مواقع الحكومة فى دارفور تباعا ، وأصبحت سلطة الحكم التركى فى بحر الغزال كذلك آيلة للزوال .

ولقد احتل سقوط الخرطوم مكانا مماثلا ، فبعده أكتملت سيطرة المهدى على السودان الشمالى ، وكان لا بد أن تنهار المقاومة الحكومية فى كل من كسلا والنيل الأزرق .

التمهيد للاستيلاء على الخرطوم :

جاءت معركة شيكان لتضاعف من ثقة المهدى فى نفسه ، فها هو « بطل الإنجليز وفارسهم الذى كان يخشاه بعض مـــن كان ليس له إيمان هاهو مطروح فى الميدان ... » . فبدأ يخطط من توه للسيطرة على الخرطوم كما نقل أحد الرواة قولته « الحمد لله تعالى ان كافة الترك الذين بكردفان والذين فى الغرب سلموا لنا — إننا قتلنا مديرية كردفان وجهاتها ، وجردت هكس العظيمة وليس فاضل لنا الا غوردون وفتح الخرطوم .. (١) ».

شرع المهدى فى تمهيد طريقه نحو العاصمة باجراء اتصالات مع أهالى المنطقة ، فجاءت الرسالة المشار اليها بتاريخ ١٠ محرم ١٣٠١هـ . وكانت هذه

---

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٦٤-٦٦

هاجم المهدى « الترك » فى منشوراته منذ بداية الدعوة بوصفهم الحكام الذين شوهوا وجه الأسلام لانشغالهم بملذات الدنيا واهوائها. ولا يبدو واضحا إذا كانت التسمية تشمل المصريين أيضا. فقد درج أهل السودان على مناداة كل من هو اجنبى « بالتركى » حتى أنهم سموا الفترة التى سيطر خلالها الانجليز على السودان بالتركية الحاضرة ، قياسا على التركية السابقة للمهدية . وبعد مجىء هكس باشا وغوردون أيقن المهدى أن الانجليز وراء محاولات قمعه فبدأت تظهر — خاصة فى رسائل قادته — محاولات لاستمالة الاتراك المسلمين لصفهم ضد النصارى من الإنجليز الذين استولوا فعليا على مصر نفسها.

(ملاحق حـ — ط — ى — ز).

منشورا عاما ، فعززها باجراء اتصالات شخصية مع رجال القبائل وعلماء الدين . فكتب لمميز علماء السودان محمد الأمين الضرير خطابا رغم أنه يحمل تاريخا لا حقا لذلك المنشور ، إلا أنه لم يكن أول مكتوب يبعث به المهدى إليه . إذ جاء فيه قوله « وإنى قد عددت وكررت لك الإنذارات والمواعظ التى تشهد حقيقتك بها ، وخاطبتك سابقا قبل كل الناس وخصصتك بالحقيقة التى لا بعدها وندبتك للاجابة لداعى الله فلم تجب دعوتى ، ونظرت إلى الثقل والعلايق المعوقة القاطعة عن الله لحسن ظنى فيك ومحبتى لك فى الله وإرادتى لك البر والخير الدايم والنعيم السرمدى والملك الكبير عندالله لم أيأس عن مخاطبتك ولم أتوقف عن دعوتك .. » (١) ويلاحظ هنا أن المهدى لم يطلب من محمد الأمين الجهر بعداوة الحكومة واعلان نفسه عاملا له هناك ، كما هى عادته ، بل يطلب منه أن يهاجر اليه « فلم نرض عليك الا بالهجرة فقط دون أمر آخر » .

ولعله قد فعل هذا لتشككه فى إمكانية فتح جبهة له فى عقر دار الحكومة . ولم يكن أهل الخرطوم قد كشفوا عن بادرة تأييد له بعد ، ولعل هذا يعود إلى عدة عوامل . فلا بد أن بعض الاهالى قد ابتهجوا عند سماع أنباء إنتصارات المهدى فى الغرب ، إلا أنهم لم يجرأوا على أعلان هذا خوفا من بطش الحكومة وهى على قاب قوسين منهم . ولقد كان سكان الخرطوم — بحكم ظروفهم — أقل أهل السودان حماسة لتنصيب المهدى حاكما على البلاد . فقد نعم هؤلاء بمجىء الحكومة التركية ، فتوفرت لهم بعض سبل الحياة الرغدة ، ووجد بعضهم الفرصة لكى يعمل فى دواوين الحكومة أو بين قواتها المسلحة . وهم فى ذات الوقت لم يتعرضوا لبطش جامعى الضرائب الذين كانوا يتصيدون ضحاياهم فى الغالب الاعم بعيدا عن أعين السلطة المركزية . فلم تكن الخرطوم تعكس صورة فساد الحكم التركى كما تعكسها الأقاليم . ومن هنا جاءت إستجابتهم لدعوة الثورة فاترة مترددة ، ولم يكن

(١) المهدى إلى محمد الأمين — ربيع آخر ١٣٠١ ، انذارات ص ب ٩٤ — ٨ .

بينهم من يرى ضرورة إحداث تغيير سياسى فى البلاد . ولهذا فقد أراد المهدى أن يجمع أنصاره حول معسكره بعيدا عن مقر الحكومة قبل أن يقرر مهاجمتها .

ولقد اتصل المهدى ببعض الأعيان القاطنين فى القرى المنتشرة حول المدينة ليبادروا فى إثارة القلاقل فى وجه الحكومة قبل وصوله اليهم . فكتب عدة خطابات للشيخ العبيد ود بدر ، فى أم ضبان ، وأبنائه وبعض جيرانه (١) .

ويلاحظ أن أهالى تلك القرى قد تحفظوا فى إبداء رأيهم فى الأحداث الجارية حتى أوائل ١٨٨٤ . ربما كان مرد هذا المصلحة المشتركة التى تربطهم بالخرطوم وسكانها . فقد عرفت مناطق الجريف والحلفاية بازدهار منتجاتها الزراعية والتى كانت العاصمة مجالا رئيسيا لتسويقها . فقيام أهلها بالدعوة ضد الحكم التركى تثير من الاضطرابات ما يتعذر معه كسب رزقهم الأساسى . فظلوا على الحياد حتى كشفت لهم الأحداث أن حكومة الخرطوم قد أصبحت مهددة بالزوال .

لم يشر المهدى – صراحة – فى أولى خطاباته ، للشيخ العبيد إلى ضرورة العمل المباشر ضد الخرطوم بل يقول «.... وبوصول جوابى هذا إليك أجمع همك فى الله وأرسل لجميع أتباعك وأحبابك وأهلك وعشيرتك فى الله وجاهر فى معاداة الكفرة ، وأقطع السكك ، وبارز بالعداوة ظاهرا وباطنا وبالقتل والاسر والرباط والحصار ، ولا تتوقف أبدا لأمر ما إن كنت ممتثلا مصدقا بمهديتنا ولا تبالى حكم ما فعل محمد الطيب ود البصير وإن خشيت فأنضم اليه وهاجر من محلك الذى أنت فيه وإتحد معه كيد واحدة » (٢) .

---

(١) الشيخ العبيد ود بدر (عرف أيضا بود ريا) (١٨١٠ – ٨٤) ينتمى إلى الابراهيماب أحد بطون قبيلة المسلمية. من مشايخ الطريقة القادرية فرع تاج الدين البهارى. اشتهر بالتقوى والصلاح ، فتقاطر عليه الناس افواجا من مختلف ارجاء البلاد ، وقد اصبحت خلوته التى أسسها فى قرية أم ضبان أكبر مركز لتحفيظ القرآن فى منطقة الخرطوم.

(٢) المهدى إلى العبيد بدر –قبل ٤ جمادى أول ١٣٠١ (١٣ مارس ١٨٨٤) انذارات ب ص١٣٧–٩ .

وعندما تأكد للمهدى أن نفوذه فى المنطقة قد توطد واشتد عوده كتب مرة أخـــرى للشيخ العبيد مشيرا له بوجوب القاء الحصـــار على الخرطوم « .. فإذا بلغك جوابى هذا فأما أن تهاجر أنت ومن معك من الأصحاب والمحبين وما يطلب ما عند رب العالمين من غير نظر إلى علاقة ، وأما أن تحاصروا الخرطوم وتجاهدوا من اغتر بزينة الدنيا ومتاعها عن الصدق مع الحى القيوم حتى نأتيكم ولا حنا لنا عنكم الا بهذين الأمرين فإذا فعلتم رضينا عنكم » (١)

ولم يمض وقت طويل حتى أثمرت هذه الخطابات ، إلا أن الشيخ العبيد إختار أن ينفذ الأمر الثانى ، فأعلن نفسه داعية للمهدى فى نهاية فبراير ١٨٨٤.

كتب المهدى أيضا لزعماء الشكرية ، ولعله فطن إلى نفس الحقيقة التى أخذها غوردون فى الإعتبار عندما عين عوض الكريم أبى سن رئيسا لمجلس الأعيان فى الخرطوم ، إذ كانت قبيلة الشكرية أكبر قبيلة تعيش فى منطقة الصراع ، ولا بد أن يؤثر إنحيازها لأحد الفريقين تأثيرا مباشرا وجذريا فى ميزان القوى .

دعا المهدى الشكرية إلى الأخذ بمفاهيمه التى طالما نادى بها ، وهى فى الأساس ، نبذ مباهج الدنيا من مال وديار ، والإسراع للانضمام اليه حيث كان بالغرب . ويبدو أنهم قد ردوا على رسالته معلنين تأييدهم له دون أن ينفذ أحد منهم أمر الهجرة (٢) . وازاء تباطئهم هذا كتب لهم المهدى رسالة أخرى يعفيهم فيها من مهمة الهجرة ، على أن يرفعوا رأية الدعوة فى منطقتهم ، فجاء فى تلك الرسالة قوله « ... شدوا أزركم على إقامة الدين والجهاد على أعداء الله والكافرين والخروج عن طاعتهم وتشتيت شملهم وتفريق جماعتهم وبارزوهم بالعصيان لتنالوا كمال الرضوان وقاتلوهـــم فإنهم مخذولون

---

(١) المهدى إلى العبيد بدر ، انذارات ب ١٢٩ — ٣٢.

(٢) المهدى إلى عوض الكريم أحمد أبى سن ، انذارات ب ص ٨٦ — ٩ .
ذكرت بعض المصادر أن الشكرية كتبوا تلك الرسالة فقط ليأمنوا شر البطاحين الذين درجوا على سلب ماشيتهم.

وجاهدوهم فأنكم عليهم منصورون وشمروا فى ذلك عن ساعد الجد والإجتهاد » .

ويبدو أن الشكرية قد انقسموا حول هذا الأمر ، فأعلن جزء منهم تأييده للمهدى ، واشترك بقيادة عبد الله عوض الكريم أبى سن فى حصار فداسى فى أول يناير ١٨٨٤ (١) .

بالإضافة إلى مجهودات المهدى هذه كان هناك نشاط عامله محمد الطيب ود البصير فى المنطقة .

فقد نجح ود البصير فى تجنيد قبائل الدباسين والخوالدة للعمل على نصرة المهدى(٢) ثم استولى على قرية الحلاويين ، وتقدم نحو المسلميه (٣).

رد الفعل لمخطط غوردون :

يبدو أن هزيمة صالح الملك لود البصير فى واقعة ود مدنى فى ١٧ يناير ١٨٨٤ لم تغر الأهالى بالانفضاض من حول الأنصار . وقد حاول صالح الملك أن يحمى طريق الخرطوم ــ سنار ، فتقدم إلى الجزيرة فداسى وحصن نفسه فيها . وأرسل فى طلب المعونة العسكرية من سنار فأتته الباخرة « محمد على » محملة ببعض الجند والذخيرة .

ولكن ود البصير سارع بوضع حصار على الجزيرة من الشمال ودعا عبد الله عوض الكريم أبى سن للنزول من جهة الجنوب .

---

(١) بابكر بدرى ، ص ٢٨ .

(٢) ابراهيم فوزى ، ص ٢١٥ .

محمد الطيب ود البصير ، من قبيلة الحلاويين يمت للمهدى بصلة النسب . اشتهر والده في المنطقة ، وعرف بحسن السيرة. كان محمد الطيب ود البصير من أوائل الشخصيات التى اسر لها المهدى بدعوته في ذى القعدة ١٢٩٧ وفي شعبان ١٢٩٨ ، أوفده لأخذ البيعة من أهالى الجزيرة. ثم شارك في حصار الخرطوم فيما بعد ، وتولى مهمة امداد الأنصار بالغذاء. بعد سقوط المدينة عمل في الحدود الحبشية إلى أن ألقت القوات الانجليزية القبض عليه في تلك المنطقة ، وعندما افرج عنه عاد للجزيرة وتوفى بها ١٩٠٨.

(٣) *The Times*, 12th January 1884.

وقد تمكن هؤلاء من عزل الخرطوم عن المنطقة الجنوبية بقطع أسلاك التلغراف ونزع أعمدته نهائيا ، وتأكد فى ذلك الحين إنضمام كل شيوخ القبائل فى القرى ما بين الخرطوم وسنار إلى المهدى . فلم يكن بالامكان ارسال أى فرق من الجنود أو المكاتبات جنوب العاصمة ، وقد أجبرت بعض البواخر التى كانت فى طريقها إلى سنار على العودة بعد مغادرتها المدينة بوقت قصير (١) . كان بقاء الطريق إلى سنار تحت سيطرة قبائل تدين بالولاء للحكومة أمرا حيويا للخرطوم ، إذ أنها كانت تعتمد على مزارع تلك المنطقة فى الحصول على غذائها .

ولقد وضع المهدى خطته منذ أوائل عام ١٨٨٤ بحيث تقوم معسكرات للأنصار فى أنحاء متفرقة من المنطقة المتاخمة للمدينة ، وتبدأ نشاطها بالدخول فى معارك ضيقة النطاق ضد رجال الحامية . فشن أتباع العبيد ود بدر بقيادة إبنه أبراهيم أول هجوم على عساكر الشايقيه المرابطين فى منطقة الحلفاية فى منتصف مارس ١٨٨٤ . وبعد إنزال الهزيمة بهم تمكنوا من أسر مائة وخمسين عسكريا وغنموا بعض الأسلحة والذخيرة (٢) وقد توالت بعد ذلك هجمات تلك المجموعات على الخرطوم .

كتب المهدى إلى دفع الله ، حوار الشيخ العبيد ، الذى كان يقيم بقرية القبة شمال العاصمة ليبدأ فى الهجوم من ذلك الموقع ، قائلا : « .. بمجرد وصول جـوابنا اليكم صحبة رافعه محمد الناير ، تحزبوا فى الله أحـزابا أحزابا وجهزوا مالكم واستعدوا للقتال والجهاد للكفرة بكل ما أمكنكم ، وانضموا إلى العبيد بـدر بمجرد سماعكم حلولنا بالبحر الأبيض تقوموا بكامل رجالكم خفافا وثقالا وقابلوا الخرطوم بجهتكم التى يقال لها القبة وحاصروا اعداء الله وضيقوا عليهم فإن الله يخربهم وينصركم عليهم » (٣)

---

(١) *The Times*, 15th January 1884.

(٢) المهدى إلى محمد خالد ٤ جمادى أول ١٣٠١ (٣ مارس ١٨٨٤) زقل ٣.

(٣) المهدى إلى احبابه في الله خصوصا دفع الله تلميذ العبيد ود بدر انذارات ب ص ١٣٩-٤٠.

ورغم أن هذه الرسالة لا تحمل تاريخا إلا أن بعض المصادر قد ذكرت أن قافلة غوردون قد تعرضت للمناوشة من قبل الأنصار فى حوالى منتصف فبراير ١٨٨٤ . وربما كان هؤلاء هم أتباع دفع الله الذين إستنفرهم المهدى .

ونجح الأنصار فى كسب تأييد الشيخ عبد القادر أبراهيم ، الذى عينه غوردون عضوا فى مجلس الأعيان المنوط به الإشراف على إدارة المدينة .(١) كان الشيخ عبد القادر قد صاحب ستيورت فى إحدى رحلاته التفقدية على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم ، وقد اعترف أن شعور الأهالى قد صار عدائيا لدرجة أن أية محاولة منهم للهبوط كانت ستقابل بلاشك باطلاق النار عليهم ، ولعل الشيخ عبد القادر قد اقتنع بعد هذه الجولة أن معركة الحكومة خاسرة بلا ريب ، وأن نفوذ الأنصار فى تصاعد ، فجمع حوالى ثلاثة الآف من أتباعه واستقر فى قرية الكلاكله .

وقد أثمرت خطابات المهدى للشيخ مصطفى الأمين أم حقين بجزيرة إسلانج فى إقناعه بالإنضمام اليه ، فعسكر فى خورشمبات مع حوالى ألفى محارب ، كما استطاع الشيخ أحمد أبو ضفيرة أن يجمع بعض قبائل الجموعية والفتيحاب وعسكر فى ديم أبى سعد جنوب أمدرمان .

وأما من الجهة الشرقية فقد استنفر الشيخ المضوى عبد الرحمن المحسى أتباعه ، فاجتمع له حوالى عشرة آلاف ، أوكل أمر قيادتها لأحد أبناء الشيخ العبيد ، وقاد أبناء المحسى منهم أحمد الفريع ، والشكرية ، القدوراب ، أحمد ود عماره ، والمغاربه ، محمد عبد السلام ، والبطاحين ، طه عبد الباقى ، والحسانية سليمان ود كاسر .

ويبدو أن عمال المهدى قد حاولوا اتباع منهجه فى مخاطبة المعارضين للدعوة ، فكتب الشيخ المضوى إلى غوردون يقول « ... بلغنى أنك تزعم

---

(١) عبد القادر ابراهيم (- ١٨٩٣) من احفاد حمد ود أم مريوم. شارك في حصار الخرطوم وبقي حتى سقوطها. أوكلت اليه بعد ذلك قيادة جيش الأنصار في شكا جنوب دارفور وقتل في اشتباك مع قبائل الدينكا.

أن معظم أهل السودان مجبورون على اتباع محمد أحمد المهدى ، وليس لهم الرغبة فيه باطنا وأنك تحب خلاصهم منه ، فأعلم أن جميع أهل السودان خاصتهم وعامتهم قد اتبعوا محمد أحمد قلبا وقالبا ، ودليل ذلك بذلهم أرواحهم بين يديه فى الحروب ، وإنى أنصح لك أن تفعل أحد أمرين ، إما أن تسلم للمهدى فتسلم بمن معك من أهل الخرطوم فيؤتك الله أجرك مرتين ، أو أن ترحل إلى بلادك فتنجو من هذه المهالك فإنه لا ضير لك فى البقاء هنا على هذه الحال ، لأنك إن بقيت فلا بد من هلاكك أنت وجميع رجالك والسلام » (١)

ولم يقتصر نشاط الأنصار على منطقة الخرطوم وحدها ، بل اتسع نطاقه وامتد شمالا فتمكنوا من قطع الإتصال التلغرافى ببربر ، ولم يكن بالامكان المخابرة إلا عن طريق الرسل . وقد أرسل كوزى ، الذى عينه غوردون حاكما على بربر ، رسالة إلى بيرنج فحواها أن الإتصال التلغرافى بين مدينته والخرطوم قد قطع نهائيا ، وبعد أيام قلائل كتب حسين باشـا خليفة إلى نوبار باشا يخطره بعزل الخرطوم ، وأنها قد أصبحت فى حالة حصار بواسطة الأنصار الذين يتزايد عددهم حولها بانتظام ، هكذا كان الموقف فى مارس ١٨٨٤ — أى بعد حوالى شهر من وصول غوردون .

كانت المنطقة الجنوبية تحت قبضة الأنصار ، ومن الشمال قامت معسكراتهم من شلال السبلوقة حتى مشارف الخرطوم ، واتضح جليا أن أى محاولات للاتصال بمصر تواجهها صعوبات عملية ، وقد كان بيرنج على علم بهذا ، فنقل إلى جرانفيل تخوفه من خطورة عملية الانسحاب . ولم يكن لسياسة غوردون الاصلاحية أى أثر فى كسب تأييد الأهالى القاطنين حول المدينة ، فى حين وجد المهدى بينهم تعاطفا واسع النطاق لم تفلح سياسة المهادنة فى زعزعته ، كما أن التهديد بإستخدام قوات أجنبية لم يأت أكله ، فقد أيقن الأهالى أن المهدى يملك المقدرة للانتصار حتى على مثل تلك الجيوش .

---

(١) نعوم شقير ، ص ٧٧٧ .

بل أن سياسة غوردون لم تجد إستجابة حتى بين الأهالى داخل أسوار المدينة، حيث كان المهدى مواظبا على اتصاله بهم، فخاطب كافة أهالى الخرطوم بقوله « .... نعرفكم أن الله تعالى غنى عن العباد يهدى من يشاء إلى طريق الرشاد، ويضل من يشاء، ومن يهد الله فهو المهتدى، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وقد طالما تكررت منا النصائح وأردنا نجاة عبد الله وسلوكهم لطريق الله، فأناب إلى الله من أراد الله سعادته، وخالف من خذله الله فأصمه وأعمى بصره، فلا أدرى ما الداعى لعدم الانقياد .. وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده، وحذرتكم من وعيده، فالى متى الغفلة والتسويف وإلى متى مبارزة مولاكم بالعداوة، لم يأت لكم أن تميل قلوبكم إلى ما ينفعكم فى آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر » (١).

كما أرسل مكتوبا آخر إلى أهالى حلة « سلامة الباشا » يستحثهم فيه إلى القيام لنصرة دين الحق (٢) ومن الجدير بالملاحظة أنه خاطب أهالى هذا الحى بشكل خاص دون سائر الأحياء، لأن «سلامة الباشا» كان موطن فقراء السكان الذين لا تربطهم مصلحة شخصية من مال أو سلطة بالحكومة، ويقع على عاتقهم العبء الضرائبى الذى كانت تفرضه الإدارة التركية. وهم لهذا يملكون الإستعداد الطبيعى للمبادرة لتأييد المهدى. ومن هنا جاء ردهم لنداء المهدى إيجابيا، ولعل أحمد العوام كان يعنيهم حين كتب « لله در أهل السودان فإنه لم يتيسر لغوردون باشا ومن معه، مع ما أجروه من الحيل السياسية والمكايدة التركية، كحرق دفاتر متأخرات الأموال الأميرية عن السنين الماضية وتنزيل جميع الضرائب والعشور والعوايد إلى نصف قيمتها الأصلية، وحل معاهدة الرقيق، وبذل العطاء والإحسان إلى جميع الفقراء والمساكين أن يحول

---

(١) المهدى إلى كافة اهالى الخرطوم، انذارات ب ص ٢٥٥ – ٦.

(٢) المهدى إلى اهالى حلة سلامة الباشا، خصوصا حاج حضره ومحمد عمر واخوانهم، ١ جمادى ثان ١٣٠١ (٢٤ مارس ١٨٨٤) فيوضات ٩٧/٣، موقع هذا الحى هو فى مكان شمبات الحالية.

وجه واحد من الأهالى عن قبلته الوطنية، أو يقعده عن مساعدة جيش المهدية»(١) ولم تفلح سياسة الإرهاب فى إثارة الفزع وسط الأهالى، ولعلها قد أصبحت حافزا لهم لمساندة المهدى ضد القوات الدخيلة التى سوف ترسل لاخضاع بلادهم «فإزدادت بذلك حميتهم الدينية والتهبت نيران محبتهم الوطنية، فأغلقوا جميع المنافذ والطرق» وقد كانت موجة الانعطاف نحو المهدى بين سكان المدينة فى تصاعد، حتى أعرب غوردون عن خشيته من مؤامرة داخل الخرطوم أكثر من تخوفه من العدو المرابط خارج الأسوار.

وقد لوحظ انتشار هذه الموجة حتى بين الطبقة التى كان غوردون يعتمد عليها فى تنفيذ سياسته، فكان بعض معاونيه من الاداريين، والضباط والعلماء، يتظاهرون له بالولاء ويخططون لتقويض حكمه من وراء ظهره.

كان بعض الأهالى يبعثون برسائل الولاء والتعضيد للمهدى بين الفينة والاخرى، وقد اكتشف غوردون فيما بعد مكاتبة مثل هذه موقعة بخمسة عشر إسما، بينها أسماء بعض أولئك الذين عينهم حكاما على المدينة.

كما كان منهم أحمد بك على جلاب، مدير الخرطوم، والفضل أفندى أبراهيم باشكاتب محكمة الإستئناف، ومحمد سرور كاتب الظبطيه، وأبوبكر الجاركوك، وأحمد بك دفع الله، وإدريس النور، أعضاء محكمة الإستئناف. ومن التجار ظهرت أسماء أبراهيم شاكر، ومحمد عبد الرحمن البشير وعثمان بك مكوار.

ووقع من الأعيان الحاج ناصر أبو حسوس، والخليفة ود أرباب، ثم زمزمى بك على جلاب، عضو المحكمة الأهلية، ومحمد الأمين الضرير شيخ الإسلام. وقد بعث الموقعون مع الرسالة مبلغا من المال مع وعد بالالمام بالأنصار حينما تحين اللحظة المناسبة.

---

(١) احمد العوام، ص ٥٤.

لم تصادف سياسة غوردون إذن هوى فى نفوس الأهالى ، وكانوا « يتسللون ليلا للخروج بكل حيلة ، حتى أن بعضهم يرشى الخفراء الذين حول الخندق حتى يتغافلوا عنهم » .

الفصل الرابـع

مشاكل الحصار

أيقن غوردون بعد مضى شهر تقريبا على وصوله أن عليه أن يستعد لمعركة عسكرية إذا أراد بقاء الخرطوم تحت سيطرة حكومته ، فقد اتضح أن المخطط الاصلاحى لا يجد من التأييد ما يبشر بنجاحه ، إذ بدأت جموع الأنصار تزحف نحو الخرطوم فى محاولة لفرض حصار حولها . وكان لابد أن تنجم من جراء هذا عدة مشاكل للفريقين المتنازعين ، يعتبر التصدى لها ومعالجتها عاملا هاما فى كسب المعركة . ولعل نقطة الضعف الأساسية فى موقف غوردون والتى لم يملك لها دفعا هى أنه كان فى موقف المحاصر . فلم تقتصر تلك المشاكل – التى ظهر بعضها بعد مجيئه مباشرة – على المسائل الإدارية والعسكرية الوارد ذكرها فى غير هذا المكان ، بل تجاوزتها لتشمل قضايا أخرى ، منها الاتصال ، والمال ، والغذاء . وكان لا بد أن تتطور كل هذه القضايا مع تقدم الحصار حتى أصبحت تهدد المدينة تهديدا فعليا ومباشرا .

أما الفريق الآخر فقد كان يتمتع بوضع مريح إلى حد كبير ، الأمر الذى قلل من حدة المشاكل التى كان عليه أن يواجهها .

وقد ساعده هذا بلا شك على الاحتفاظ بثقة جماهيره ودفعها إلى تصعيد عملياتها حتى تمكنت فى النهاية من فرض الحل الذى تبغيه .

عزل الخرطوم :

رغم أن سكان السودان الشمالى والشرقى لم يلعبوا دورا مباشرا فى حصار الخرطوم ، إلا أنهم تمكنوا حين رفعوا راية المهدية فى مناطقهم ، من عزل المدينة عزلا يكاد يكون شاملا عن مصر ، وبالتالى عن العالم ، فقد كانت مصر هى النافذة التى يطل منها السودان على الدنيا ، والباب الذى يأخذه اليها فى تلك الأيام . وأثبت اسلوب المهدى فى إستنفار الزعماء المحليين

لتبنى دعوته فى مناطقهم فعاليته وإيجابيته فى هذا المجال . ففى الوقت الذى كان أنصاره يعملون للسيطرة على منطقة جنوبى الخرطوم ، كان عماله فى شمال وشرق السودان يعملون بنفس القدر لقطع وسائل الإتصال بين الخرطوم والخارج . فجاء عزل الخرطوم نتيجة مباشرة للنشاط الذى قام به محمد الخير عبدالله خوجلى ، وعثمان بن أبى بكر دقنة . فقد كانت الطرق البرية والنهرية المؤدية إلى مصر بالإضافة إلى خط التلغراف تمر عبر أراضيهما.

تمكن غوردون خلال شهر فبراير ومارس من استخـــدام الخط التلغرافى الذى يربط الخرطوم بالقاهرة عن طريق وادى حلفا ، دنقلا العرضى ، مروى ، بربر ، شندى ويمتد عبر مسافة قدرت بـ ٧٨٢ ميلا تقريبا (١) وكان بقاء هذا الخط تحت سيطرة الحكومة أمرا حيويا بالنسبة لمهمة غوردون ، فقد جاء للسودان موفدا من قبل حكومتى مصر وبريطانيا . فأصبح لزاما عليه إبلاغ الحكومتين بتطور الأحداث فى حينها وبصورة تفصيلية . هذا هو عين ما درج عليه طوال الفترة التى ظل فيها خط التلغراف صالحا للاستعمال . وقد كان بيرنج ، من ناحية أخرى ، منتظما فى الرد على تساؤلات غوردون وآرائه بعد عرضها على الحكومتين المصرية والبريطانية إذن فقد كان الاتصال المنتظم السريع بالقاهرة ضروريا حتى يتمكن غوردون من تنفيذ مهامه التى كانت تتحكم فيها ظروف خارجية متشعبة . وبمرور الزمن تضاعفت الحاجة لهذا الاتصال ، فقد أصبحت المدينة فى حالة حصار ، وكان من الضرورى أن يطلع أولئك الذين بعثوا به على دقائق الموقف حتى يتخذوا الإجراءات التى تتناسب وذلك الظرف .

ظل الاتصال التلغرافى بالقاهرة ممكنا إلى أن بدأت ثورة القبائل فى الشمال فى مطلع عام ١٨٨٤ . ربما يعود احتفاظ تلك المنطقة بهدوئها حتى ذلك التاريخ إلى بعدها عن قلب الثورة فى أقاصى الغرب ، كما أن علائقها التجارية مع مصر ، والحكومة القائمة آنذاك فى الخرطوم جعلت أهلها يترددون

(١) Leverson, "Insurrection of the False Prophet".

فى اتخاذ موقف ايجابى مبكر من المهدى . إلا أن هذا الهدوء لم يقدر له أن يدوم طويلا ، إذ سرعان ما لاحت بوادر الثورة فى الافق . ويمكن تأريخ بداية هذه المرحلة بعودة أحمد حمزه السعدابى ، أحد مشايخ الجعليين ، وهو من بيت الملك نمر ، من عند المهدى فى أول عام ١٨٨٤. وقد توافق وصول غوردون إلى بربر مع ذلك الحدث ، إلا أن هذا لم يقف عائقا فى سبيل انضمام رجال القبائل إلى السعدابى ، بل على العكس ، ساعد انتشار محتويات فرمان الإخلاء فى دفع عجلة الأنصار أميالا إلى الأمام . فقد دفع كثير من المترددين ومؤيدى الحكومة إلى تحديد موقفهم ، إذ تأكد لهم أن لا مناص من سيطرة المهدى على البلاد .

ومن ثم بدأت معسكرات الأنصار فى الانتشار شمالا وجنوبا من بربر منذ أواخر مارس ١٨٨٤ ، فشمل نشاطهم كل المنطقة الواقعة ما بين شندى وبربر ، حتى أنهم فى حوالى ٢٥ منه تمكنوا من قطـــع الإتصال التلغـــرافى بين المدينتين ، فى حـــين أن الخـــط التلغرافى بين الخرطوم وشندى كان معطلا منذ ١٢ مارس ، بعد ثورة القبائل شمالى العاصمة ، ورغم أن الاتصال بين بربر ومصر ظل مفتوحا بعض الوقت إلا أنه كان مهددا بالانقطاع فى أى لحظة بعد ١٨ أبريل . وكانت سيطرة الأنصار شبه شاملة على كل المنطقة الواقعة شمال بربر ، حتى أن بعض المسافرين إلى القاهرة قد وقعوا فى قبضتهم بعد مسيرة يوم واحد منها .

إذن فقد واجه غوردون مشكلة الاتصال بالقاهرة ، وهو لم يكمل شهره الأول فى الخرطوم بعد . ولم تكن هناك أية بادرة تشير إلى أن الوضع قد يتطور فى مصلحته ، بل على النقيض من هذا ؛ بدأت جموع الأنصار تزحف نحو بربر لتسيطر على تلك المدينة ذات الأهمية البالغة بالنسبة للخرطوم .

ظل محمد الخير عبد الله خوجلى فى بربر يوازن بين الحكومة من جهة وتلميذه السابق من جهة أخرى لفترة طويلة رغم أن المهدى كان قد

أسر له بدعوته فى عدة مكاتبات شخصية . وفى فبراير ١٨٨٤ قرر حسم موقفه بالهجرة إلى المهدى حتى يقف على حقيقة الأحداث بنفسه . وقد عاد فى نهاية أبريل محملا بالإيمان القاطع بصدق دعوة المهدى وببعض الرسائل لمشايخ تلك الجهات ، وقد فوضه المهدى لأخذ البيعة منهم . فانضم اليه أحمد حمزة السعدابى باتباعه فى المتمة ، وعند وصوله إلى الدامر بايعه أحمد المجذوب ، فاتخذ بربر وجهته بصحبة جيش قوامه ٤٠ ألفا من الجعليين ، والرباطاب ، والبشارين ، من المشاة والفرسان ، وقد تسلح بعضهم بالأسلحة النارية . وعسكر محمد الخير حول المدينة ، ومن هناك بعث بجملة رسائل إلى رجال الحامية والأعيان يطلب منهم التسليم دون إراقة دماء . فاستجاب له البعض ، وعبروا النيل إلى حيث تقوم معسكرات الأنصار ، وقد جاء سقوط بربر فى أيدى محمد الخير وأتباعه فى ٢٣ رجب ١٣٠١ هـ ١٩ مايو ١٨٨٤ ليضع النهاية لأى أمـــل لغوردون فى إجراء إتصالات تلغرافية بمصر .

لم يعد أمام غوردون خيار بعد ذلك سوى الإستعانة بالأشخاص المتنقلين على ظهر البواخر ، أو الدواب ، أو الوسيلتين معا ، لنقل رسائله إلى مصر . ولقد كانت هناك صعوبات عملية تجعل الإستفادة الفعلية من هذه الوسيلة أمرا متعذرا . فقد كانت الطرق التى يتحتم على الجواسيس عبورها محفوفة بالمخاطر ، فكانوا نظرا لهذا يطلبون مبالغ خيالية من المال ، وقد كان وقوع أحدهم فى أيدى الأنصار متوقعا فى أى لحظة ، ومن هنا كان لابد أن تأتى الرسالة فى شكل مقتضب اقتضابا قد يخل فى بعض الأحيان بالمعنى . ويشكل طول المسافة العقبة الرئيسية ، إذ كان الطريق الذى يربط بين مصر والسودان يمر ببربر ، ومنها شمالا أو شرقا ، من الشمال كانت هناك عدة طرق : طريق كورسكو – أبو حمد – بربر – الخرطوم – عن طريق النيل . ويبلغ طوله حوالى ٨٧٢ ميلا . طريق وادى حلفا – مروى عبر النيل – ثم طريق الصحراء إلى بربر . فالخرطوم (خط التلغراف) . ويبلغ طول هذا حوالى ٧٨٢ ميلا ، طريق وادى حـــلفا – أم بكول عبر النيل ثم عبر الصحراء إلى شندى

فالخرطوم. ويبلغ طوله حوالى ٦٥٩ ميلا ، كان على غوردون أن يبعث برسوله ليقطع أيا من هذه المئات من الأميال ويتحمل مخاطرها . ولقد كان أقصر الطرق ، ٥٧٦ ميلا ، هو طريق كورسكو ـ أبو حمد ـ بربر ـ الخرطوم يمر فى وسط منطقة يسيطر عليها الأنصار كلية ، الأمر الذى حتم على حاملى تلك الرسائل ، أما المجازفة بعبور هذه المنطقة ، أو إختيار طريق آخر أطول منه .

أما من ناحية الشرق فكان هناك إحتمالان : طريق سواكن ـ بربر ـ الخرطوم ، ويبلغ طوله ٤٤٥ ميلا تقريبا ، ثم طريق مصوع ـ كسلا ـ أبو حراز الخرطوم ـ ويبلغ طوله ٦٥٣ ميلا تقريبا . كان يمكن أن يكون الطريق الأول مثاليا لولا سقوط بربر وإندلاع نار الثورة فى السودان الشرقى . لقد ظل ذلك الجزء من البلاد هادئا حتى منتصف ١٨٨٣م . كان عثمان دقنة يتسقط أخبار المهدى على البعد ، إلى أن قرر أخيرا أن يشد الرحال اليه . فأسبغ عليه المهدى بركته وعينه أميرا على الشرق ، وحمله خطابات للاهـــالى والأعيان يدعوهم فيها للقيام لنصرته . فاستجابت له قبائل الحساناب ، والهدندوه ، والارتيقة ، وتوجهوا لحصار الحاميات المصرية فى مواقعها الثلاثة فى طوكر وسنكات وسواكن فى آن واحد .

وفى مطلع عام ١٨٨٤ تمكنت قوات عثمان دقنه من السيطرة على طريق سواكن ـ بربر ، كان لهذا الطريق أهمية خاصة بالنسبة للخرطوم ، فبالرغم من عدم وجود خط تلغراف عليه إلا أنه أقصر طريق ، سواء من الشرق أو الشمال ، يصل بين الخرطوم والعالم الخارجى ، وفقدانه بلا شك يدفع المدينة أكثر وأكثر نحو دائرة الخطر . ولقد حاولت الحكومة المصرية ـ التركية إستعادة سمعتها فى المنطقة ، الا أن نشاطها اقتصر على بعض الإجراءات الدفاعية ، ولم تفكر فى شن أى هجوم ضد الأنصار . فاشتدت قبضتهم على كل من سنكات وطوكر ، وأهم من ذلك بقى طريق سواكن ـ بربر تحت

سيطرتهم ولم يكن بامكان أى جاسوس إختراق صفوفهم ليصل برسائل ما إلى سواكن حيث ترابط القوات المصرية .

بعد مضى خمسة أشهر على الحصار وانقطاع الاتصال التلغرافى ، أيقن غوردون أن تلك القصاصات الصغيرة من الورق التى يحملها الجواسيس وإن وصلت لا تكشف أبدا عما يدور بخلده وعن الوضع على حقيقته . فأستقر رأيه على إرسال معاونه ستيورت باشا على ظهر الباخرة « العباس » حتى يتمكن بشخصه وما يأخذه معه من وثائق من إبلاغ المسئولين بالحقيقة . فغادر الخرطوم فى ٩ سبتمبر ١٨٨٤ وبصحبته قناصل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبعض التجار والموظفين من السوريين والاغريق . فزوده غوردون بمجموعة كبيرة من الخطابات إلى بيرنج والخديوى بالاضافة إلى مذكرات يومية بالأحداث وعريضة رفعت إلى الجناب العالى ووقعها أربعة وثلاثون من الضباط ورؤساء الدواوين والعلماء يتوسلون فيها اليه أن يرسل جنده لاحتلال البلاد وكسر شوكة العصيان (١) .

أصدر غوردون أوامره لإثنتين من البواخر لتصحبا « العباس » إلى أن تتعدى مناطق الخطر ثم تعودان ادراجهما . ورغم أن الاسطول الثلاثى قد تعرض لهجمات الأنصار منذ مغادرته الخرطوم إلا أنهم تمكنوا من إجتياز بربر دون خسائر فى الأرواح .

ومن هناك عادت باخرتا الحراسة متخذتين طريقهما جنوبا . ولم يكن خافيا على الأنصار الذين كانوا يتابعون تقدم الاسطول من الشواطىء أن « العباس » قد أصبحت بمفردها . ولعلهم أيقنوا أنها فى سبيلها إلى مصر فأنتشر الخبر بينهم بضرورة منعها من مواصلة رحلتها . ولقد درج الأنصار على اصطياد الجواسيس ومؤيدى الحكومة ، فكيف إذا كان بين هؤلاء بعض الأجانب الذين لا تخطئهم العين . ولقد ذكر المؤرخ محمد عبد الرحيم

---

(١) المهدى إلى غوردون، ٢ محرم ١٣٠٢   ٢٢ أكتوبر ١٨٨٤ — ملحق و .

أن الحماس كان « يتأجج فى نفوس الثوار وألاّ يمكنوا رجلا أبيض اللون شاحب البشرة أن يفلت من بينهم ولو إتخذ نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء » (١) .

وقد واتت الأنصار الفرصة عندما إصطدمت « العباس » بصخرة فى شلالات ود قمر فى أرض المناصير (٢) فسارع شيخ قرية هبه ، الفقيه ود عثمان ، بتبليغ أمر السفينة الجانحة إلى سليمان نعمان ود قمر ، فما كان من هذا إلا أن نصب كمينا لقافلة ستيورت فأبيدت فى غمضة عين . وقد استولى سليمان على كل المكاتبات التى كانت على متن الباخرة وأرسلها إلى بربر لتبعث من هناك إلى المهدى .

وبهذا جاءت خسارة غوردون مزدوجة ، فقد فشلت مهمة ستيورت ووقعت وثائقه السرية فى أيدى خصمه . ولقد استفاد المهدى بدرجة كبيرة من هذه الوثائق فى توقيت هجومه على المدينة .

ويلاحظ أنه قد تسلم تلك الرسائل فى الوقت المناسب ، وذلك بعد وصوله لمنطقة الخرطوم مباشرة . فأمدته بقاعدة متينة يرتكز عليها فى تقرير خططه بصورة محددة ونهائية . فقد استفاد من يوميات ستيورت فى معرفة قوة الحامية وتوزيعها ، ومواطن الضعف فى خط النار من حيث نوعية الجنود والاستحكامات . ووقف على حقيقة شعور السكان ومدى التعاطف الذى يجده بينهم . وفوق كل شىء ، تأكد له موقف المدينة التموينى والوسائل التى يتخذها غوردون لمواجهة الأزمة الغذائية . فكان أن وطد عزمه على تشديد الضغط على الخرطوم واخضاع كل منافذها للمراقبة الدقيقة حتى يضطرها إلى استهلاك مخزونها .

ولعل المهدى قد إعتمد على هذه الوثائق فى تقدير المدة التى عليه أن

---

(١) محمد عبد الرحيم — ص ٨-٩ .

(٢) يقول سلاطين إن القبطان كان انصاريا ، وقد أوقع الاصطدام عن قصد .

ينتظرها قبل أن يوجه ضربته ، فقد كان يسعى إلى إمتصاص الحياة من رجال الحامية حتى يجبرهم على التسليم أو تصبح مقاومتهم لهجومه ضربا من المستحيل .

المشكلة المالية :

إن جاز لنا أن نعتبر الجنود فى المرتبة الأولى من سلسلة إحتياجات غوردون ، فإن المال بلا شك يأتى فى المرتبة الثانية .

ولقد فطن كل من بيرنج والحكومة المصرية لهذه الحقيقة فوعدوا غوردون باطلاق يده ليصرف أى مبالغ يرى أنها ضرورية . ولكن يبدو أن هذا الوعد كان حبرا على ورق ، إذ سرعان ما أخطره بيرنج أن يقتصد فى النفقات إلى أقصى حد ممكن ، إذ أن مصر بوضعها حينذاك لم تكن تستطيع أن تتحمل أى أعباء مالية فى السودان .

غادر غوردون القاهرة وبحوزته ٤٠٫٠٠٠ جنيه ولقد أخطرت سلطات القاهرة محـــافظ أسيوط أن يدفع له مبلغ ١٠٫٠٠٠ جنيه أخـــرى ، ولكن غوردون ، قرر الا يحمل معه كل هذا المبلغ تحسبا لأخطار الطريق فى رحلة طويلة عبر صحارى ومناطق غير آمنة تماما . فترك المبلغ فى اسوان على أن يرسل له بصورة سرية لا تثير إنتباه أحد فيما بعد . وأكتفى فى رحلته بمبلغ ألفى جنيه .

وقد تمكنت سلطات اسوان من جمع ٥٠٫٠٠٠ جنيه بالفعل ، الا أن هذا المبلغ لم يقدر له أن يصل إلى الخرطوم .

لم تكن بربر قد سقطت بعد ، ولكن كان الطريق إلى الخرطوم محفوفا بالمخاطر ، وإرسال كل تلك الأموال ربما يعرضها للضياع . ففضل الحكام الإحتفاظ بها فى خزينتهم بانتظار ظروف أكثر ملاءمة . ورغم كل هذا الحذر فقد وقع المبلغ فى أيدى الأنصار عندما سقطت بربر واستولى محمد

الخير على الخزينة . وما لبث المهدى أن بعث بأبراهيم ود عدلان لينقل محتوياتها اليه .

ولم يكن مبلغ الألفى جنيه الذى أخذه غوزدون من القاهرة ليساوى شيئا أمام إحتياجات مدينة فى حالة حرب . فبالاضافة إلى بنود الصرف الثابتة، كان لا بد أن تنشأ مع الحصار جملة التزامات يعتبر الوفاء بها أمرا حيويا لإستمرار صمود المدينة . وجد غوردون أزمة مالية فى إنتظاره تعود ذيولها إلى ثلاثة أشهر خلت ، فلقد كانت الخزينة خاوية ، وسبق أن طلب دى كتلوجن من سلطات القاهرة أن تبعث له بـ ١٤٠,٠٠٠ جنيه ليدفع رواتب الموظفين والجنود المتأخرة .

ولعل الملابسات والظروف التى أحاطت بمعالجة مسألة السودان قد أنست الحكومة المصرية الأمر تماما وربما ، تجاهلت الطلب نهائيا بعد تقرير سياسة الاخلاء ، لإعتقادها أنها لم تعد فى حاجة لخدمات أولئك الموظفين والجند . وقد كان على غوردون أن يتحمل نتائج تقاعس السلطات المصرية، إذ وجد أن بقاء هؤلاء المستخدمين فى خدمته أمرا لا بد منه . وعليه فمن الضرورى أن يجد المخرج ليفى بالتزامات الحكومة المالية تجاههم ، فأضطر إلى الإستدانه من بعض التجار ،ولم يمض على وصوله إلى الخرطوم شهر واحد.

لم يغب عن باله من ناحية أخرى أن السياسة السليمة التى وطد عزمه على إنتهاجها من أجل كسب المؤيدين لحكومته كانت فى حاجة إلى المال لتثبت أركانها . فشرع منذ وصوله فى توزيع العملات الذهبية على كل من يتقدم له بشكوى أو ظلامة . كما كان يدفع مكافآت لاولئك الذين يمدونه بمعلومات عن تحركات الأنصار ويدفع إعانات مالية منتظمة للعلماء والفقراء مقابل قيامهم بإقناع الأهالى ببطلان دعوى المهدى .

وقد كان من حين لآخر يضطر لدفع بعض التعويضات للسكان الذين يرى استخدام منازلهم فى أغراض عسكرية .

وكان أيضا بحاجة إلى المال لمواجهة جملة مشاكل أخرى ، من ذلك مثلا إغراء الجواسيس بمبالغ كبيرة لحمل رسائله إلى مصر . وكان عليه أن يبتاع كميات من الأغذية لسكان المدينة ، من سنار وبعض القرى المجاورة

لجأ غوردون كما سبق أن ذكر للاستدانة من التجار والضباط الذين لديهم بعض المدخرات لإيجاد حل للازمة المالية . وكان يحرر لكل مدين إيصالا بالمبلغ على أمل أن يتمكن من سداده حالما تتوفر لديه الأموال، أوعلى أسوأ الفروض أن تقوم سلطات القاهرة بدفعه اذا ما قدم إليها الإيصال . ويبدو أنه على سبيل الإغراء كان يدفع لهم ربحا قدره قرش واحد على كل مائة قرش (١) وتحدثنا بعض المصادر أن إحدى السيدات ، وهى أرملة التاجر الشركسى مصطفى تيرانس ، أمدت غوردون بمبالغ كبيرة فأنعم عليها « بنجمة الحصار » إلا أن بعض التجار الذين هبوا لمساعدته فى بادىء الأمر أحجموا عن مساندته إلى ما لا نهاية ربما لإقتناعهم بأن موقف الحكومة يضعف يوما بعد يوم ، وأصبحت إماكنية وصول أى أموال اليها بعيدة التحقيق .

ومن ثم حاول غوردون وسيلة إغراء جديدة لعلها تنجح فى إستمالة التجار ، وهى توزيع القاب الباشوية والبكوية عليهم ، كل حسب وضعه الإجتماعى ، غير أن هذه لم تحرز نجاحا بعيد المدى، إذ بدا التجار يتساءلون عن ماهية هذه الألقاب إذا إستمر الوضع كما هو وقعوا بنهاية الأمر فى أيدى الأنصار . فأستقر رأى غوردون على اصدار عملة ورقية محلية عرفت « باوراق البون » ولعل تاريخ إصدار هذه العملة ٢٥ أبريل – يكشف أن غوردون كان يعانى فعلا من أزمة مالية بعد مرور شهرين تقريبا على وصوله. وكانت « أوراق البون » عبارة عن أمر دفع يصرف فى القاهرة ويحمل توقيع غوردون وختمه بجانب ختم الحكمدارية . حملت كل ورقة نمرة مسلسلة وعبارة فحواها أن هذا « المبلغ مقبول وسيدفع من الخزينة فى

---

(١) المهلى إلى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٢ اكتوبر ١٨٨٤) ملحق و .

الخرطوم أو القاهرة فى أى وقت بعد مرور ستة أشهر على هذا التاريخ ٢٥ أبريل ١٨٨٤ » .

كانت جملة الأوراق التى طبعت فى بادىء الأمر تساوى ٥٠،٠٠٠ جنيها من فئات ١ ــ ١٠ جنيها الا أن مبلغ ١٠،٠٠٠ جنيها قد طبع فيما بعد من الفئات الصغيرة ذات القرش والخمسة والعشرة .

واظب غوردون بعد ذلك على توفير كل ما يحتاجه من مال بهذه الوسيلة . فأصدر ذات مرة ٦٠،٠٠٠ جنيه ثم ٧٠،٠٠٠ جنيها فيما بعد . يقال إنه دفع منها زيادات فى مرتبات المستخدمين ، وأرسل جزءا منها لحامية سنار ، ويقدر جملة المبلغ الذى طبعه غوردون بـ ٢٢٠،٠٠٠ جنيه .

وكان استقبال أهالى الخرطوم لأوراق البون متفاوتا ، يعكس إلى درجة كبيرة مدى ثقة كل فئة منهم فى الحكومة : فقد تشكك السودانيون عموما فى قيمة العملة الحقيقية ، وكان الإتجاه بينهم هو محاولة التخلص من أية كمية تقع بأيديهم ، فى حين أن طبقة التجار بما فيهم الاغريق والسوريون والمصريون وربما بعض السودانيين قد ، أبدوا إستجابة ، طيبة وقبلوا التعامل بها على أمل أن تساعد هذه فى تقوية مركز الحكومة المالى وبالتالى تتمكن من الصمود فى وجه الأنصار . ولكن يبدو أن فئة منهم رفضت التعامل بها ، الأمر الذى دفع غوردون إلى إعلان عقوبات صارمة بحق هؤلاء تراوحت بين التسليم للعدو والإعدام رميا بالرصاص . وقد اضطر لحبس أربعة عشر تاجرا فى طابية السرايا الشرقية فى مواجهة مدافع الأنصار عقابا لهم على رفضهم للعملة الجديدة ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن قطعوا وعدا بالاعتراف بها .

غير أن كل هذه الإجراءات لم تجعل تداول العملة أمرا يسيرا ، إذ سرعان ما برزت مشكلة التزوير . فبعد ظهورها بفترة وجيزة أكتشف أحد رجال الحكمدارية ورقة مزورة من فئة العشرين قرشا وقد أثبتت التحريات

أنها من فعل أحمد وصابر ابنى الشيخ عبد الغنى السلاوى، فقدما للمحاكمة.

بالاضافة إلى هذا فقد حاول بعض التجار شراء كميات كبيرة من أوراق البون بمبالغ زهيدة أقل كثيرا من قيمتها الرسمية، حتى يتمكنوا من إستبدالها متى ما توفرت النقود بقيمتها الحقيقية، إلا أن غوردون تمكن من كشف هؤلاء، وكان بينهم السيد محمد طه، وعلى اغا بريازى، ومحمد سعيد الدباغ، ومحمد حسن خير الله. وقد عاقبهم بالحبس فى السرايا الشرقية وهددهم بالتسليم إلى الأنصار إذا ما هم عادوا لفعلتهم تلك.

إلا أن الخطر الحقيقى الذى كان يهدد تداول العملة الجديدة هو هبوط قيمتها. فلقد لوحظ بعد حوالى شهرين من إصدارها أن قيمة الجنيه قد هبطت إلى ٨٠ – ٩٠ قرشا.

ولم يكن إرتفاع الأسعار هو السبب فى هذا، بل على الأرجح أن عدم الثقة فى أوراق البون هـو الذى أدى إلى هبوط قيمتها. وباشتداد الحصار حول المدينة أخذت هذه المشكلة تتخذ شكلا أكثر حدة، حتى أن قيمة الجنيه هبطت إلى ١٥ – ٢٠ قرشا فقط. وكان من الطبيعى أن يخلق هذا الوضع موجة تذمر عاتية فى صفوف الجند والموظفين، ولتلافى هذا عمل غوردون على اعطائهم أجور اضافية وهبات مالية فوق الرواتب حتى يعوضهم عن الفرق بين القيمة الرسمية للعملة وقيمتها الحقيقة فى الأسواق.

مشكلة المؤن :

كان لابد أن تواجه الخرطوم، شأنها شأن أى مدينة فى حالة حصار، مشكلة المواد الغذائية. وقد أضافت هذه المشكلة إلى غوردون عبئا جديدا، إذ أصبح لزاما عليه توفير الطعام لما يقارب الخمسين ألف شخص إلى أجل غير محدود. فأضطر إلى خوض معارك ضارية ضد جموع الأنصار حتى يجبرهم على التراجع ويبقى الطرق المؤدية إلى المناطق الزراعية التى تعتمد عليها المدينة مفتوحة له.

وكان الأنصار يرون من ناحية أخرى ، أن تحقيق مجاعة فى الخرطوم هو هدف رئيسى ووسيلة فعالة لحملها على التسليم .

نجح أنصار الشيخ العبيد وود البصير منذ البداية فى عزل الخرطوم عن مناطق تموينها التقليدية . وجاء أبو قرجه ليفرض مزيدا من الرقابة على أعراب الجزيرة حتى لا يدخلوا إليها شيئا من الغلال والأبقار . وواظبوا فى ذات الوقت على شن هجمات على بواخر غوردون متى ما ظهرت على مرمى البصر . وعند وصول أنصار النجومى إكتملت لهم السيطرة على كل المناطق المتاخمة للمدينة سواء من جهات الجريف والحلفاية ، أو الجزيرة ، وتمكنوا بالتالى من فرض حظر شامل على دخول أى مواد غذائية إلى المدينة .

رغم أن الخرطوم كانت تحوى ضمن تخطيطها جملة أراضى صالحة للزراعة يمكن إستغلالها فى وقت الشدة ، إلا أنها كانت تعتمد فى تموينها على المناطق التى تحيط بها من الجنوب والشرق وعلى مناطق الجزيرة الممتدة إلى سنار . ولقد بدأت أزمة الخرطوم حينما قامت القبائل القاطنة فى تلك الجهات لنصرة المهدى. فهجر بعضهم الزراعة تلقائيا لإيمانه بأن الجهاد أفضل ، وثمة بعض آخر إستنفر بواسطة دعاة المهدى لنبذ مباهج هذه الدنيا الزائفة والمساهمة فى إقامة دين الحق . فتركوا مزارعهم تحت رعاية صغار الأبناء والرقيق (١) . وقد فطن المهدى منذ البداية إلى الدور الذى يمكن أن تؤديه هذه القبائل فى إمداد الخرطوم بالغذاء ، فأصدر لهم منشورا يأمرهم فيه بقطع علاقاتهم التجارية مع أهالى العاصمة ، والإمتناع عن تسويق الغلال بداخلها .

وقد تمادى بعض دعاة المهدى فى تحذير رجال القبائل بالقول إن من دخل الخرطوم فهو كافر ، يؤخذ ماله وأولاده غنيمة ، ولعل الإجراء الذى إتخذته الحكومة بشأن شراء كميات من الغلال فى آخر ١٨٨٣ وأول ١٨٨٤ كان رد فعل لهذا المنشور ، فعند إنسحاب حاميتى الكوة والدويم سارع رجال الحكومة إلى شراء كميات من الذرة من قرى النيل الأبيض جرى

---

(١) بابكر بدرى – ص ٣٠ .

تخزينها بالشونة . كما تمكن حاكم سنار من الحصول على كميات أخرى بعث بها إلى العاصمة فى مطلع ١٨٨٤ .

إذن وجد غوردون عند وصوله أن موقف المواد الغذائية لا غبار عليه ، فقد قدرت كمية الذرة بحوالى ٢٣٫٥٠٠ أردب ، بالاضافة إلى ١٠٠ أردب من القمح وكميات من الأرز والبقسماط و١٤ قنطارا من العسل و١٠٠٠ من الزيت و ١٠٠ قنطارا من الزبد (١) . ولقد كانت هذه الأرقام مسجلة فى دفاتر الحكومة ، إلا أن غوردون إكتشف فيما بعد إختلاسا فى المواد قام به حسين سرى المخزنجى ،واتضح أن الكميات الموجودة تقل كثيرا عما هو مقيد فى الدفاتر ، قدر غوردون إستهلاك الجنود اليومى بحوالى سبعين أردبا من الذرة ، ولو اقتصر الصرف الحكومى عليهم لأمكن تدبيره ، خاصة وأنه قد تمكن من الحصول على كميات إضافية من الغذاء فيما بعد . ولكن غوردون كان مضطرا لاعاشة فئات أخرى .

فما أن وصل إلى الخرطوم حتى بعث بـ ٦٠٠٠ أردب من الذرة إلى بربر ، يبدو أن حسين باشا خليفة كان قد طلبها منه . ولعله كان يريد إغراء المدنيين ليبقوا على تأييدهم له عن طريق صرف المواد الغذائية لهم من مخازن الحكومة ، حتى أنه كان ينفق على حى بأكمله قدر عدد سكانه بأربعة الآف شخص تقريبا . ولهذا كان لابد من إتخاذ الاحتياطات اللازمة لتوفير الغذاء فى المدينة حتى تتمكن من الصمود . فمهما كان تعداد رجال الحامية ، وما يحملونه من سلاح ،فلم يكن متوقعا أن يتمكنوا من صد هجوم يشنه الأنصار وهم جوعى . بالاضافة إلى أنه من الصعوبة إقناع المدنيين التمسك بحكومة عاجزة عن توفير أول متطلبات الحياة لهم .

ومن هنا جاء قرار غوردون الذى اتخذه حال وصوله إلى الخرطوم بعدم إستهلاك المواد المخزونة فى الصرف اليومى والاحتفاظ بها لوقت الشدة. وحاول فى ذات الوقت إيجاد مصادر لتموين المدينة باحتياجاتها اليومية .

---

(١) Nushi Pasha, p. 4.

ولما أتاحت له الظروف ثلاثة مصادر بذل جهدا خارقا فى استغلالها لأقصى درجة .

أ – الغارات على مواقع الأنصار :

شكلت معسكرات الأنصار – التى بدأت فى الظهور على مشارف الخرطوم منذ مطلع شهر مارس – أولى مصادر غوردون التموينية، إذ قام أهالى المناطق الزراعية المتاخمة للخرطوم بمد المحاصرين بكميات وافرة من الذرة جرى تخزينها داخل المواقع العسكرية. فحرص جنود غوردون أثناء هجومهم على الاستيلاء على تلك المخزونات . فاضحت الحملات ذات فائدة مزدوجة، فهى بالإضافة إلى هدفها العسكرى الذى يتمثل فى إجبار الأنصار على التراجع تقدم حلا جزئيا لأزمة الغذاء فى المدينة .

وعند وصول قوات أبى قرجة وإتخاذ مواقعها أمام طابية برى بعث غوردون قوة لمهاجمتها ، فنجحت فى إنزال الهزيمة بها ، وتراجع الأنصار مخلفين وراءهم كميات من الذرة قدرت باربعمائة أردب .

وفى أغسطس أرسل غوردون فرقة لتتعقبهم فى معسكرهم الجديد الذى أقاموه فى الجريف، فتمكنت من الإستيلاء على ٦٠٠٠ أردب من الذرة وبعض الأبقار . أما هجمات ساتى بك فقد تركزت على تجمعات الأنصار فى النيل الأبيض ،حتى تمكن من غنيمة ١٠٠٠ رأس من الأبقار ، ونتج من جراء العمليات العسكرية حول الخرطوم أن هجر أهالى الضفة الشرقية للنيل الأزرق ديارهم فى محاولة لإيجاد مأوى آمن ، فبعث غوردون أحد قادته – محمد على باشا – ليستكشف ما إذا كان الأهالى قد خلفوا وراءهم أى مواد غذائية .

وقد صدق حدس غوردون ، إذ تمكنت القوة من وضع يدها عل كميات من الأغذية بينها بعض الزيوت ، وكمية من الذرة قدرت بألف أردب .

كانت منطقة الحلفاية فيما مضى مركزا لتجمع القبائل وسوقا لبيع الغلال ، إلا أن تصاعد العمليات العسكرية فيها قد أدى إلى شل حركة تلك السوق ، فلم يعد بامكان الاعراب الحضور ببضائعهم ، ولم يكن بامكان أهالى الخرطوم الخروج لشراء إحتياجاتهم منها . وقد تفاءل غوردون بعد إرغامه أبى قرجه على التراجع ، فحاول أن يعيد الحياة الطبيعية إلى المنطقة ، فأوفد كلا من محمد على باشا وفرج الله بك على رأس قوة تهدف لاجبار العباس العبيد على إخلاء الموقع ، فانجزت الحملة هذه المهمة ، وعادت محملة بكميات من الذرة والمواد الغذائية . ونتيجة للهدوء النسبى الذى ساد المنطقة فقد ظهرت الغلال مرة أخرى ، وتزاحم أهالى الخرطوم على شرائها ، وهبطت الأسعار إلى مستواها العادى لأول مرة منذ بدء الحصار .

وفى إحدى الهجمات على منطقة امدرمان استولت قوات الحكومة على ما يقارب التسعين رأسا من البقر . وفى معركة أخرى تم الإستيلاء على ثمانين منها .

ب ـ الحملات العسكرية إلى الجزيرة :

كانت سنار وما جاورها من القرى هى المصدر الثانى الذى اعتمد عليه غوردون فى امداد المدينة بالغذاء . ولهذا فقد كان يرقب تصاعد العمليات العسكرية فى تلك المنطقة بكثير من القلق ، إذ أن سيطرة الأنصار على طريق سنار ـ الخرطوم ، كان لا بد أن يعجل بوقوع أزمة غذائية فى الخرطوم يصعب تفاديها ، ولعل كولونيل دى كتلوجن قد فطن إلى هذه الحقيقة قبل وصول غوردون ، فبعث بصالح الملك على رأس قوة من الباشبوزق إلى فداسى فحفر خندقا هناك وتحصن به ليحمى طريق سنار ـ الخرطوم .

ورغم أن هذه القوة قد صمدت بعض الوقت أمام هجمات الأنصار إلا أنها استسلمت أخيرا لقوات أبى قرجة وانقطع منذ ذلك الحين أى إتصال بين الخرطوم وسنار ، ولم يتمكن غوردون من إيفاد أى بعثات إلى سنار إلا فى

أغسطس ١٨٨٤ حينما دحر أنصار أبى قرجه وإضطرهم إلى التراجع ، فأصبح الطريق آمنا بعض الشيء . وبعدها أرسل غوردون قوة تحت قيادة محمد على باشا لبعض قرى النيل الأزرق فى محاولة لشراء مواد غذائية . وقد توجهت من توها إلى قرية أبى حراز التى عرفت بثرائها لكونها مركزا هاما لتجارة الحبشة ، وقد نجح محمد على باشا فى رفع الحصار عنها واستولى على ١٨٠٠ أردب من الذرة ، و ٨٥ قنطارا من البن ، و ٣٢ قنطارا من السمسم ، قبل أن يعود أدراجه إلى الخرطوم .

بعث غوردون بعد ذلك بخيت بك بطراكى إلى سنار بهدف الحصول على كميات أخرى من الذرة وبعض المؤن التى كانت سنار غنية بها ، ويبدو أن أهالى سنار كانوا على علم بأزمة الخرطوم التموينية ، فتسابقوا فى إرسال المواد الغذائية لذويهم فى العاصمة ، فعادت السفن محملة بها . إلا أن نصيب الحكومة لم يتعد الألف أردب من الذرة ، ولهذا أوقع غوردون الجزاء على بخيت بك ففقد وظيفته .

وكان مدير سنار ، حسن بك صادق ، يعى تماما دور مدينته فى تموين الخرطوم بالغذاء ، فبذل غاية جهده لمقابلة تلك الإحتياجات رغم أن سنار كانت تحاول هى الأخرى الفكاك من قبضة الأنصار ، ومع هذا فقد أمر السكان بضرورة جمع الذرة من القرى المحيطة بهم كلما سنحت لهم الفرصة ، وأخذ يقوم من جانبه بين الفينة والأخرى بالهجوم على معسكرات الأنصار المنتشرة حول المدينة ليستولى على ما يجده فيها من مؤن . ذات مرة أرسل فرقة من الجهادية بقيادة أربعة من السناجك إلى شاطىء النيل الأزرق الشرقى ، حيث كان الأنصار قد خزنوا كمية من الذرة ، وبعد مناوشات دامت ثمانية عشر يوما نجحت قوة سنار فى الإستيلاء على تلك المخزونات .

وفى سبتمبر أرسل غوردون محمد نصحى باشا فى بعثة على الباخرتين « البوردين » و « تل الحوين » إلى سنار ، فأمده حسن بك بقدر من تلك الكمية

التى تم الإستيلاء عليها (١) فأخذ حمولة بلغت ثلاثة آلاف أردب . كان نصيب الحكومة منها ألفان ، وما تبقى كان هدايا من أهالى سنار إلى ذويهم فى الخرطوم مع كميات من الزيوت والسمسم .

إلا أن ذلك الوضع لم يكن ممكنا أن يستمر ، فما أن وصل عبدالرحمن النجومى حتى سعى مرة أخرى للسيطرة على الطريق ، فشيد طابية فى الجريف ، عليها قوة من رجاله ، لا تستهدف شيئا سوى بواخر غوردون متى ظهرت فى الأفق . ومنذ ذلك الحين فشلت كل محاولات غوردون فى اختراق ذلك الحصار ، ففقد بالتالى مصدرا من مصادر تموينه الرئيسية .

ج – **حملات داخل المدينة :**

واضطر غوردون لاتخاذ جملة إجراءات لتفادى خطر المجاعة التى أصبح حدوثها وشيك الوقوع ، فعين بعض ضباطه للاستيلاء على كل الغلال الموجودة فى المدينة . وأصبحت الحكومة تبيعها بدورها للمستهلك الذى يقدر على الدفع . ثم أمر سكان جزيرة توتى بزراعة أراضيهم وجلب المحصول إلى الشونة . وكذلك كون لجنة خاصة لمتابعة هذا الأمر برئاسة فرح باشا الزينى ، وقد تم حصد حوالى ٢٠٠ أردب من الذرة ، وفى آخر نوفمبر ١٨٨٤ تأزم الموقف بشكل حاد ، إذ أن كل ما أمكن جمعه من مؤن قد نفد تماما من مخازن الحكومة . فشكل غوردون لجنة أخرى برئاسة القنصل اليونانى نكولا ليونديدس ليقوم من جديد بحملة تفتيش شاملة فى المدينة تأتى بكل ما تجده فى حوزة السكان إلى الشونة تاركة لهم مؤونة عشرين يوما .

وقام هو من جانبه بتحرير إيصالات لكل من صودرت غلاله يقضى بدفع ١٢ جنيها للأردب حال وصول القوات الإنكليزية . ورغم أن هذه اللجنة قد واظبت على القيام بمهمتها يوميا لمدة شهر كامل إلا أن كل ما أمكن الحصول عليه بلغ حوالى ٣٠٠ أردب فقط .

---

(١) اسماعيل أغا ابراهيم ، تقارير وإفادات عن حصار الخرطوم وسنار .

دعا غوردون قادته للتشاور فى كيفية تدارك الأمر فأستقر الرأى على الاكتفاء بنصف التعيين المقرر للجنود . ثم كونت لجنة أخرى برئاسة أحمد بك على جلاب ، وعضوية أبراهيم فوزى، وإبراهيم البورديني ، ونكولا ليونديدس ، والمعاون فتح الله، ونكولا بك الطبيب اليونانى ، لتجرى بحثا دقيقا فى المدينة عن أى مأكولات مخزونة لدى السكان .

وكان نتيجة هذا البحث حصر حوالى ٦٣ أردبا من الذرة وبعض الأبقار الخائرة القوى .

لجأ غوردون بعد ذلك إلى الطبيب يستفسر عما إذا كان هناك عائق صحى فى سبيل تغذية الجنود بالصمغ المخلوط بجمار النخيل . وقد أفتى الطبيب بأنه لا ضرر منه . ولعل غوردون كان أول العارفين بأن هذا الغذاء لا يمكن أن يكون غذاء لحامية مطلوب منها أن تدافع عن مدينة يقف على أبوابها ألوف مؤلفة . واتضح فى ذلك الحين أن غالبية الجنود قد فقدوا المقدرة حتى على حمل السلاح ناهيك عن إستعماله .

وإزاء هذا الوضع كان لا بد أن تتفشى ظاهرة التمرد والعصيان وتكررت حوادث الفرار إلى معسكرات المهدى .

وفى ١٦ يناير ١٨٨٥ كانت المدينة قد قضت تماما على كل ما يمكن أن يؤكل سواء بإستشارة الطبيب أو بدونها (١) . كان الجنود يقتاتون من الصمغ منذ أول يناير ، ففقد معظمهم الحد الأدنى من اللياقة البدنية التى تؤهلهم لخوض معركة لدرجة أن غوردون أصدر مرسوما يعفيهم من الوقوف لتحيته ، وقد وصلت صحتهم درجة من الوهن بحيث لم تكن لتسمح لهم بصد أى هجوم يشنه الأنصار لإقتحام أبواب المدينة وخطوط دفاعها .

---

(١) شهادة عبد القادر حسن في المحكمة التى عقدت في القاهرة في ابريل ١٨٨٧ لتحاكم حسن بك بهنساوى Wingate, Mahdiism *and the Anglo-Egyptian* Sudan, pp. 556-90.

أصبح أمل غوردون معلقا بوصول فرقة الإنقاذ ، ولعله كان أملا يرتكز على عدم معرفة حقيقية بحجم هذه الحملة . فلم تكن سوى باخرتين عليهما بضعة مئات من أرادب الذرة .

ولا بد للمرء أن يتساءل عما اذا كانت هذه الكمية الضئيلة كافية لتعيد الحياة إلى جند الحامية ، بدرجة تمكنهم من الصمود أمام القوات التى اقتحمت أسوار المدينة عشية السادس والعشرين من يناير . ولقد أجاب أحد قادة غوردون بالنفى القاطع عندما سئل إن كانت مساهمة حملة الانقاذ — فى حالة وصولها قبل سقوط المدينة ستساعد بأى صورة من الصور فى تغيير مجرى الأحداث (١) .

لقد كانت الخرطوم تعانى من أزمة حادة ، وأصبح سقوطها نتيجة لتفشى المجاعة أمرا يكاد يكون مؤكدا . ولعل حملة الانقاذ لم تكن لتفعل سوى القليل . كانت مشكلة الجنود هى الانهاك الجسدى الذى تعرضوا له فى الآونة الأخيرة ، وفقدوا من جرائه لياقتهم ومقدرتهم على الحرب ، ولهذا فمن الصعب قبول الرأى القائل بأن المدينة سقطت لأن حملة الانقاذ قد وصلت متأخرة ، أو لأن الأنصار قد علموا بواسطة الجواسيس أن هناك فتحة فى التحصينات يمكن أجتيازها بيسر إلى الداخل .

لقد حشد المهدى قواته حول المدينة قرابة عام كامل مارس خلاله حرب إستنزاف بطيئة ، انهكت قوى جنود الحكومة لدرجة أنه لم يكن فى مقدورهم الصمود أكثر من يوم واحد على أكثر تقدير بعد ٢٦ يناير .

وإذا ما إفترضنا أن الأنصار قد هاجموا المدينة من الجانب المتهدم من الخندق ، فإن المجاعة هى التى تسببت من بقائه على ما هو عليه. درج غوردون على أمر جنوده بترميم كل جزء تجف عنه الماء ، إلا أنه إضطر إلى إهماله عندما تدهورت حالة الجنود الصحية . إذن فقد كان مصدر الضعف الأساسى

---

(١) حسن بك بهنساوى، تقارير وافادات عن حصار الخرطوم وسنار .

هو المجاعة التى لا بد أن تكون آثارها قد إنعكست على أداء الجند سواء فى صد الهجوم أو تقوية وسائل الدفاع . كان الحصار المضروب حول المدينة شاملا طويلا ، اضطر السكان خلاله إلى استهلاك كل ما وقع بين أيديهم .

مشاكل المهدى :

كان لا بد أن يواجه الفريق الآخر مشاكل شبيهة بتلك التى واجهها غوردون . إلا أن هناك عدة عوامل ساعدت فى تخفيف حدة الأزمة عند الأنصار . وتأتى فى مقدمة هذه طبيعة الدعوة نفسها .

فهى نداء لكل مسلم ليدير ظهره لهذه الدنيا الفانية فلا يلتفت لجمع أموال ولا يلهث وراء سلطان ويكتفى فى مأكله بما يسد الرمق ، وفى ملبسه بما ينم عن التواضع الجم .

أما العامل الثانى فهو الانتصارات المتعددة التى حققها المهدى فى جملة معارك قبل تقدمه نحو الخرطوم . ويأتى العامل الثالث فى حجم وطبيعة نفقات الأنصار . فلم يكن المهدى يملك جيشا من العسكريين والمدنين يضطر إلى دفع رواتبهم شهريا حتى يحفظون له الولاء . أما العامل الرابع فهو نجاح المهدى فى كسب تأييد الرعاة من قبائل كردفان الذين لم يشدوا من عضده ليسيطر على مديريتهم فحسب ، بل ساروا معه حتى تمت له السيطرة على الخرطوم .

المشكلة المالية :

بدأ المهدى معركته فى جزيرة أبا وهو خالى الوفاض ، يملؤه الإيمان الصادق بالدعوة ، وإحتقار عنيف للملذات الدنيوية من مال وجاه ومنصب ، إلا أن هذه الأسلحة لم تكن وحدها كافية لإنزال الهزيمة بقوات الحكومةعلى الدوام. فاستعان أنصاره بسيوفهم وحرابهم لمواجهة نيران قوات رؤوف باشا.

ولم تبرز فى ذلك الوقت مشكلة إمداد الأنصار بالمال لمعيشتهم فقد كانوا بضعة مئات يعيشون مع اسرهم بالوسائل التى درجوا عليها .

إلا أن الهجرة إلى الغرب وما تبعها من تكاثر اعداد مؤيديه، وتوسع نشاطهم قد حتم عليه أن يجد وسيلة ما لتمويل الدعوة . فلكى تبقى تلك الجموع المؤلفة فى معيشته كان عليه أن يوفر لهم سبل الحياة إذ هاجر أغلبهم من دياره وفقد بالتالى مصدر معيشته .

لم تكن أمامه وسيلة سوى استنفار الموسرين من أتباعه ليجودوا بما يفيض عن حاجتهم . فوجه لهم المنشورات والرسائل التى تحثهم على نبذ مظاهر البذخ والترف والاكتفاء بالقليل الذى لا بد منه . وقد جاء فى إحداها قوله « ... إنكم بايعتم الله ورسوله وبايعتمونى ورضيتم بى وببيعتى على نصرة الدين، فقدقبلتكم، ونسأل الله أن يقبلكم، ولكن لازم أن تعملوا بما يرضينى من البذل للنفس والغيبة عنها لله ورسوله، فإنه على قدر الغيبة عن الحسن يزيد العبد من الملكوت القدسى، فأقللوا من النظر إلى ظاهركم، لترنوا من القدسى الملكوتى الذى يدوم لكم، وليكن نظركم فى خدمة ربكم فقط، فإن حب المال والجاه الذى هو إصلاح ظاهركم فان وعلى قدر الأمل فى ذلك والإكثار يظلم القلب، ويشترك فى النصيب الشيطانى كما ورد أن حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء االسبقل .. (١) وكان يكرر لهم دوما قوله تعالى «هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون فى سبيل الله باموالكم وأنفسكم » فالتضحية بالمال تأتى قبل النفس . وعليهم أن يتخذوا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أمثال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان قدوة يحتذون بها فى هذا المجال ، فقد كانوا يصرفون من مالهم الخاص لتجهيز الجيوش « وكان الذى لا يقدر على ذلك يجهز المايه وبعضهم الاثنين والثلاثة حتى يكون البعض الذى لا تطوله أيدى الصحابة يجهز من بيت المال .. » (٢) .

---

(١) المهدى إلى أحبابه المذكورين ومن تبعهم، جمادى آخر ١٣٠٠ انذارات ب ص ٦٥-٦.

(٢) المهدى إلى حبيبه فى الله عمر الياس وآخرون ١٣ جمادى آخر ١٣٠٠ انذارات ب ص ٦٧ - ٩ .

ولم يكن المهدى يستولى على أموال أتباعه عنوة بل كان يسعى عن طريق الوعظ والمنشورات لاقناعهم بتقديمها لبيت المال من تلقاء أنفسهم، ولكن هناك حالة واحدة اعتبر فيها الاستيلاء على أموال الأنصار مباحا، وهى تنطبق على أولئك الذين أقاموا فى أحد المواقع التى تعرضت للحصار، إلا أنهم خرجوا للمهدى قبل سقوط الموقع. فى هذه الحالة « تغنم جميع أشيائهم التى بالقفرة وتترك التى خرجت معهم كثرت أو قلت » (١).

ورغم أن المهدى أعطى تجرد أصحابه من ثرواتهم الخاصة بعض الأهمية، كما تدل رسائله، إلا أنه بلا شك لم يكن مصدر تمويله الرئيسى. كان من الطبيعى أن يواكب إنتصاره العسكرى على قوات الحكومة فى عدة مواقع امتلاءا فى خزينته. ولقد جاء أول الغيث مع هزيمة راشد أيمن حين تمكن من الإستيلاء على ما كان بحوزة حملته من مال وعندما جاءت هزيمة يوسف الشلالى غنم منها « شيئا كثيرا من النقود ».

ولعل كسب المهدى الأكبر قد جاء بعد سقوط الابيض حيث إستولى على خزينة الحكومة. بالاضافة إلى الأموال الخاصة، إذ كانت الأبيض مركزا تجاريا هاما جذبت عددا كبيرا من الأجانب الذين تمكنوا من جمع ثروات واستوطنوا بالمدينة.

ويصف أحد شهود العيان الأموال التى استولى عليها الأنصار عند دخولهم بقوله « أما من جهة الغنايم التى جمعها أحمد ولد سليمان بخلاف الذى أخذو الاعراب من الذهب الغشيم والفضة شىء لا يوصف وأما من العملة من الجنيهات، والفرج الله، والبندقى، والمجر، والمحمودية والمجيدية، والخيرية، والربيعية عملة الذهب شىء كثير خلاف عملة الفضة المجيدى وأبوشنيكو، والمصرى، وأبو مدفع، وأبو مسلا، والطبر، والدمج، مال لا يأكله التراب جميعه بيد أحمد سليمان أمين بيت المال بخلاف سلاسل الذهب الكيس فى الكيس لغاية سقف المربوعة.

---

(١) المهدى إلى محمد الخير عبدالله خوجلى – احكام ص ٢١٦ – ٢٢.

ويبدو أن بعض أتباع المهدى قد تمكنوا عند سقوط المدينة من الاستيلاء على بعض الأموال كما ذكر هذا المصدر .

و مالبث المهدى أن أصدر منشورا يحذرهم فيه من مغبة هذا الفعل « فتابوا ورجعوا عن ذلك وأوردوا بيت المال كثيرا من الأموال والرقيق والمصاغات » (١) .

وكان المهدى صارما فى مسألة الغنائم هذه ، حريصا أشد الحرص بأن تعود بكاملها لبيت المال ، وقد كتب فى تبرير هذا عدة منشورات ورسائل فهو يخاطب مجموعة من قادته فى هذا الأمر قائلا « أحبابى إنه لا يخفى ما كررنا عليكم فيه والأمور كلها بيد الله وهو القائل لأعدائه لا أنتم ولا غيركم وإنما ساقكم للجهاد .... » . وقد تشدد معهم فى هذا إلى درجة أنه قال « ... من خبأ شيئا من الغنائم ولو قليلا فليس من أصحابنا وإنما هو من أصحاب إبليس والدجال » (٢) .

تمكن المهدى أيضا من الاستيلاء على الأموال التى كانت بحوزة حملة هكس باشا ، وتلك التى وجدت فى خزينة بربر . ويبدو أن ما حدث فى الابيض من أمر إستيلاء بعض الأشخاص على الغنائم تكرر فى بربر . فما وكان من المهدى إلا أن أرسل أوامره الشديدة لاسترجاع تلك المبالغ التى قدرها معاونه أمين بيت المال بمائة وواحد وستين ألف ريال وثلثمائة وخمسة سبعون .

وقد أمر المهدى ألا يترك فى حوزة من استولوا عليها دينارا أو درهما « ومن أخر شيئا من ذلك يؤخذ منه كرها ويخرج أسمه من دفاتر أنصارنا » .

كانت نفقات المهدى تنحصر أساسا فى إعاشة المحاربين من أتباعه الذين يثبت فعلا أنهم لا يمتلكون ما يقتاتون به ، فيقوم بيت المال بالتكفل

---

(١) المهدي إلى محمد الخير بن عبدالله خوجلي ٣ صفر ١٣٠٢ انذارات ب ص ٢٠٣-١٣.

(٢) المهدي إلى محمد عثمان ابى قرجه وعمر الياس وآخرين محرم ١٣٠١ انذارات ب ص ٧٩ - ٨١.

بضروریاتهم من مأكل ومشرب وملبس (١) . أما الأسلحة فلم يكن يصرف عليها كثيرا ، إذ أنه استفاد من تلك التى غنمها من المعارك السابقة ، والمواقع التى استسلمت له وديا ، وكان بدوره يقوم بتوزيعها على من يستحقها من المجاهدين ، شريطة أن يكون إيمانه بالمهدية لا يرقى اليه الشك .

مشكلة الغذاء :

لم تبرز قضية الغذاء عند الأنصار كأزمة بالصورة التى عاناها سكان الخرطوم طوال مدة حصارهم للمدينة . وهذا يعود إلى موقف المهدى المبدئى من مسألة ملذات الدنيا واهوائها . إذ آمن بأن المسلم الحق هو الذى يكرس جل وقته لذكر الله ورسوله ولا يجعل قضايا الرزق وكيفية الحصول على الطعام تشغله عن هذه الغاية (٢) .

وما فتىء المهدى يذكر أتباعه بهذه التعاليم حتى أصبح أمر ماذا يأكلون أو كيف يأكلون لا يستحوذ إلا على قدر قليل من إهتمامهم . لم يكن المهدى يدعوهم بالطبع إلى الموت جوعا ، بل إلى الاكتفاء بالقليل الذى يسد الرمق ، وبذلك الغذاء البسيط الذى لا يتطلب توفيره جهدا يعوقهم عن الغرض الأساسى من الدعوة .

ولقد حرص قادته أشد الحرص على الالتزام التام بتلك المبادىء ، حتى أنهم كانوا يستشيرونه متى ما أجبرهم طارىء على الحياد عنها .

فكتب له نفر منهم ذات مرة يقول ، « ... ثم سيدى إننا حضرنا بجهة مندروان اخواننا الفقراء لما رأينا مأكولهم البليلة فقط اذناهم بتعاطى قليل من البصل والويكة والسمسم ومع ذلك أنه ليس موجودا ، وقد رأينا ذلك ليس مخلصا عند الله تعالى بلا رفع الامر لسيادتكم ، وحيث أن الاخوان حاصل لهم التعب

---

(١) المهدى إلى محمد الخير عبدالله خوجلى ، احكام ص ٢١٦-٢٢ .

(٢) المهدى إلى عبد الرحمن النجومى ، عبد الله النور ، محمد عثمان أبو قرجه ، ذو الحجة ١٣٠١ (قبل ٢٠ اكتوبر ١٨٨٤) انذارات ب ص ٢٢٥ - ٢٧ .

ولا معنا هنا سوق يشترون منه الملاح والملح، والآن معنا أبقار قليلة فالتزمنا بتحرير هذا العرض لسيادتكم راجين الإذن في راحة الأخوان مما عندنا الآن من البقر القليلة وفيما يوجد من الآن فصاعدا من الأصناف المذكورة والمسامحة فيما مضى، وأن تبينوا لنا الجايز تعاطيه منها والممنوع لسلوك طريق الرشاد»(١)

تكشف هذه الرسالة حزم وصراحة المهدى فى الا يقتات أتباعه إلا بأبسط الغذاء، حتى أن قادته يستشيرونه ويطلبون الإذن إذا ما ابتغوا إدخال بعض العناصر إلى وجبة طعامهم . ونلاحظ التزام المهدى مرة أخرى فى الرد الذى بعث به « ... وأما البصل والسمسم والويكة وغيرها من المأكولات فجايز للمجاهد أن يأخذ لضرورة من غير ادخار وتمول، فالأكل فى بطنه له جايز كما فعل ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذن منه وأما البقر فأنها متموله فاذبحوا للأكل بالإذن لزوم الضرورة .. » (٢) .

وكذلك حرص المهدى على التشديد على قادته بالا ينصرفوا إلى أمر تدبير الطعام ويهملوا تنفيذ ما أمرهم به ، إذ أن من شأن ذلك أن « يدخل فى قلوب الأصحاب الالتفات إلى غير الله من حيث لا تقصدون ذلك لأنكم مقتدى بكم ومتبعون وللناس حسن ظن بكم لأنكم من الأولين السابقين المشار اليكم من حضرتنا كثيرا » (٣) .

وعندما إشتكى له عبد الرحمن النجومى وعبد الله ود النور ومحمد عثمان أبى قرجه من أن أولاد ود البصير لم يستجيبوا للأمر الذى وجهوه اليهم بجلب الذره لمعسكرات الأنصار كتب المهدى رسالة مطولة يلومهم فيها على طلب الرزق من غير الله . « ... وتعلمون أحبابى إنا لما كنا فى أبا ما كانت لنا جهة نعرف اتيان رزقنا منها ، حتى هاجرنا منها إلى قدير بأمر

(١) عبد الرحمن النجومى وحمدان أبى عنجة إلى المهدى احكام ص ٣٦ – ٧ .

(٢) المهدى إلى عبد الرحمن النجومى وحمدان أبى عنجه، رجب ١٣٠١ احكام ص ٣٧–٩

(٣) المهدى إلى عبد الرحمن النجومى ، عبد الله النور . ومحمد عثمان أبى قرجة. الانذارات ب ص ٢٢٥ – ٣٧.

سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، فكان يأتينا رزقنا من الله من حيث لا نحتسب كما جعل الله رزق المتقين من حيث لا يحتسبون ، كما قال الله تعالى ومن ق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وكذلك على طريق الهجرة لى قدير حيث نزلنا به فلا نعرف وجهة اتيان الرزق إلا من الله ،وان حبس الله علينا الرزق حمدنا إيثارا لما عند الله وإقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم ... فعلى ذلك حتى اتينا بالابيض فما رأيتم إلى طلبت قوما عينتهم لأن تأتى أرزاقنا منهم ، ومع ذلك فنفر عن الدنيا وعن الإلتفات إليها ويأتينا رزقنا من حيث لا نحتسب » .

ومن الواضح أن المهدى لم يكن يرمى من وراء هذا إلى القول بأن السماء ستمطر لهم غلالا لاعاشتهم ،وعليهم الا يحركوا ساكنا فى انتظار هذا الرزق الموعود ، بل كان يرمى إلى ألا تكون قضية الطعام أمرا يقتتل عليه ، وتصبح مجالا للشكوى بين القادة . كان يسعى دوما لتذكير أتباعه بألا تستحوذ مسألة توفير الطعام على تفكيرهم حتى لا تعطى الأسبقية على الجهاد والقيام لنصرة دين الحق . فتعرض لهذا فى ندائه للقبائل لتشارك فى الزحف نحو الخرطوم بقوله « بادروا وأسرعوا للسفر ولا يهمكم شىء من الزاد بل يرزقنا الله الملك الخلاق » .

فإذا كان المهدى قد أهاب بالمجاهدين بصرف النظر عن كيفية اعاشتهم فقد تصدى بنفسه لمعالجتها . فكان يحرر الرسائل لقادته الذين يوفدهم للجهاد مبينا وسيلة تأمين الرزق. بين هذه رسالته التى بعث بها إلى عبدالرحمن النجومى ،يطلب منه الاستعانة بأبى قرجه ومحمد عثمان حاج خالد ليوجهوا أتباعهم لجلب الذرة إلى معسكرات الأنصار حول الخرطوم (١) .

وقد إستجاب أبو قرجه لهذا النداء ، فأخذ أنصاره يجمعون الذرة من القرى الواقعة على ضفتى النيل الأزرق بواسطة الباخرة « محمد على » التى استولوا عليها عند تسليم صالح الملك فى فداسى .

---

(١) المهدى إلى عبد الرحمن النجومى ، فيوضات ١٧٨/٣ .

ولقد واظب بعض دعاة المهدى فى سنار على جمع الغلال الموجودة فى منطقتهم وإرسالها إلى القوات المرابطة حول الخرطوم .

ومن هنا جاء وقوع منطقة الجزيرة تحت سيطرتهم عاملا هاما فى وفرة الغذاء فى معسكراتهم . ولم تنشأ أية أزمة فى الغلال إلا بعد وصول تلك الجموع الهائلة التى صاحبت المهدى .

ورغم هذا لم تختف من الأسواق ، بل ارتفعت أسعارها بصورة خيالية لم تألفها البلاد من قبل .

أما العامل الحاسم الذى جنب المهدى شرور المجاعة فهو إستنفاره لبقارة كردفان ، فساروا فى ركابه بكل ما يملكون من مواشى . فكان أن توافرت اللحوم بأسعار زهيدة طوال أشهر الحصار ، وكانت خير تعويض لهم عن ندرة الغلال .

الفصل الخامس

عوامل حاسمة فى تقرير نتيجة الحصار

لم يكد يمضى زمن طويل على وصول غوردون حتى تحددت معالم القضية التى يصطرع حولها الفريقان ، تلك القضية التى هى فى جوهرها محاولة كل فريق ليسيطر على السودان بأكمله عن طريق إستلامه لمقاليد الحكم فى الخرطوم .

ورغم أن العوامل التى من شأنها أن تحسم الصراع كانت تكمن بالدرجة الأولى فى المسائل الإدارية العسكرية إلا أن هناك عاملين لا يجب إغفالهما : أولهما هو الاسلوب الذى اتبعه كل من غوردون والمهدى لتدعيم موقفه بكسب مزيد من التأييد مع المحافظة على قواعده الجماهيرية وتوثيق العلاقة بينه وبينها ، هذه العلاقة التى من شأنها أن تخلق نوعا من الترابط والألفة لا غنى عنها لكل من وجد نفسه فى ذلك الموقف . أما ثانى هذه العوامل فهو المسلك الذى إتخذه كل فريق تجاه الآخر ، ذلك المسلك الذى لعب دورا بارزا فى تعقيد الأزمة والوصول بها إلى نقطة يستحيل التراجع منها ، وكان لا بد أن تستخدم القوة لتحسم الصراع .

غوردون وأعوانه :

كان غوردون يستمد قوته من التأييد المعنوى والمادى الذى تسبغه عليه حكومتا الخديوى وصاحبة الجلالة ، بالاضافة إلى الدعم العسكرى الذى يلقاه من القوات الأجنبية والسودانية التى كانت ما تزال تحفظ الولاء القديم لحكام الخرطوم ، وبعض المدنيين من الأهالى ورعايا الإمبراطورية العثمانية ، ورغم أن هذا الوضع قد أمن له السيطرة على الخرطوم فى بادىء الأمر ، إلا أن فشله فى إستقطاب أى تأييد خارج المدينة جعل تلك السيطرة أمرا مؤقتا . ولقد شرع غوردون فور وصوله فى توزيع المنشورات على مشايخ

قبائل المنطقة ، والزعامات الدينية فيها موضحا لهم تفاصيل الخطة الاصلاحية التى ينوى تنفيذها .

ثم أوفد ستيورت فى رحلة إلى منطقة النيل الأبيض لذات الهدف ، ورغم أن هذه المنشورات قد فقدت إلا أن الوقائع تثبت أن المهدى كان أقدر على بسط نفوذه بين تلك الجماعات . ولا يستبعد أن يكون أسلوب غوردون فى مخاطبة هؤلاء ضمن الأسباب التى أدت لذلك الفشل ، إذ تميز أسلوب معاملته لأعوانه داخل الخرطوم بالتحامل وعدم التقدير ، فقد كان يعتقد أن فى مقدوره التصدى بمفرده لكل مشاكل الحصار ، وجاءت — بالتالى — إستفادته من الآخرين وتجاربهم ضئيلة . بل أنه سعى فى حالات بعينها للتخلص من شخصيات كان يمكنها أن تلعب دورا فعالا وعمليا فى صمود المدينة والدفاع عنها .

جاء غوردون إلى السودان وهو لا يصحب معه من الجند أو الاداريين سوى ستيوارت باشا ، وأبراهيم فوزى ، ولم تكن المهمة التى أوكل أمر إنجازها من اليسر أو الوضوح بحيث يمكن تنفيذها بواسطة هذا العدد الضئيل ، ربما توقعت حكومة الخديوى أن يجند غوردون لخدمته بعض الرجال الذين ما زالوا فى الخرطوم أمثال الكولونيل دى كتلوجن الذى وجده غوردون قائما بأمر وكالة الحكمدارية خلفا لحسين باشا سرى .

إلا أن غوردون سارع بعد يومين من وصوله يأمره بمغادرة البلاد ، إذ أن خدماته لم تعد مرغوبة . وقد برر هذا الإجراء بأن العمليات العسكرية التى كان يسهم فيها دى كتلوجن قد أوقفت . ولعله قد تسرع فى إقرار هذه الحقيقة إذ أنها ما لبثت أن استؤنفت بعد أقل من شهر من صدور هذا الأمر ، وحتى إذا اعتبر رأى غوردون هنا سليما ، فقد كان بإمكانه الإستفادة من دى كتلوجن فى النواحى الإدارية التى لا بد أن تتطلبها عملية الإخلاء بكل تعقيداتها ومشاكلها .

ولم يكن بالخرطوم ، من ناحية أخرى ، كثير من أصحاب المعرفة والخبرة فى هذا المجال ، فلم تستوعب حملة هكس باشا كل من له مقدرة على القتال فقط ، بل أولئك الذين يمكن أن يؤدوا مهاما إدارية .

كان من بين الذين صحبوا هكس باشا وقتلوا معه كل من علاء الدين باشا وكيل الحكمدارية الذى خلف عبد القادر باشا حلمى ، ومحمد بك أحمدانى مدير الخرطوم ، وبساطى بك المحسى باشكاتب المديرية . وبقى فى المدينة كل من حسين باشا سرى وكيل الحكمدارية وأبراهيم حيدر باشا لواء العسكرية . ولكن غوردون أبرقهما قبل وصوله الخرطوم يأمرهما بالتوجه فورا إلى مصر .

لم يكن دى كتلوجن الرجل الوحيد الذى شاء غوردون ألا يستفيد من خدماته ، فقد تجاهل عدة عروض تقدم بها بعض الاوربيين الذين كانوا مع المهدى للعمل معه . وقد اتخذ هذا الموقف على أساس أنه لا يثق فى الشخص الذى يتخلى عن دينه من أجل إنقاذ حياته .

وكان مفهومه أن أولئك الأوربيين قد اعتنقوا الإسلام وساروا فى ركاب المهدى من أجل حماية أنفسهم من الهلاك فأصبح الدين بالنسبة لهؤلاء رداء يمكن إستبداله فى أى لحظة وفى الوقت المناسب . ولم تفلح كل المحاولات التى بذلوها لينالوا فرصة لشرح وجهة نظرهم . فقد بعث له سلاطين بثلاثة خطابات قوبلت بالتجاهل التام ، ولم تشفع له قولته إنه قد حارب سبعا وعشرين معركة ضد الأنصار ، ولم يرتكب فى حياته ما يشين إلى الحد الذى يمنع غوردون من الرد على رسائله .

كان يمكن أن يؤدى سلاطين خدمات جليلة للمدينة سواء من الجانب الإدارى أو العسكرى ، إذ عاصر المهدى لفترة مكنته من الإلمام بتفاصيل أساليبه الحربية ونفوذه المعنوى وعدته وعتاده .

ومع تقدم الحصار واشتداد ضغط الأنصار واجهت غوردون مشكلة جديدة تتمثل فى صعوبة إيجاد شخص مؤتمن يحمل رسائله إلى مصر . وهنا طلب سلاطين من غوردون أن يبعث له بمكاتباته وسيجد هو وسيلة ما لإرسالها لوجهتها ، إلا أن غوردون قرر ألا يتيح له هذه الفرصة .

وشاء غوردون أيضا الاستغناء عن رجل كان بمثابة ساعده الأيمن ، وهو ستيورت باشا ، فدفعه لمغادرة المدينة فى وقت حرج ، ولا بد أنه لم يضع فى الإعتبار إحتياجات الخرطوم البشرية فى ذلك الوقت بالذات ، إذ كان شهر سبتمبر بداية لمرحلة أكثر عنفا فى تاريخ الحصار . فقد وصل عبد الرحمن النجومى بجيوشه وعسكر خارج بوابات الخرطوم فى انتظار جموع أخرى فى طريقها اليه . فتضاعفت بهذا مشاكل غوردون وأصبحت فوق مقدرته وحده كما اعترف بنفسه فيما بعد . وربما كان رائده فى إرسال ستيورت هو محاولة إنقاذ الآخرين من مصير مجهول ، وكان لا بد لغوردون أن يجند كل الطاقات الموجودة لديه حتى يتمكن من إيجاد مخرج لهم .

ولقد علق غوردون بعد سفر ستيورت مباشرة بأنه يحمل فوق أكتافه كل مسئولية الحصار ، فهو يشرف على الجنود وتدريبهم ، ويقوم بتفتيش الطوابى ، ويخطط للعمليات العسكرية ، ويراقب التموين والمالية ، ويشرف على المرضى وكان يحس أنه فى حاجة ماسة للمعاونة إلا أنه لا يجد بين موظفيه من يمكن الاعتماد عليه فى أداء واجب ما خارج عمله الروتينى ، وقد كشف غوردون فى عدة مواقف عن رأيه فى اعوانه ، ففى الواقع لم يكن يضع ذرة من الثقة فى العسكريين منهم ، بل أعلنها صريحة أنه خلال تجاربه الطويلة لم يلتق بضابط أو جندى أكثر ضعة من الجندى المصرى ، أما الباشبوزق الأتراك فهم عديمو الفائدة ولا أمل يرجى منهم على الإطلاق ، ثم وصف عساكر الشايقية بأنهم يفتقرون إلى الحد الأدنى من الشجاعة المطلوبة فى الجندى ، وهم فوق هذا مترددون متخاذلون ، ولا توجد فئة من البشر فى العالم بأسره يمكن أن يستنفذ الصبر مثلهم .

ولا بد للمرء أن يتساءل اذا كان هذا هو رأى غوردون فى قواته المحاربة أما كان الأجدر أن يخضع الأمر برمته للمراجعة ، إذ لا يستقيم تقييمه لهؤلاء مع تصميمه على القتال ، ولا بد أنه لم يكن يرى بارقة أمل فى احراز النصر ،وكان الاجراء المنطقى فى هذه الحالة هو قبول دعوة التسليم التى كثيرا ما وجهت اليه .

إلا أن إصرار غوردون على الاحتفاظ بالمدينة والدفاع عنها ، يثير ظلالا من الشك حول عدالة تلك الأحكام التى أطلقها . ولعل الموضوع بنهاية الأمر ،هو مبالغة فى مقدرته الذاتية ، وإعتقاده الشخصى بأنه ليس هناك من يستطيع أن يؤدى عملا بالوجه الأكمل كما يفعل هو . ولقد أثبتت الوقائع بعض الاشراقات لجنوده الذين خاضوا معارك كثيرة ضد الأنصار ،وتمكنوا من الإنتصار فى بعضها رغم كل النقائص التى تعانى منها الحامية . كذلك أظهر بعض الضباط من الشجاعة والبأس ما جعل غوردون ينعم عليه برتب وألقاب مختلفة ،من بين هؤلاء محمد نصحى باشا ،ومحمد بك طلعت ،وحسين بك بهنساوى ، وأبراهيم بك فوزى . كما أن رجلا مثل خشم الموسى بك لا يمكن أن يوصف بالتردد أو التخاذل ،فقد عمل بهمة فى الدفاع عن المدينة أثناء وجوده فيها ،وأدار ظهره لكل المحاولات التى بذلها أعوان المهدى فى منطقة الخرطوم شندى لحمله على هجر معسكر الحكومة والانضمام إليهم .

لم يسلم رجال الحكومة البريطانية بما فيهم ممثلها فى القاهرة من حملات التشهير العنيفة التى كان يشنها غوردون ، ولعل هجومه المتواصل على بيرنج قد خلق نوعا من التوتر استحال معه التعاون المثمر . « لا بد أنه قد أخفى برقياتى » هكذا كتب غوردون مشيرا لبيرنج «وهذا على أية حال لا يدهشنى» .

ولم يخف غوردون حقيقة مشاعره تجاه رجال وزارة الخارجية . وكتب يقول إنه لا يتصور وجود مجموعة من الرجال عديمو الفائدة كهولاء بما فيهم « كلارندون دربى ، دلكى ، جرانفيل ، وإنى أتعجب كيف تقوم

سياسة بريطانيا العظمى الخارجية على أكتاف هؤلاء » .

كان غوردون يتمتع بميزة شخصية جعلته يميل دوما إلى التقليل من شأن الآخرين ، رؤساء كانوا أو مرؤوسين، فجاءت ثقته فيهم ضئيلة، وتباعدت الشقة بينه وبينهم ،وفقد عاملى التضامن والتعاطف النفسى اللذين من شأنهما أن يساعدا كثيرا ،خاصة فى ذلك الموقف الذى وجد نفسه متورطا فيه .

دبلوماسية المهدى :

درج المهدى منذ بداية دعوته على انتهاج أسلوب تميز بالتواضع واحترام الغير ،فهو يسعى إلى ترغيب الآخرين فى المهدية بلا إرهاب أو عنف ، لذلك تمكن من إستقطاب تأيد جماهير القبائل السودانية التى حققت له انتصارتة على راشد أيمن ،ويوسف الشلالى ، وتضاعفت أعدادها كرد فعل لإستيلائه على مراكز الحكومة فى كردفان ودارفور ، فدحرت حملة هكس باشا فى شيكان ،وواصلت نشاطها فى أجزاء أخرى من البلاد. ولم تغر تلك الانتصارات المهدى ،بل التزم بنفس المسلك حتى يحتفظ بثقة مؤيديه إلى أن يستكملوا المهمة بفرض السيطرة الكلية على البلاد .

كانت وسيلة المهدى الاعلامية لبث الدعوة هى المنشورات العامة والرسائل الخاصة ،يبعث بها للجماعات والأفراد سواء كانوا من الذين عرفوا بتعاطفهم معه أو بعداوتهم له . وبمراجعة نماذج من هذه الخطابات يتضح أن المهدى لم يلجأ فيها لأسلوب الارهاب أو الاستفزاز ، بل كانت وسيلته الكلمة الطيبة التى لها ــ فى أغلب الأحيان ــ سحر لا يقاوم . وقد أثبت هذا الإتجاه فعاليته وإيجابيته ،فأقتنع كثير من مشايخ القبائل وزعماء الدين بصدق الدعوة عند إستلامهم لتلك الخطابات .

وكان من بين الذين إتصل بهم المهدى عن هذا الطريق محمد عثمان بن محمد الحسن الميرغنى ، زعيم الختمية المقيم بكسلا ، الذى عرف بمعارضته له ،

وظل الوحيد من بين رجال الدين فى السودان الذين وقفوا ضد المهدى وقاوموا دعوته إلى النهاية . ولم يكن رفض الختمية للدعوة سلبيا، بل حاولوا القيام علنا بنشاط مضاد . فاستجابوا لدعوة الإنكليز عندما فطن هؤلاء إلى إمكانية زج النعرات الطائفية فى المعركة ، فرافق محمد سر الختم المرغنى – الذى كان مقيما بمصر – بيكر باشا فى رحلته إلى شرق السودان فى ديسمبر ١٨٨٣ . وهناك طلبوا منه القيام بجولة يحاول خلالها إثناء رجال القبائل بالطرق السلمية عن مناصرة المهدى، فأرسل هو وخلفاؤه « إلى جميع العربان كتبا يخبرونهم فيها بأن هذا الأمر ليست إلا فتنة محضة وليس هناك المهدى، وأمرهم بالرجوع عن هذه الحالة » (١) . وقد وجه رسالة شخصية لعثمان دقنه بذات المعنى، فرد عليه هذا الأخير معرضا عن النصيحة ، وبعث بكل هذه الخطابات إلى المهدى حتى يتمكن من الوقوف على حقيقة الإمر .

بالإضافة إلى هذا كان نشاط خلفاء المرغنية ونسائهم فى منطقة شندى على أشده ، فما أن وصل أسطول غوردون الصغير المكلف بإستطلاع أنباء الحملة الإنكليزية حتى تعاونوا معه فى إجراء سلسلة من الإتصالات تهدف لحمل رجال القبائل على هجر المهدى والرجوع مرة أخرى إلى طاعة الحكومة (٢).

لم تثن هذه الوقائع المهدى عن محاولة خلق وشائج المودة المبنية على السعى لكسب محبة الله بينه وبين زعيم المرغنية، فهو يصفه بأنه من « أولوا الشرف والمقام وذوى الألباب الذين قال الله فيهم إن فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض »(٣). ويفطن المهدى إلى أن حقيقة كونه زعيما دينيا قد تخلق حساسية من شأنها أن

---

(١) دفتر وقائع عثمان دقنه، قسم السودان، مكتبة جامعة الخرطوم.

(٢) جورنال الحوادث .

(٣) المهدى إلى محمد عثمان بن محمد الحسن مرغنى ، محرم ١٣٠١ – انذارات ب ص ١٦٤، ٨.

تقف عائقا فى سبيل إستجابته لنداء المهدى .

فيضمن إحدى رسائله اعترافه بتلك الزعامة، وتقديره لها، ويخاطبه بثقة فى علمه بأنه « .... كمن يطلب رضاء الله ولو تقطعت فى ذلك إربا وفاتت عنك جميع المطالب النفسية بما تعلمه من عظمة الله ونعمته وشدة عقابه لمن وقع فيه، وكل ذلك أنت جند به وشأنك أن تربى من اتاك هكذا .... » ويقول له أيضا « .... وإنك أعظم من يقبل النصح تواضعا لله الذى خلق وأحيا واليه المرجع ومن أخص المؤمنين الذين يسمعون القول فيتبعـــون أحسنه .. » (١) وأشار اليه بوضع حد لتردده وترك له الخيار ، فأما أن يهاجر اليه حيثما يكون، أو يعين نفسه عاملا له، ويشنها حربا على الحكومة بجهته . ولكن محمد عثمان لم يحرك ساكنا ولم تبد منه إشارة تنم عن أنه ربما يتخذ موقفا مغايرا، ورغم هذا لم يشأ المهدى أن يغلظ له القول، بل ظل يدعوه « حبيبى فى الله المكرم محمد عثمان . . » ويعاتبه بأنه كان أحق بلقاء المهدى من عامة الناس، لأنه من المظنون فيهم الخير ، أولئك الذين لا يرون فى الدنيا شيئا، وإنما إشتياقهم دوما إلى ذى الجلال والإكرام (٢) . ثم كرر له ذات العرض الذى قدمه له فى الرسالة السابقة، ووعده بحسن المعاملة والأمان الشامل « ووصينا المذكور وأخوانه عليكم بملاحظتكم وشمول النظر فيكم ومنع التعدى عليكم من أى أحد كان، وعدم حصول أدنى ضرر بكم، لا فى نفسكم، ولا فى أموالكم، ولا فى أحد من جماعتكم الخصوصيين، أما اذا صمم محمد عثمان على تجاهل هذه الرسائل فسيظل الباب مفتوحا له حتى يأتيه اليقين. ويبدو أن زعيم المرغنية قد تأثر بهذه المعاملة، ولم يشأ أن يرد عليها بمواصلة نشاطه المضاد ، وكان فى هذا مكسبا للمهدى، فقد نجح على الأقل فى حمل أشد معارضيه على التحفظ، واتخاذ موقف سلبى من الدعوة .

---

(١) المهدى إلى محمد عثمان بن محمد الحسن، محرم ١٣٠١– انذارات ب ص ١٦٤–٨ .

(٢) المهدى إلى محمد عثمان بن محمد الحسن ٩ شعبان ١٣٠٢ انذارات ب ص٢٩٤–٧ .

كذلك اتصل المهدى عن طريق الرسائل بالشيخ محمد الأمين الضرير رئيس ومميز علماء السودان الذى كان مقيما فى الخرطوم وبقى فيها حتى سقطت، إلا أنه نجا من المذبحة التى أعقبت دخول الأنصار. وقد تضاربت الروايات حول الوسيلة التى أمنت له النجاة، فهناك من يقول إن أخاه عليا كان من قدامى أعوان المهدى، فسعى إلى الابقاء على حياته عندسقوط المدينة، ولكن مصادر أخرى ذكرت أنه لم يكن ثمة تفكير لدى الأنصار لقتل محمد الأمين، لأنه كان من مؤيدى المهدى، وقد أجرى إتصالات سرية مع آخرين عبر فيها عن هذا التأييد. ورغم تباين الروايات فمن المؤكد أنه قد حرر أكثر من رسالة يعلن فيها رفضه لدعوة المهدى جملة وتفصيلا، وجاءت إحدى هذه الرسائل فى وقت متأخر من الحصار (١). وقد كتب له المهدى عدة رسائل شارحا له حقيقة الدعوة التى يبدو أنها كانت ما تزال خافية عليه. ورغم أنه لا يثبت لقبه الرسمى فى هذه الخطابات إلا أنه يخاطبه بتجلة « الأستاذ المعظم الشيخ محمد الأمين جعله الله من المكرمين » (٢).

وهو يسهب فى إغرائه لقبول الدعوة وانقاذ نفسه من المهالك حين يقول « ولا تعاون الظلمة بعد هذا، فإنه لا يخفاك ما أحدثوه فى الاسلام، وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فيهم بأخبار كثيرة، ومثلك تكفيه الإشارة» وأراد المهدى أن يؤكد له اعترافه بعلمه فدعاه « سلم الشريعة المحمدية المستفيض من رحمة ربه بالعلوم النقلية » (٣). ولعل السمعة الطيبة التى كان يتمتع بها محمد الأمين كرجل دين له أتباع، ويمكن أن يؤثر تأثيرا مباشرا على موقف فئات أخرى، وهو الذى دفع المهدى لمعاودة الإتصال به والالحاح عليه ليعترف به ومن جهة أخرى، يبدو أن تلك الرسائل قد أدخلت الطمأنينة فى نفس محمد الأمين بالمهدى، لا يعاديه ولا يضمر له شرا، ولعله لهذا آثر

---

(١) الرسالة الموجهة إلى عبد القادر ابراهيم وعبد الرحمن النجومى ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق «ح».

(٢) المهدى إلى محمد الأمين انذارات ب ص ٣٢-٧.

(٣) المهدى إلى محمد الأمين، ربيع آخر ١٣٠١، انذارات ب ص ٩٤-٨.

أن يضع توقيعه على العرائض التى أرسلت سرا إليه .

حاول المهدى أيضا استمالة زعماء القبائل الذين ما زالوا على ولائهم للحكومة المصرية بالترغيب والمدح . كان على رأس هؤلاء الشكرية ، فكتب المهدى لهم ممتدحا ما عرفوا به من حسن تدبير وتفهم لأمور الدين والدنيا ، ولا يعقل أن يبقى من هو فى مكانهم بعيدا عن الدعوة الدالة إلى سكة الله ورسوله . « .... فإذا بلغكم جوابى هذا وكنتم مصدقين كما أحسنا فيكم الظن بحسب مجاويتكم وما أسررتموه من بعض الإحسان على الأهل بحسن الظن وكل ذلك لا يخلص الإنسان الا صفاه وحسن تصديقه لما عند الله الذى يوجب إيثار ما عندالله ، فإن الذين كانوا حامدين على ما هم فيه من الجاه والمال واحتجبوا عن الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كانوا ينتظرونه ويستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خوفا من فوات المال والجاه »(١) ولعل هذه الخطابات كانت ضمن الأسباب التى جعلت الشكرية ينقسمون على أنفسهم . فأعلن جزء منهم تأييده للمهدى وساهم مساهمة فعالة فى عمليات حصار الخرطوم منذ بدايتها .

وعمل المهدى أيضا ليكسب تأييد الشيخ العبيد ود بدر الذى كان يتمتع بمكانة دينية مرموقة ، ليس بين سكان منطقة الخرطوم وحدها ، بل فى أنحاء متفرقة من البلاد . فأرسل له عدة مكاتبات حاول فيها أن يستميله إلى صفه بالحسنى وبلا استفزاز . وكان أن أعترف له فى إحدى الرسائل بأنه من « أعظم من يعد ويظن بالصداقة والاخلاص لما عند الله » وجاء فيها أيضا قوله « وما عهدتك إنك تتباطأ على قدر هكذا مع إنك جد عارف بعظمة ما عند الله وخسة الدنيا وما فيها .. وإنك ممن لم يكن دينه على مرض فإن أصابه خير إطمأن به وان إصابته فتنة إنقلب على وجهه ، بل أنت ممن يطلب ما عند الله ولو تقطعت أربا أربا وفاتتك جميع المطالب النفسية لما تعلم ما هو

---

(١) المهدى إلى عبد الكريم احمد أبو سن (وآخرين) ربيع أول ١٣٠١ ، انذارات ب ص ٩١-٤ .

عند الله من العظمة التى لا توازيها جميع المطالب»(١) ويصفه أيضا بأنه « من أعظم من يقبل النصح تواضعا لله الذى خلق». «وإنك من أخص المؤمنين الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله أولوا الألباب » (٢)

وحتى عندما تجاهل الشيخ العبيد هذا الخطاب أعقبه المهدى بآخر والتزم نفس الأسلوب الذى تبعه فى الرسالة الأولى فجاء فيه « .... أنتم أهل دارية ومعرفة، وقد علمتم إذا خلا القلب من غير الله يمتلىء نورا ويفيض منه إلى خلق الله، ولا شك أن الربانى المتمسك بالله كأمثالكم شأنه هكذا وسيماه وعلاقته هى عدم الخشية من أحد غير الله، وللآن أنتم معدودون عندنا لأجل ذلك .... » (٣) . وبعد طول تردد أعلن الشيخ العبيد مساندته للمهدية، فكان لهذا أكبر الأثر فى حصار الخرطوم كما أوضحنا فى غير هذا المكان .

أما أسلوب المهدى فى معاملة أعوانه فقد ساعد إلى حد كبير فى تماسك فريقه طوال مدة الحصار ، ولم تتزعزع ثقتهم فيه وإيمانهم به قيد أنمله ، فقد بقى رجل الدين الذى ينظر اليهم جميعا كأنداد له لا يقلون عنه من حيث الفهم والدارية والمكانة عند الله طالما أنهم وهبوا أنفسهم فى سبيل تلك الدعوة وهو القائل لهم . « يا أحبابى إنكم قد صرتم من أنصار الدين وصرنا لسنا أولى به منكم » (٤) .

أما قادته العسكريون والاداريون فقد كان يضعهم فى مصاف ذاته، وقد اعتمد عليهم إعتمادا كاملا فى القيام بأمر الدعوة فى مناطق كثيرة ووجه الأهالى إلى أتباعهم وعقد لواء أمورهم لهم .

---

(١) المهدى إلى العبيد ود بدر، – انذارات ب ص ١٢٩–٣٢ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المهدى إلى العبيد ود بدر، انذارات ب ص ١٣٧ – ٩ .

(٤) المهدى إلى عمر الياس ومحمد بن العريق ومن معهما من الانصار ١٣ جمادى آخر ١٣٠٠، انذارات ب ص ٦٧–٩.

وقد كتب فى منشور تعيين أحد هؤلاء يقول « .... فنحن عيناه لأجل الجهاد فى سبيل الله ، وإقامة دين الله ، وإحياء سنة رسول الله ، وأجزناه فى قتال الترك الذين أمر الله ورسوله بقتالهم .... وحيث علمتم ذلك فإن المذكور أرسلناه اليكم لأجل أن تجتمعوا معه أنتم رهطه اجمعين ومن انضم اليكم من سائر القبائل من المسلمين أن توزره وتنصروه وتقوموا معه بكامل المهمة والمروة .... فأطيعوا أمره ونهيه فمن أطاع أمره فقد أطاعنى ومن خالفه فقد خالفنى .... » (١) .

وقد جاءت مكاتباته مع قادته العسكريين تحمل اعترافا كاملا بجهودهم ، فقد ساهمو بكل طاقتهم لاحراز النصر ، وخاضوا المعركة تلو المعركة بدافع الإيمان الخالص فخاطبهم المهدى بقوله « فجزاكم الله خيرا وإحسانا وشكر سعيكم وأحسن مآلكم ومالكم فإننا أحبابى شاكرون لفضلكم وعارفون لقدركم وندعو لكم بالخير والبركة وأنتم عندنا كبعض الجسم من نحو عين ويد وقد قرت بكم أعيننا .... » (٢) . ولعل هذا الاسلوب قد دفعهم لبذل المزيد من الجهد والتفانى لاستكمال سيطرتهم على البلاد .

كان بالطبع بين قادة المهدى من يخطىء ويلحق الضرر بنفسه وبالآخرين ، وكثيرا ما كان المهدى يتصدى لمعالجة هذه الحالات بشخصه ، فجاء اسلوبه خاليا من غلظة فى القول أو اللوم العنيف ، مثال هذا ما حدث لمحمد النيل حامد عامله فى الجزيرة الذى تهاون فى بعض شئون الدين . فما كان من المهدى إلا أن بعث له بخطاب جاء فيه « .... حبيبى منذ أنك من أجل سبق وتحقق عنا وعلم أن الراحة والعزة فى دار الأبد وأن ارادة العلو والكثرة هو عين الانقلاب من سواء الصواب ، ويا حبيبى حيث أن لك اتباعاً بكثرة فعاين بهم ماتطلبه عند ربك ، ولا تعاين لطلب نفسك فى وقتك فإن ذلك عرض

---

(١) المهدى إلى كافة قبيلة دار محارب غرب ، ذى الحجة ١٢٩٩ ، انذارات ب ص ٤٥-٦ .

(٢) المهدى إلى عبد الرحمن النجومى ، وعبد الله النور ، ومحمد عثمان أبى قرجة . انذارات ب ص ٢٢٥ — ٣٧ .

زائل وقصد عندالله عاطل، وحيث انى أعهد فيك الصفا واتباع سكة المصطفى وتعلم كثرة أتباع بعض الصحابة ولصدق طلبهم ما عند الله إتبعوا من هو دونهم أتباعا وشجاعة وتدبيرا وذلك لصدق الطلب لما عند الله .. فيا حبيبى عامل اخوانك بالمعاملة التى ترجى بها ما عند الله وسارع بذلك إلى مغفرة الله ومحبته فأنك محتاج إلى ذلك » (١) .

أتى هذا المسلك الذى انتهجه المهدى بأطيب النتائج ، فقد كسب به الرجال الذين اطمأنوا اليه لما عبر عن ثقة فيهم واحترام لهم . فازداد إيمانهم بالمهدى وجدوا فى مؤازرته وهيأوا له سبيل النصر باستعدادهم للتضحية بأنفسهم وأولادهم وممتلكاتهم ،فشكلوا قوة دفع هائلة تمكنت فى النهاية من فرض سيطرتها على السودان كله .

العامل الثانى :

أما العامل الثانى الذى كان له أثره فى المعركة الفاصلة ، فهو مسلك كل فريق تجاه الآخر وأسلوب معاملته له، كما كشفت عنها الرسائل التى تبودلت بين أمراء المهدى وغوردون وقادته،وبين المهدى وغوردون أيضا . لجأ فريق غوردون إلى الإستفزاز ،والتحقير ، وهى فى الغالب الأعم الأساليب التى يستخدمها من هو فى موقف الضعف ، فى حين حاول فريق المهدى تهدئة الخواطر باللين قبل الشدة . إلا أن إصرار الجانب الآخر على موقفه دفعهم إلى تصعيد عملياتهم العسكرية ومواصلة الضغط على المدينة حتى يتمكنوا من الاستيلاء عليها بالوسيلة التى اختارها حكامها .

غوردون وأمراء المهدى :

ونشأت علاقة بين غوردون وأمراء المهدى طوال مدة الحصار ، كشفتها لنا جملة الرسائل التى تبادلوها . ورغم أن بعض هذه الخطابات وجد مع يوميات غوردون إلا أن من المرجح أن يكون بعضها قد فقد خاصة تلك

(١) المهدى إلى حمد النيل حامد ١٣٠١، انذارات ب ص ٢٢١ - ٣ .

التى تبودلت فى الستة أشهر الأولى من الحصار . بين الرسائل التى وجدت مع اليوميات إثنتان من الشيخ عبدالقادر أبراهيم مع ردود غوردون اليه ، ولأن هذه قد بعثت خلال سبتمبر فلم يتمكن من وضعها مع الوثائق التى حملها ، ولعله قد فعل بالنسبة لتلك التى وصلته قبل هذا التاريخ والتى أشار اليها الشيخ عبد القادر فى رسائله الملحقة باليوميات (١) .

كما أن نصحى باشا قد ورد فى تقريره ملخصا لأحد خطابات الشيخ عبد القادر ، ومع مقارنتها مع النصوص يتضح أنها لا تطابق أيا منها ، فلا بد أنه يشير إلى رسالة أخرى ما زالت مفقودة ، وجدت أيضا مع اليوميات ثلاث خطابات من عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور إلى غوردون مع رسالتين بعث بهما غوردون إلى عبد الرحمن النجومى .

تميزت هذه الخطابات بأربعة مظاهر ، أولها أن أمراء المهدى أبدوا دائما حرصا على مخاطبة غوردون بتقدير واحترام . فاثبتوا لقبه الرسمى ، وأضافو عبارات أخرى للتحية فى بعض الأحيان ، ثانيها أنها قد تضمنت نداءات صريحة لغوردون ليسلم المدينة بلا قتال . ثالثها أنها قد أعطت غوردون وعدا قاطعا بعدم التعرض له أو لسكان الخرطوم بسوء فى أرواحهم أو ممتلكاتهم فى حالة التسليم . ورابعها أنها لم تورد بشكل صريح مسألة اعتناق غوردون للدين الاسلامى كشرط مسبق لنجاته أو نجاة من معه .

فخاطبه عبد القادر ابراهيم فى رسالته الأولى بقوله « سعادة غوردون باشا والى عموم السودان » (٢) وإثبات لقب الوالى هنا لا يعنى بالضرورة أنه يعترف به بصفته هذه ، الا أنه أراد إثباتها لأنها لقبه الرسمى ولعل استجابة غوردون لهذه الروح كما كشفها رده للشيخ عبد القادر جعلت الأخير يكتفى فى رسالته الثانية بـ « غوردون باشا » فقط (٣) والتزم عبد الرحمن النجومى

---

(١) عبد القادر ابراهيم إلى غوردون ، غاية ذى القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب .
(٢) عبد القادر ابراهيم إلى غوردون باشا ، ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ .
(٣) عبد القادر ابراهيم إلى غوردون باشا ، غاية ذى القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب .

وعبد الله بمخاطبته بـ « غوردون باشا » فى أولى رسائلهما (١) وفى أخرى بـ « غوردون باشا عزيز بريطانيا والخديويه » (٢) . ورغم أنهما قد اكتفيا فى ثالثة بذكر إسمه مجردا إلا أنهما امتدحاه فى ذات الوقت بالقول « أنت من أهل الفطانة والمعرفة العقلية » (٣) .

ولقد أوضح الأمراء فى أكثر من رسالة أن المعركة ليست بينهم وبين غوردون ، بل اعترفوا له بتعاطفه مع السودانيين بصفة عامة كما تجلى فى سابق زياراته للبلاد ، فهم لا يضمرون له حقدا وليس بينهم وبينه عداوة شخصية . وقد ورد فى إحدى رسائل الشيخ عبد القادر قوله « .... ومما نعلمكم به سعادتكم أن ما أنتم عليه من الحلم والشفقة على الأهالى واكرامكم لنا نحن بالأخص معلوم عندنا ومثبوت بالفعال من إبتدى حلولكم بالسودان فى المرات الأولى والثانية هذه وما أعلنتم به بالمنشورات الصادرة منكم حال حضوركم بالسودان هذه الدفعة صار معلوم عندنا وعند الخاص والعام » (٤) .

بدأ جليا أن الهدف من تلك المخاطبات كان حمل غوردون على التسليم وتجنب إراقة الدماء . وظل الأمراء يكررون هذه النداءات طوال فترة الحصار . فكتب الشيخ عبد القادر يقول « .... وكنا قبل ذلك خاطبنا سعادتكم بالمرات العديدة وفى كل منها أوضحنا ما فيه الكفاية لمن له قلب وفى جميع المكاتبات أوضحنا لكم طريق السلامة والنجاة ، فلم تقبلوا ذلك ولم تنظروا إلى عواقب الأمور فيما دعوناكم إليه لأنه سبب لسلامتكم من

---

(١) عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور ، ٢١ ذو القعدة ١٣٠١ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج .

(٢) عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور إلى غوردون باشا ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د .

(٣) عبد الرحمن النجومى وعبدالله النور إلى غوردون ٣ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د .

(٤) عبدالقادر ابراهيم إلى غوردون باشا ، ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ .

عطب الدنيا والآخرة أنتم وأهل البندر لأن كثيرا منهم أحبابنا وأهلينا وقد تركتم ما أوضحناه لكم مرارا وتكرارا وصرتم تسمعون كلام العلما ... » .

وحاول الشيخ عبد القادر أن يقنع غوردون من جانبه بصدق دعوة المهدى، وأنه بحق المذكور فى الكتب السماوية ولا مجال لنكرانه وإدارة الظهر له، وهذا هو السبب الذى يقعده عن مساندة غوردون . ومن ثم أصبحت المفاضلة عنده بين خيارين : أما الانحياز إلى مباهج الدنيا التى يعرضها غوردون فى شكل إحسانات وإنعامات ، وأما اختيار سكة الله ورسوله ، فأختار الأخيرة » لم يتطرق الشيخ عبدالقادر إلى دين غوردون أو اعتبار التخلى عنه شرطا مسبقاً للتسليم . بل يخطره بأنه قد حصل على تفويض من المهدى بالمحافظة على حياته وضمان سلامته الشخصية (١) ولن يتم هذا إلا فى حالة تسليمه . يقول الشيخ عبد القادر « .... بل النافع الرجوع للحق ونبذ الباطل بجميع أصنافه وتسليم الأمر لهذا الإمام عليه السلام، فلا نجاة إلا فى ذلك، ولا سلامة إلافيما هنالك، فإن كانت لك محبة معى كما حكيتم فأقبلوا قولى وانتفعوا به وسلموا أنفسكم والمسلمين .. » (٢) إلا أنه يعود فى رسالة أخرى لينقل له استعداده لتأمين سفره إلى بلاده مع ستيورت باشا وسكرتيره ابراهيم بك رشدى متى ما أعلن تسليم المدينة له، ومن جهة أخرى فقد أرسل عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور عدة نداءات لغوردون ليسلم. وأكدا له أن المهدى يعطيه وعداً بعدم التعرض لحياته أو حياة السكان أو ممتلكاتهم أو أموالهم . ولن يؤثر ما سبق من صدام مسلح بين الفريقين فى وضعهم مستقبلا فى دولة المهدية بل سيتمتعون بنفس الحقوق ويلتزمون بنفس الواجبات (٣) .

---

(١) عبدالقادر ابراهيم إلى غوردون باشا، ١٨ ذى القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤)ملحق أ.

(٢) عبد القادر ابراهيم إلى غوردون باشا، غاية ذى القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) . ملحق ب.

(٣) عبد الرحمن النجومى وعبدالله النور إلى غوردون باشا، ٢ ذى الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د.

ولكن استجابة غوردون جاءت على غير ما رغب الأمراء . حيث أوضح لهم أنه ليس على استعداد لمقابلتهم بتلك الروح التى برزت فى خطاباتهم ناهيك عن قبول نداء التسليم ، فكانت رسائله استفزازية تحمل بين طياتها عبارات التحقير والاستهانة بهم . ولم يحاول فى أى منها الإشارة إلى المهمة التى أوفد من أجلها ، بل أبدى إصراره على الدفاع عن المدينة مهما كلفه ذلك ، وأضاع بهذا الفرص المتكررة التى أتيحت له لإنقاذ نفسه ومن معه .

حرص غوردون على صياغة تلك الرسائل بنفسه مستعينا بقاموس لديه (١) فجاءت أغلبها خالية من عبارات التحية والمجاملة التقليدية. فهو، يخاطب الشيخ عبد القادر بأسمه المجرد (٢) ويشير إلى المهدى بـ « محمد أحمد » (٣) . وفى ردوده على عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور يتجاهل الأخير تماما ويوجه حديثه للنجومى وحده (٤) وعندما وصله خطاب من محمد عثمان أبى قرجة لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه، لأنه حسب قوله لا يتراسل مع العبيد . ثم نعته فى رسالة للنجومى بأنه سكير لا يتوقع منه أن يفلح فى شيء خارج هذا المضمار (٥) ولم يحاول غوردون إخفاء حقيقة رأيه فيهم ، فهم مجموعة لصوص وقاطعو طرق «... وإن كان إنسان له رغبة أن يعمل درويشاً فنحن لا نمنعه ومن جهة العلماء الذاكرين عنهم بأنهم كذابين وكلامهم جميعه فى غير محله فأنهم ما قالوا شيئا الا بحسب المنصوص عندهم فى الكتب بل وجميع علماء الإسلام مصرحين بذلك ولم يرضوا أن يناموا على الأرض ويسلبوا الدراويش أمتعتهم وعنقريبات نيامهم....»(٦)

---

(١) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج.

(٢) غوردون إلى عبدالقادر ابراهيم، بعد ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ.

(٣) ملحق «أ» ، «ب» ، «ج».

(٤) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ، ملحق ج ، د.

(٥) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ، ٢ ذو الحجة (١٣٠١) ٢٤ سبتمبر ١٨٨٤ ملحق د.

(٦) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ، ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج.

أما محمد الخير عامل المهدى على بربر فقد استولى على الأموال العامة ليحولها لمنفعته الشخصية ، ووضح لأنصاره أن « الأمور كلها غش فى غش » (١) .

لم يشر غوردون إلى أنه جاء للسودان لينفذ سياسة الإخلاء وسحب الجند والمدنيين إلى مصر ، بل أسبغ على نفسه صفة الحاكم على البلاد « معين فيها .... من طرف دولتين عظام ولذلك مجبور على رؤية مصالحها بحسب ما تقتضيه شئون صداقتى وشفقتى على المسلمين » (٢) . وهو يرهبهم بأن الحكومتين اللتين أوفدتاه قد أرسلت بجيوشها لضرب العصاة والمتمردين وإدخالهم فى الطاعة قسرا ، وقد حاول معهم هذا الأسلوب لعله ينجح فى حملهم على التراجع . فقال فى رسالة أخرى « ورد لنا جواب من رئيس جيش الإنكليز بأن الجيوش الانكليزية التى وصلت لدنقلا قتلت الشريف الهندى والشريف محمود اللذين كانا أرسلا من طرف محمد أحمد لمحاصرة دنقلا ، وقتل كافة من معهم من الدراويش ومتوجهين دوغرى — وأن الوابورات التى أرسلناهم بالاسبوع الماضى وصلوا لبربر فوجدوها قاعا صفصفا ودخلوا فيها واستلموا الاثنين وابورات الموجودين فيها من سابق ، وأن محمد الخير هرب من هنا » (٣) . أراد غوردون أن يشعلها حربا نفسية على الأنصار ، فكان يعلنهم من حين لآخر بأنه سوف يشرع فى ضربهم بكافة أنواع الأسلحة بما فيها الصواريخ التى لا بد ستحدث هزة أرضية عنيفة يخشى عليهم من نتائجها .

وكان غوردون يهدف من وراء تلك الرسائل إلى زعزعة ثقة الأنصار فى أنفسهم ، فهم لن يتمكنوا من استلام مقاليد الحكم لأنهم لا يملكون السند الدينى للدعوة ، إذ أفتى العلماء بأن محمد أحمد لا يمت بصلة من قريب أو بعيد إلى المهدى المذكور فى الكتب السماوية ، وهم لا يملكون السند

---

(١) غوردون إلى عبد القادر ابراهيم ، ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب .

(٢) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج .

(٣) غوردون إلى عبد القادر ابراهيم ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب .

الإجتماعى لأنهم ينتمون لطبقة من الدرجة الثانية ، وهم بالاضافة إلى هذا لا يملكون المقدرة العسكرية لمجابهة دول عظام تتفوق عليهم كثيرا برجالها وعتادها. لم يدخل هذا الاسلوب الرعب فى نفوس الأنصار — كما تصور غوردون — بل ساعد على إزدياد حدة التوتر. فقد تأكد لهم أنه لن يستجيب لنداء التسليم ، فشرعوا فى ممارسة مزيد من الضغط على المدينة حتى يستولوا عليها عنوة.

أمراء المهدى وقادة غوردون :

لعل الأسلوب الذى برز فى رسائل غوردون من جهة وأمراء المهدى من جهة أخرى كان يعكس فلسفة النظام الذى يمثله كل فريق. ومثلما برز هذا الإتجاه فى الخطابات المتبادلة بين غوردون والأمراء والمهدى برز أيضا فى الرسائل المتبادلة بين رجال الحكومة والأنصار. فجاء هذا ليزكى نار الاختلاف ، فيزداد كل فريق تمسكا بموقفه. ولعله من المفيد هنا مراجعة بعض تلك الرسائل وهى تشمل المجموعة المتبادلة بين محمد نصحى باشا ورجال اسطوله الصغير المرابط فى جهات شندى والمتمة وأمراء المهدى المنوط بهم القيام بأمر الدعوة فى تلك الجهات. بالإضافة إلى خطابات من أحمد المصطفى الأمين ، والصديق الطاهر ، وحامد ولد إدريس الشايب ، عمال المهدى فى منطقة جنوب أم درمان ، إلى خشم الموسى بك قائد الباشبوزق الشايقية وعثمان بك قائد طابية أم درمان.

تميزت هذه الرسائل بظاهرتين ، أولهما أنها فى جملتها التزمت الموضوعية فى النقاش وصيغت بأسلوب خال من أى استفزاز أو غلظة فى القول. فقد سعى الأمراء لكسب رجال غوردون بالترغيب والتأليف. ثانيهما أنها حرصت على تأكيد الأمان وحسن المعاملة لكل من يعلن مساندته لهم بصرف النظر عما ارتكبه فى الماضى فى حقهم.

فكتب محمد الخير عبد الله خوجلى خطابا موجها إلى « الملك خشم

الموسى بك وسعادة محمد نصحى باشا » (١) حاول فيه إقناعهما بأن المهدى ليس بمدع ولا محتال وإنما هو قائم بدعوته رفقا بالمسلمين ومن أجل إنقاذهم من المهالك التى ترددوا فيهـا ردحا من الزمان . ويظهر واضحا هنا تأثر محمد الخير بأسلوب المهدى فى الكتابة حيث يركز على تبخيس هذه الحياة الدنيا والاستخفاف بها فهى « ليست بدار البقاء بل هى دار الفناء والعاقل يتزود فيها بالتقوى » (٢) ويقول أيضا « إنى أدعوكم يا عباد الله إلى الدين الخالص والانضمام لحزب الله ... وأنه الإمام المهدى ومن شك فيه فقد كفر .... لا يدعو الناس إلى الرياسة والجاه إنما لعبادة الله » .

وأكد لهم محمد الخير فى كل رسائله حسن المعاملة وعدم التعرض لهم بسوء متى يتم التسليم « وإن سلّمتم سلِمتم ولكم الأمان فى ذاتكم وممتلكاتكم ونسائكم ولكم منا الإكرام ومزيد الإحترام ولا يمسكم سوء ولا مكروه » .

ولقد كتب أمراء شندى وبعض سناجق الشايقية خطابات مماثلة إلى محمد نصحى باشا ومرافقيه أوضحوا فيها أن القضية ليست بأية حال بينهم وبين قادة الإسطول ، فهم أحباب وإخوة فى الدين ، وليس هناك ما يدعوهم للاقتتال. ثم حاولوا عرض المشكلة على أساس أنها معركة بينهم وبين الإنكليز وعلى الفريقين أن يتحدا فى مواجهتهم . أما تطلعهم لحملة الإنقاذ فأمر غير مقبول ، وينبهونهم فى ذات الوقت لما حدث فى بلادهم بالقول « يا أيها الضباط والعساكر من بر مصر تذكروا عدوان الإنجليز على بلادكم وما حدث لعرابى وتملكهم على بلادكم وأرضكم وأموالكم .... » (٣) .

وقد أعطاهم الأمراء أيضا الأمان على أنفسهم وأموالهم ونسائهم . أما قاضى شندى محمد أحمد عوض السيد فقد حرر رسالة إلى حواره السابق

---

(١) محمد الخير عامل المهدى لعموم مديرية شندى إلى الملك خشم الموسى ، جورنال الحوادث.
(٢) محمد الخير عامل المهدى لعموم مديرية شندى إلى الملك خشم الموسى، جورنال الحوادث.
(٣) كافة الأمراء والمقاديم إلى سعادة محمد نصحى باشا ، جورنال الحوادث.

خشم الموسى معبرا فيها عن شفقته عليه لبقائه خارج حظيرة المؤمنين بالمهدية، ويدعوه للإسراع بالانضمام، مؤكدا له أن هذا سيقابل بالاغتباط والترحاب.

ويبدو أن المهدى كان حريصا على كسب رجال الاسطول لما، كان يمكن أن يحمله تأييدهم له من سند مادى ومعنوى، فقد تمركزوا هناك فى ثلاث بواخر تحمل من الجند والذخيرة ما يفيده كثيرا. بالإضافة إلى أن إعلان تأييدهم سيفقد الخرطوم هذه الفرقة الاستطلاعية التى كانت بانتظار حملة الانقاذ. ومن ثم فقد وجه المهدى الخليفة عبد الله ليحرر لهم خطابا ضمن إطار محاولات الاقناع التى كان يقوم بها أمراء شندى، فوجهه إلى « أحبابه في الله المكرمين خشم الموس بك وكافة من معهم من الضباط والعساكر » ولقد حوت الرسالة مناقشة دينية على نمط تلك التى يجريها المهدى عادة فى رسائله. فهو يبشر بزوال الدنيا وخستها وحقارة ما فيها من جاه ومال، والعاقل من عمل لآخرته لأنها دار الخلود الأبدى وفى خاتمتها يعطيهم الخليفة الأمان على أرواحهم وأموالهم.

ووجه المهدى أيضا خطابا إلى هذه المجموعة، ورغم كل ما أبدوه من تعنت وإصرار على موقفهم فما زالوا « أحبابه فى الله المكرمين خشم الموسى بك ومن معه من الضباط والعسكر بجهة شندى » (١). وحاول إقناعهم بالترغيب والتأليف دون أن يتوعدهم أو يغلظ لهم القول فيقول « .. إعلموا وتحققوا أحبابى أنى لست قايما هذا المقام إلا لدعوة الخلق إلى الله وسعادتهم الكبرى ونيل مراتبهم العلى .... ولا أريد جاها ولا غناء ولا مال إلا غناء بالله، فلا تظنوا إنا نطلب أموالكم وما ملكت أيديكم، إن سلمتم لنا وصرتم من أصحابنـــا .... » ويعدهم : « إن سلمتم عفوناكم ورضينا عنكم وكنتم من الأصحاب المــكرمين الذين لهم عند الله حسن المكانة الأبدية ». ولقد جاءت رسالة أحمد المصطفى إلى « سعادة لوا وقومندان وابورات السفرية محمد نصحى باشا » تحمل كذلك مناقشة لمسألة علاقتهم بالمشكلة

---

(١) المهدى إلى أحبابه في الله، جورنال الحوادث.

القائمة فى السودان . فهم يتعاونون مع الانجليز ضد إخوتهم فى الدين مع العلم بأن هؤلاء قد دخلوا بلادهم عنوة واغتصبوا الحكم من « الخديو وسيروه جسم بلا روح » . واختتم رسالته بالوعد أيضا « فإن سلمتم لكم مالنا وعليكم ما علينا وأنت وأولادك وما لك فى ذمتى ولو ضاعت منك إبرة تدفع من بيت المال » .

ولكن محمد نصحى باشا وخشم الموسى ومن معهما قرروا تجاهل الروح التى بدت فى رسائل الأمراء ومقابلتها بأسلوب الاستفزاز والتحقير ، ولم يفكرا لحظة واحدة فى الاستجابة لنداء التسليم ، وكان لقب أمراء المهدى السائد فى رسائلهم هو « الأشقياء » فى حين يوصف المهدى بالدجال تارة والشقى المتمهدى تارة أخرى . خاطبوا الأمير أحمد حمزة بقولهم « .... نحن لا نقبل مثل هذه المخادعات وتلفيقاتكم هى أوهى من بيت العنكبوت ، ولا ترسلو لنا بعد هذا مخاطبات الا إذا كانت بشأن دخولكم فى الحكومة .... وإن قبلتم نصيحتى دعوا الناس يذهبوا لمواشيهم » . لم تكن مسألة التسليم واردة على الاطلاق ، وقد وصفها خشم الموسى بأنها بعيدة « بعد المشرقين » حتى لو وعده المهدى بتنصيبه حاكما على البلاد من أقصاها إلى أدناها ، أو حمل اليه كل ما تحويه خزائنه من مال .

ويبدو أن الشيخ أحمد المصطفى قد درج على الاتصال ببعض سكان المدينة عن طريق الرسائل . فبعث بخطاب إلى خشم الموسى بك الذى تربطه به صلة النسب ، وآخر لأحمد بك على جلاب مدير الخرطوم ، واحد الذين وضعوا توقيعاتهم على العريضة التى بعثت بها مجموعة من أعيان المدينة إلى المهدى يؤكدون فيها ولاءهم له . سلم خشم الموسى رسالته لغوردون فالحقها بيومياته ، ولكن يبدو أن جلاب قد آثر الاحتفاظ بها ، وسواء أن بعث أى منهما برد أم لا فهو أمر لم يثبت حتى الآن .

ركز أحمد المصطفى فى رسالته لخشم الموسى على الجانب الدينى

تماما كما يفعل رفاقه . «فهذا الامام هو المهدى المنتظر الذى يتوجب على كل المؤمنين اتباعه وتسليمه زمام أمورهم . أما ما يردده علماء الخرطوم فهو قول باطل من أساسه ولا يحق للعقلاء الاستماع اليه». وجاء فيها أيضا قوله « ولا زلتم فى بالنا حتى سعينا لكم فى أخذ الأمان وأنتم داخل الخرطوم فوجدناه لكم ولأموالكم وأولادكم وأنفسكم ومن تبعكم صريحا بختم ورسم لا يعقبه مكر ... وكنت مجتهدا فى ادخال تلك البشارة اليكم داخلا فما وجدنا سبيل فأجاب الله دعانا وما خيب رجانا فيكم » (١) ويبدو أنه قد فطن إلى إمكانية الإستفادة من العتاد الحربى الذى يملكه أتباع خشم الموسى داخل المدينة ، فطلب اليه أن يخرج لملاقاته بما معه من ذخيرة وسلاح ، أما إذا تعذر ذلك فليترك كل شىء حتى ممتلكاته الشخصية التى بالتأكيد سترد اليه عند فتح المدينة . وربما اعتقد الشيخ أحمد المصطفى أن تردد خشم الموسى يعود إلى تخوفه من انتقام الأنصار ، إذ كان هو أحد قادة غوردون الذين اشتركوا فى عدة عمليات ضدهم فسد له هذه الثغرة بقوله « وما جرى بينكم وبين الفقراء بالشرق لا تخشوا منه ، فإنه لا شك فى عفو الإمام عليه السلام ، وما فعلتموه أنتم لا يكون سيئة من سيآت صالح الملك بقتله لليعقوباب وإنتهابه لأموالهم وأولاد المكاشفى وسبيه لأولادهم ومالهم مع كونهم أشراف ، فمع ذلك كله الآن هو أقرب الناس من الامام ، وعفا عنه وأعطاه صريح الأمان ، فلا تحسبوا لما جرى منكم حسبة فاحضروا الينا ولو سرا » .

كتب الصديق الطاهر وحامد ولد إدريس الشايب خطابا إلى عثمان بك قائد طابية أمدرمان ومن معه من ضباط وعساكر أوضحا فيها أن المعركة ليست ضدهم فهم « أخوان فى دين الله وجيران وماكلين عيش وملح»(٢) . وحاول الكاتبان أيضا اقناع العساكر المصريين بوجوب تأييدهم للهمدى فقد

(١) احمد المصطفى الفقيه الامين إلى خشم الموسى الملك ١٩ ذو القعدة ١٣٠١ (١١ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج .

(٢) الصديق الطاهر وحامد ولد أدريس الشايب إلى عثمان بك ، ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ى .

سبق أن قبل السودان الحكم التركي ردحا من الزمن، وعليهم الآن أن يقبلوا بالمهدية . بالاضافة إلى أن حكم الأتراك قد زال من بلادهم نفسها وآلت الأمور إلى الانكليز .

وفى الختام وجهوهم للانضمام لمعسكر الشيخ أحمد المصطفى، حيث يشملهم قرار المهدى الذى نص على أن كل من خرج لملاقاته من أم درمان أو الخرطوم مع الشيخ المذكور فعليه وعلى أولاده وأمواله أمان الله ورسوله . أما إذا رفضوا هذا العرض فما عليهم الا تسليم الطابية والتوجه إلى وطنهم وستقدم لهم كافة التسهيلات حتى تتم الرحلة بأمان .

بذل أمراء المهدى – إذن – جهدا من أجل اقامة جسر بينهم وبين قادة غوردون عن طريق الحوار الموضوعى والتفاهم المنطقى حول القضية القائمة . وكان يحدوهم الأمل فى أن يستجيب هؤلاء لتلك النداءات المتكررة وينضوا تحت لواء المهدية . ولكن القادة تمسكوا بموقفهم فعبر بعضهم عن عظيم استخفافه بالدعوة نفسها ، وآثر آخرون الصمت المطبق فلم يكلف نفسه حتى مشقة الرد على الرسائل التى بعثت اليهم .

مسلك المهدى كما كشفته رسائله لغوردون :

تمكن غوردون من الوقوف على نوايا المهدى المتعلقة بسياسته نحو البلاد من مصادرها الأصلية دون أن تتعرض لتحريف أو تشويه، إذ كانت لديه المعلومات والحقائق التى ضمنها المهدى فى الرسائل التى بعث بها له . وقد كان فى هذا فائدة جمة ، لأنها أعطته أساسا بإمكانه أن يقرر على ضوئه ما ينوى اتخاذه من خطوات فيما يتعلق بموقفه الشخصى أو بمصير البلاد السياسى بصورة عامة . وكان إتجاه المهدى هذا منسجما تماما مع ما درج عليه فى علاقته مع قادة المراكز الحكومية ورؤساء حملاتها العسكرية فلم يستثن غوردون من هذا . ورغم أن المبادرة جاءت من غوردون الا أن استجابة المهدى كانت سريعة فتوالت خطاباته بصورة منتظمة طوال فترة

الحصار ، فكتب له آخرها قبل أسبوعين فقط من سقوط المدينة .

بعث المهدى لغوردون بثمان رسائل حملت أولاها تاريخ ٧ جمادى أول (٥ مارس ١٨٨٤) . حيث كان المهدى آنذاك بالأبيض (١) . تضمنت تلك الرسالة بوصفها أول إتصال من طرفه وجهة نظره فى كافة القضايا المتعلقة بالدعوة موضحا طبيعتها ومراميها بصورة شاملة ، بالإضافة إلى تعليقاته على بعض ما ورد فى رسالة غوردون الأولى إليه ، فجاءت طويلة تحوى ١٤٥٠ كلمة تقريبا. وقد بعث المهدى معها «كسوة الزهاد» وحرر لغوردون بضعة أسطر عنها . ولأنها كتبت فى صيغة الخطاب فقد رأى بعض المؤرخين تصنيفها كرسالة قائمة بذاتها (٢) ، ثم أرسل المهدى برسالته الثانية من الرهد فى شوال ١٣٠١ هـ (بعد ٢٧ يوليو ١٨٨٤) (٣) وتقارب هذه فى مضمونها الرسالة الأولى ، فهى تحمل شرحا تفصيليا للدعوة ونداء لغوردون لإعلان تأييده ، فجاءت فى ما يقارب ١٢٠٠ كلمة . بدأت مسيرة المهدى إلى الخرطوم بعد ذلك بفترة وجيزة ، ولم يتصل بغوردون حتى وصل إلى مشروع القيعة بالقرب من أم درمان ، فبعث برسالته الثالثة بتاريخ ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٢ أكتوبر ١٨٨٤) (٤) ذكر المهدى فيها نبأ إغتيـــال ستيورت وقافلته ، وأورد مقتطفات من المكاتبات التى كانت بحوزته حتى يجزم غوردون بصدق قوله . ولا بد أن هذه الرسالة قد أثرت تأثيرا كبيرا فى نفسية غوردون ، إذ انهار آخر أمل له فى الاتصال بالخارج لتبليغ المسؤولين ما تعانيه المدينة . وبعد أن استقر المهدى فى ديم أبى سعد بعث برسالة رابعة تحمل تاريخ ١ صفر ١٣٠٢ (١٩ نوفمبر ١٨٨٤) (٥) ولأنها كانت تحمل نبأ وصوله إلى الخرطوم فقد توقع أن يهتم غوردون بالرد عليها ، فبقى زهاء الخمسة أسابيع فى

---

(١) المهدى إلى غوردون ، انذارات ب ص ١٠٩–١٨

(٢) Holt, "The Sudanese Mahdia and the Outside World," *BSOAS* XXi / 2 (1958) pp. 276–90.

(٣) المهدى إلى غوردون ، النجومى ٢٦ .

(٤) المهدى إلى غوردون ، ملحق ج .

(٥) المهدى إلى غوردون ، نعوم شقير ص ٨٤٦–٧ .

إنتظار تلك المكاتبة . وعندما لم تصل بعث له بأخرى فى ٩ ربيع أول ١٣٠٢ (٢٧ ديسمبر ١٨٨٤) (١) .

كانت استعدادات الأنصار قد شارفت نهايتها، ولم يعد هناك ما يبرر الانتظار ، فسارع المهدى ببذل محاولة أخيرة لإقناع غوردون، فجاءت ثلاث رسائل متتالية تحمل تواريخ ١٩ ـ ٢٠ ـ و٢١ ربيع أول ١٣٠٢هـ (٦ ، ٧ ، ٨ يناير ١٨٨٥) (٢) .

خاطب المهدى غوردون فى كل الرسائل بـ « غوردون باشا » مثبتا بهذا لقبه الرسمى رغم عدم اعترافه بالألقاب ، وإصداره منشورا يحذر الأنصار من إستعمالها. إلا أنه لم يشأ أن يحذفها من إسم غوردون خشية من سوء التفسير ، أويضيف إلى هذا اعترافه به كممثل للحكومتين المصرية والإنجليزية ، فهو « عزيز بريطانيا والخديوية » (٣) . وحرص أيضا فى غالبيتها على طلب الدعاء له ليأخذ الله بيده فهو يقول « هداه الله إلى الطريق القويم » (٤) و « غوردون باشا وقاه الله كل شر » (٥) و « غوردون باشا هداه الله إلى طريق النجاة قبل أن يتلاشى » (٦) .

ولقد أكد المهدى فى أولى رسائله إلى غوردون حقيقة أنه « المهدى المنتظر خليفة رسول الله » (٧) الذى اختاره الله للقيام بهذه الدعوة، فهو ليس « بمتحيل ولا مريد ملكا ولا جاها ولا مالا إنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين

---

(١) المهدى إلى غوردون، اثار/١٧٨، يؤرخ يوسف ميخائيل هذه الرسالة ١٩ صفر ١٣٠٢ (٧-٨ ديسمبر)، يوسف ميخائيل، ص ١٩٥-٧ .

(٢) المهدى إلى غوردون/ انذارات ب ص ٢٥٢، ٣٢٣ ٢٥-٤، ٢٥١-٢ نعوم شقير يؤرخ خطأ أولى هذه الرسائل فى ٩ ربيع أول ص ٨٥٦.

(٣) المهدى إلى غوردون، انذارات ب ص ١٠٩-١٨»

(٤) المهدى إلى غوردون، ملحق ز.

(٥) المهدى إلى غوردون، انذارات ب ص ٢٥٣-٤»

(٦) المهدى إلى غوردون، انذارات ب ص ٢٥١-٢.

(٧) المهدى إلى غوردون، انذارات ب ص ١٠٩-١٨.

وأكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جلبوا عليه من حب الجاه والمال والبنين ، وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم ، وأخذ نصيبهم من ربهم ، فأخذوا الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ورسوله » .

ثم أوضح المهدى طبيعة مهمته ، فهى دينية بحته لا غرض منها سوى هداية الناس إلى طريق رسول الله ، وذلك بالابتعاد عن النعيم الفانى والسعى إلى النعيم الباقى . ولم يكتف المهدى بإثبات هذا القول بل دعمه بموقفين برزا فى تلك الرسالة . أولهما أنه رفض بصراحة ولاية كردفان التى عرضها غوردون عليه فى رسالته الأولى « فلا حاجة لى بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا فى مال الدنيا ولا زخرفها ، وإنما أنا عبد دال إلى الله وإلى ما عنده » . فالسلاطين والملوك — فى رأيه — هم سبب ضعف الاسلام لانشغالهم بغير ربهم . وثانى تلك المواقف هو رفضه هدية غوردون التى أرسلها اليه وكتب معلقا « .... أما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك إلى الصواب وأعلم أنه كما كتبنا لك إنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب ، فها هى مرسولة اليك » .

ولأن الدعوة دينية ، فهو يرفض الاعتراف بغوردون كحاكم على السودان مستندا على الآية « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » . فهو يسعى إلى إقامة دولة ترتكز على الاسلام ، يتمكن حاكمها من إصلاح حال المسلمين ، وبهذا لا يمكن أن تكون الولاية لغير المسلم ، فيرد على غوردون فيما يشبه الاستنكار « فإن كنت شفيقا على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فطهر نفسك أولا بالدخول فى ملته ثم أشفق على ملته بدخول سنته ، فعند هذا فأنت الشفيق ، ومن غير هذا فمالك من المحققين رفيق .. » فالدولة الاسلامية لا يقيمها إذن إلا المسلم ، من هنا

جاء رفضه لغوردون كحاكم على البلاد ، وهو مبدئيا وليس شخصيا . بل لقد كان المهدى يعطى غوردون كشخص بعض الاعتبار، فهو يقول له « .. قد سمعنا مرارا فيك الخير » (١) ويذهب إلى أبعد من هذا حين يؤكد له إمكانية الاعتراف به كوال فى حالة اعتناقه الاسلام « ... وأعلم أنك إذا أتيتنا مسلما نريك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيرا وصلاحا للمسلمين وليناك كما فعلنا بمحمد خالد ... » .

أوضح المهدى ، إذن ، أنه لا يعترف بغوردون كحاكم على بلاد المسلمين ، وسوف يسعى لوضع نهاية لتلك السلطة بالوسائل السلمية أولا ، وذلك عن طريق تنازل غوردون عنها . وأنه لن يقبل حلا وسطا فيما يتعلق بهذا الأمر . أما مصير غوردون الشخصى فقد كشف المهدى عن امكانية التفاوض حوله . فهو يقول فى أول رسالة له « وبعد هذا البيان إن اهتديت وسلمت لى وأتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك، وإلا هلكت فكان عليك إثمك وآثام جميع من اتبعك » (٢) هنا يشترط المهدى عليه التسليم لكى ينجو بحياته ، ولكنه لا يطالبه صراحة بالإعتراف بالمهدية أو اعتناقه الإسلام (٣) . إلا أنه فى الرسالة الثانية خيره بين الدخول فى الإسلام أو الهلاك ، وفى ذات الوقت أعطاه وعدا بالإبقاء على حياته وحياة من معه وممتلكاتهم فى حالة التسليم ، وقد فوض محمد عثمان أبو قرجة لمراعاة تنفيذ هذا الوعد إذا استجاب غوردون للنداء .

ربما فهم منطقيا أنه إذا سلم غوردون للمهدى فإنما هذا يعنى أنه قد اعترف به ليس كحاكم فقط بل بصفته الدينية .

---

(١) المهدى إلى غوردون، انذارات ب ص ٢٥٣ - ٤ .

(٢) المهدى إلى غوردون، انذارات ب ص ٢٠٩-١٨ .

(٣) المهدى الى غوردون ، النجومى ٢٦ .

ولكن يبدو أن المهدى أراد أن يضع هذا شرطا صريحا، فضمنه فى رسالته الثالثة « فإن أنبت إلى الله تعالى وأسلمت وسلمت وصدقت بمهديتنا أرسل مخاطبة منك ومن معك جميعا إلينا بعد وضع السلاح ورفع المحاربة، لنرسل لكم من يؤمنكم وبذلك تحوزوا خير الدارين » (١) . وزاد على هذا أنه فى حالة الرفض فليس أمامهم «سواء الاستعداد لحرب من جند الله ورسوله وهم بلا شك هالكون فيها كما هلك الذين يفوقونهم عدة وعتادا ». وفى هذه الحالة سوف تؤخذ أموالهم وممتلكاتهم وأولادهم غنيمة للمسلمين. جاء محتوى بقية الرسائل متشابها فى جوهره مع ما سبق أن ذكره المهدى فى خطاباته الأولى باستثناء رسالته السابعة والتى ظهر فيها أن تغييرا قد طرأ على رأى المهدى فيما يتعلق بمصير غوردون. فهو ما زال يصر على تسليم الخرطوم، ولكنه يبدى إستعداده لضمان حرية غوردون الشخصية إذ يقول « فإن أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب، وإن أردت أن تجتمع على الإنكليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك إليهم » (٢) . هناك عدة عوامل يبدو أن المهدى أخذها فى الاعتبار عندما قرر أن يتراجع قليلا عن مطالبته لغوردون باعتناق الاسلام أو الاعتراف بالمهدية ، ربما كان يسعى فى البداية إلى كسب غوردون إلى جانبه حتى يتمكن من الاستفادة منه فى بناء الدولة التى يزمع إقامتها فى السودان ، ولا بد أنه سيكون مفيدا له تماما كما هو الحال مع سلاطين باشا وغيره من الأجانب . إلا أنه تنازل عن هذا الطلب حين تأكدت له أنباء وصول الحملة الإنكليزية ، فرأى أن يعرض على غوردون إمكانية تأمين سفره إلى حيثما تكون الحملة .

وتوقع المهدى أن تعود الحملة من حيث أتت فى حالة قبول غوردون للعرض فتجنبهم — بالتالى — إراقة المزيد من الدماء . ثمة عامل آخر أيضا ،

---

(١) المهدى إلى غوردون، ملحق ز .

(٢) المهدى إلى غوردون، انذارات ب ص ٢٥٣-٤ .

ربما أخذ المهدى فى الاعتبار تمسك غوردون بدينه وتعصبه له مهما كلفه الأمر، وقد وضح هذا جليا فى تجاهله التام للنداءات المتكررة التى وجهت له فى عدة رسائل لاعتناق الإسلام كى ينجو بحياته. فأيقن المهدى فى تلك المرحلة من الحصار أن غوردون لن يسلم حتى لو كان فى هذا فقدان حياته فآثر أن يتخلص منه ويأمن شر الحملة.

ومثلما كان الحال بالنسبة للمهدى فقد اتخذ غوردون الرسائل وسيلة للاتصال بخصمه، إلا أن عدد الخطابات التى بعث بها غوردون إلى المهدى ما زال خاضعا لاجتهاد المؤرخين، فلقد تضاربت روايات المصادر حول هذا الأمر وتباينت. فهناك نسخة عربية لرسالة واحدة هى أولى رسائل غوردون إلى المهدى والتى حفظت ضمن مجموعة المسلمى (١). كما أن هناك نسخة من رسالة برقية بعث بها غوردون إلى فرج الله بك، وطلب منه نقلها إلى المهدى، وقد أرفقت باليوميات (٢). إلا أن نصحى باشا أورد فى تقريره ترجمة لرسالتين اخريتين، وذكر أن غوردون قد بعث بالأولى فى مارس ١٨٨٤ بعد تسلمه لرد المهدى على خطابه الأول. ولقد اختار نعوم شقير الثانية وجاء بالنص العربى لها، وذكر أنها أرسلت كرد على رسالة المهدى التى تحمل تاريخ ١٩ نوفمبر ١٨٨٤ (٣). ولا بد للقارىء أن يخضع رواية التقرير للتأمل، إذ لا توجد أصول لأى من هذه الرسائل. ربما فقدت الأولى باعتبار أنها أرفقت مع يوميات ستيورت، لأن غوردون قد كتبها قبل ١٠ سبتمبر -تاريخ مغادرة ستيورت للمدينة- ولكن إذا كان تاريخ شقير صحيحا فإلحاق الرسالة الثانية بيوميات غوردون كما فعل مع بقية الرسائل التى وصلته أثناء تسجيلها كان أمرا متوقعا. إلا أن كونه لم يفعل لا ينفى حدوث الواقعة، فربما أبعدها لسبب أو آخر ولكنى أميل إلى الاعتقاد بأن نعوم شقير قد أخطأ

---

(١) غوردون إلى المهدى، ١٢ ربيع أول ١٣٠١ (١٠ فبراير ١٨٤٤) فيوضات ج ١٥١/١.

(٢) غوردون إلى فرج الله بك، ٣ محرم ١٣٠٢ (٢٤ اكتوبر ١٨٨٤) ملحق ل.

(٣) نعوم شقير، ص ٨٤٧.

فى تاريخه، وأن غوردون أساسا لم يبعث بتلك الرسالة، وإنما بعث فقط بالبرقية المشار إليها سابقا. ولقد درج مؤلفو التقرير على ذكر نصوص الرسائل معتمدين على معلومات سماعية فقط، ولعلهم لهذا نقلوا برقية غوردون مع بعض التحريف على أساس أنها رسالة.

ولكن هناك دلائل أخرى تشير إلى خطابات بعث بها غوردون إلى المهدى بالإضافة لتلك التى وردت فى التقرير وما زالت أصولها أو نسخ منها مفقودة.

جاء فى إحدى رسائل المهدى لغوردون قوله « وقد بلغنى من جوابك الذى أرسلته الينا أنك قلت إن الانكليز يريدون أن يفدوك وحدك منا بعشرين ألف جنيه» (١) فربما تكون الإشارة هنا لرسالة ما زالت مجهولة المكان. إلا أن الاحتمال الثانى، أن يكون الخطاب المعنى هو ذلك الذى بعث به غوردون إلى عبد القادر أبراهيم وعرض فيه إستعداده لدفع عشرة ألف جنيه مقابل إطلاق سراح الأسرى الأوربيين (٢). ولعل الخلط فى المعنى مرده رداءة خط وأسلوب ذلك الخطاب.

ولكن المهدى يشير فى آخر رسالة كتبها إلى غوردون إلى خطاب وصله منه، فهو يؤكد له أن « جوابك رد المحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونه » (٣) فإذا كان غوردون قد بعث بخطاب للهمدى قبل أسبوعين تقريبا من سقوط المدينة، فاحتمال أن يكون قد بعث برسائل أخرى قبل ذلك التاريخ غير مستبعد على الإطلاق.

كشفت رسالة غوردون الأولى أنه كان يسعى لمعالجة المشكلة فى بادىء الأمر بدبلوماسية وبلا إستفزاز ودون أن يتورط فى شىء، فخاطب

---

(١) المهدى إلى غوردون، ٢٠ ربيع أول ١٣٠٢ (٧ يناير ١٨٨٥) انذارات ب ص ٢٥٣، ٤.
(٢) غوردون إلى عبد القادر ابراهيم، بعد ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ.
(٣) المهدى إلى غوردون، ٢١ ربيع أول ١٣٠٢ (٨ يناير ١٨٨٥)، انذارات ب ص ٢٥١ - ٢.

المهدى باحترام وكأنه أحد رجال الصوفية « مولاى السيد محمد أحمد بن عبد الله » (١) ،لم يكن تفادى غوردون لذكر لقب المهدى سهوا بل، كان على الأرجح أمرا مقصودا . وقد ركز فى تلك الرسالة على الجوانب السياسية للأزمة ، متجاهلا عن عمد الصبغة الدينية التى عرفت بها الثورة .

ولعل الموقف الذى اتخذه غوردون تجاه الأنصار طوال مدة الحصار بدأ فى تلك اللحظة التى خط فيها رسالته الأولى للمهدى . فهو لم يأت للبلاد فى مهمة مؤقتة ، بل جاءها كحاكم صاحب سلطة شرعية لم يبد أى استعداد للتنازل عنها قيد أنملة . ولكى يدخل شيئا من الرهبة فى نفس المهدى ذكر له أنه جاء منتدبا من قبل حكومتى دولتين عظيمتين هما مصر وبريطانيا ليتولى شؤون البلاد، وينهى اليه بهذه الصفه موافقته على تنصيبه سلطانا على كردفان .

لم يتطرق غوردون من بعيد أو قريب إلى طبيعة مهمته ، ولم يشر إلى أنه جاء من أجل إخلاء الحاميات والمدنيين ، ولو فعل هذا منذ البداية ربما كان فى الامكان رؤية صورة مغايرة تماما لأحداث تلك الفترة .

وعندما تسلم غوردون رفض المهدى المكتوب للسلطنة فى مارس ١٨٨٤ « استشاط غضبا وركل كسوة الزهاد برجله » وفى حينه حرر خطابا اختفى، فيه أسلوب التحفظ الحذر الذى ظهر فى الخطاب الأول واستعاض عنه بأسلوب الاستفزاز المباشر فهو يدعوه « محمد أحمد المتمهدى » . وقد أكد فى هذا الخطاب ولايته على السودان مرة أخرى . ووضع أمام المهدى خيارين ، فأما أن يقبل منصب السلطان أو يجهز نفسه لحرب لا هوادة فيها ستقضى بالتأكيد عليه وعلى رجاله .

ويبدو أن المهدى لم يلق بالا لتهديدات غوردون، فواظب على ندائه له ليضع حدا للمشكلة بلا إراقة مزيد من الدماء . تجلت استجابة غوردون فى قوله « أنا لا يمكن أشوف كلام محمد أحمد زيادة عن الرصاص » (٢)

---

(١) غوردون إلى المهدى، ١٢ ربيع أول ١٣٠١ (١٠ فبراير ١٨٨٤) فيوضات ج ١٥١/١.

(٢) غوردون إلى فرج الله بك، ملحق، ل.

فكشف بهذا عن تصميمه على القتال سواء جاءت نجدة لمساعدته أو لم تأت ، وهو يدعو أنصار المهدى صراحة إلى التقدم نحو خطوط النار الرئيسية لملاقاة جنوده .

ولم تبد فى أى رسالة منه إشارة إلى أنه ربما يقبل تسوية سلمية يمكن التفاوض حول أسسها ، خاصة وأن المهدى أبدى إستعداده لاخلاء سبيله وتأمين سفره إلى حيثما تكون القوات الإنجليزية ، وكان بالامكان إجراء مشاورات تهدف إلى تأمين سلامة الأهالى من جند ومدنين . ولعل التخوف من ردود فعل إنتقامية لا أساس له . فقد سبق أن قاتل أفراد حامية الأبيض الأنصار بضراوة وأنزلوا بهم من الخسائر ما يفوق كل ما أنزله بهم جنود حامية الخرطوم طوال مدة الحصار ، ومع ذلك لم يفقـد أى منهم حيـاته عند التسليم .

بالإضافة إلى هذا فقد جاء فى إحدى رسائل المهدى تأكيد لأهالى الخرطوم بأنه على إستعداد لنسيان الماضى وقبولهم بين رجاله متى ما أعلنوا تأييدهم له ، فهو يخاطبهم بقوله « .... وحيث فهمتهم ما ذكر فإنى لا أواخذكم بما فات منكم ولا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فأنيبوا إلى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون ، وعليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى وغايته أن من سلم سلم .... ولا تخشوا من شيء يحصل عليكم فإننا مناظرون منكم آية قوله تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقل سلام عليكم) .. (١) .

لقد أراد غوردون كسر شوكة المهدى وهذا هوالأمر الذى أقعده عن تسليم المدينة ،فاتخذ موقفا عدائيا منه منذ البداية، على أساس أنه هو صاحب الحق والسلطة ، وما المهدى إلا متمرد خارج على القانون يجب إخضاعه من

---

(١) المهدى إلى أهالى الخرطوم انذا رات ب ص ٢٥٥-٦.

أجل الحفاظ على سيادة الدولة وهيبتها . وقد اتخذ هذا الموقف رغم أنه لم يكن يملك مقدرات الانتصار ، وكان واضحا أن المعركة تتحول تدريجيا فى مصلحة الأنصار ، وغدت محاولته لصدهم مغامرة محفوفة بالمخاطر .

من عمليات الحصار إلي سقوط الخرطوم

ما أن حل شهر مارس حتى تأكد لغوردون أن سياسته السلمية التى كان يأمل لها أن تنجح فى كبح جماح الثورة قد أصبحت أضغاث أحلام، لم تعد أنباء النشاط الذى يقوم به الأنصار فى كل المنطقة الممتدة من الخرطوم جنوبا حتى القطينة وسنار، وشمالا حتى بربر، هى مجرد شائعات ينقلهـا المسافرون والرواة، بل حقائق سجلها معاونوه وحملت أنباءها بواخـره الاستطلاعية . وقد انهارت آخر آماله فى تنفيذ تلك الخطة بوصول رسالة المهدى الأولى إليه التى أوضح فيها رفضه لسلطنة كردفان، وإن شيئا لن يقعده عن مواصلة سيره نحو الخرطوم . فأما أن يقتنع غوردون بصدق الدعوة وينقذ نفسه ومن معه بتسليم المدينة للأنصار وإلا فإن « حزب الله واصل اليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فاستدعيت ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين » (١) وهو لا يأتى للخرطوم ليقتسم الأسلاب مع غوردون أو يتفاوض معه بل ليستولى عليها وبالقوة إذا اقتضى الأمر . ثم يختتم المهدى الرسالة بقوله « .... وبعد هذا البيان فإن اهتديت وسلمت لى وأتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك، وإلا هلكت فكان عليك إثمك ومثل آثام جميع من اتبعك » .

الا أن تفكير غوردون لم يتجه ولو للحظة عابرة، نحو تقديم الخرطوم لقمة سائغة للأنصار، فإذا أصبح الاستيلاء عليها بواسطتهم قدرا لا مفر منه فليتم ذلك عنوة وبعد لأى . فباشر من توه فى إجراء مزيد من الاستعدادات الدفاعية تحسبا لأى هجوم قد تشنه فرق الأنصار المرابطة حول المدينة وتأهبا لوصول المهدى .

---

(١) المهدى إلى غوردون، ٧ جمادى أول ١٣٠١ (٥ مارس ١٨٨٤) انذارات ب ص ١٠٩-١٨.

حاول غوردون استغلال ما لديه من إمكانيات إلى أقصى الحدود ، فلم تكن المدينة تملك من الموارد البشرية والمادية التى تستخدم فى الحروب إلا اليسير . كانت هناك حامية بالفعل ، إلا أنها كانت تعانى من عدة نقائص وقفت عائقا أمام خلق شبكة دفاعية فعالة . وكانت هناك أيضا مجموعة من البواخر التى أدخل عليها غوردون من الوسائل ما أهلها لخوض المعارك الحربية ، إلا أن الظروف التى صاحبت تطورات الحصار قد شلت من حركتها إلى حد بعيد كما سيوضح فيما بعد .

حاميــة الخرطوم :

اشتملت الحامية على خليط من الجند المصريين والسودانيين النظاميين والأتراك والشايقية غير النظاميين ، بالاضافة إلى المتطوعين ، وقد قدر عددهم بعد انسحاب حاميتى الدويم والكوه إلى الخرطوم فى ٣ يناير ١٨٨٤ بـ ٦١٠٠ جندى ولقد اتجه تفكير غوردون عند وصوله فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ إلى سحب حاميات سنار وبعض المراكز الصغيرة المتناثرة فى الجزيرة إلى الخرطوم . إلا أن وقوع الحصار فى كل من الخرطوم وسنار أضطره إلى الغاء ذلك المخطط .

كانت العقبة الرئيسية التى تشل إلى حد كبير مقدرة الحامية فى الدفاع عن المدينة هى عددها . إذ كان خط النار طويلا يحتاج إلى ما لا يقل عن ١٢٫٠٠٠ رجلا لحمايته ، ولقد سبق أن أبرق الكولونيل دى كتلوجن سلطات القاهرة قبل وصول غوردون موضحا أن حامية الخرطوم لن تستطيع أن تحمى خط الدفاع حتى لو تضاعف عددها الحالى بل أن بعض الناس كانوا يتشككون فيما اذا كانت الحامية بكامل قوتها ستتمكن من حفظ الأمن بصورة عادية فى المدينة .

كان هؤلاء الجند يفتقرون إلى الحد الأدنى من التدريب العسكرى الذى يؤهلهم إلى تنفيذ أية عمليات حربية ناجحة . ويلاحظ أن تكوين هذه الفرق

قد تم بصورة عاجلة عند مجيء عبد القادر باشا حلمى . فقد اضطر لترحيل جنود الحامية للاسهام فى العمليات العسكرية فى منطقة الجزيرة . ونسبة لقلة عددهم فقد قام بتجنيد ثلاث أورط من السود ، واستدعى ست أورط من الجنود النظاميين من السودان الشرقي . ويبدو أنه استعان بالأشداء منهم فى العمليات التى شنها ضد أعوان المهدى ، أما البقية فلقد ناطوا بها مسئولية الدفاع عن الخرطوم ، ولم تكن تتمتع بأى مقدرة عسكرية ، بل وصفت بأنها « بقايا جيوش .. » « أغلبهم من العجزة والعميان » .

ولم يكن هذا الموقف خافيا على مسئولى القاهرة ، إذ كان بيرنج على علم بضعف حامية الخرطوم وبافتقار رجالها إلى التدريب ، فوصفهم بأنهم مجموعة ضعيفة من الجند الذين لا يمكن الاعتماد عليهم .

بالاضافة إلى هذا لم تكن مسألة إخلاصهم وتفانيهم فى خدمة الحكومة أمرا فوق الشبهات ، فهذا خليط من الجند يعلمون تماما أن الدفاع عن المدينة فوق طاقتهم لقلة عددهم وضعف خبرتهم الحربية . ولا بد أن يكون هدفهم من الجندية هو الارتزاق أكثر من العمل المخلص لهدف معين ، فعرف أن حوالى ثلث الجند لم يكونوا يدينون بالولاء للحكومة ، ولا يمكن الاعتماد عليهم حتى للحفاظ على الأمن الداخلى .

كانت الدوائر الحاكمة فى كل من الخرطوم والقاهرة على يقين تام أنه إذا شن الأنصار هجوما على المدينة سيستحيل على الحامية صده ، إلا أن غوردون تجاهل هذه المعلومات ووطد عزمه على الاحتفاظ بالخرطوم مهما كلفه الأمر .

ربما يتبادر إلى الذهن أن غوردون اتخذ هذا الموقف باعتبار أن سندا عسكريا لا بد سيأتيه من الخارج . إلا أن هذا التقدير لم يكن يستند على أساس ، إذ سبق أن أخطر رسميا ولم يمض على وصوله للخرطوم أكثر من شهر واحد فى رسالة بعث بها بيرنج إليه وكررها لوزير الخارجية البريطانية ، فحواها

أن ليست ثمة نية فى إرسال قوة عسكرية للسودان ، كذلك رد جرانفيل على هذا برسالة يؤيد فيها رأى بيرنج وموضحا أن الحكومة البريطانية ستعارض أى قرار تتخذه الحكومة المصرية بإرسال قوات للسودان، إلا أنها قد توافق على إيفاد قوة مصرية إلى سواكن بشرط أن يكون هذا ممكنا من الناحية الفعلية ، وإذا رأى سردار الجيش المصرى «أى . وود» (A. Wood) بأنه عمل هادف ولم تكن الحكومة البريطانية على استعداد للموافقة على إرسال قوات للسودان حتى وإن كانت بهدف المساعدة فى تأسيس حكومة موالية لمصر هناك، ناهيك عن قوة تصطدم عسكريا مع المهدى. ومن ثم أوضحت بريطانيا أنه يمكن إرسال فرقة لبربر اذا رؤى أنها ضرورية لإنقاذ حياة غوردون، وأنها ستلتزم بتنفيذ هذا الأمر فقط . ولقد كان هناك خلاف حتى على إرسال هذه القوة، اذ أن صغر حجمها سيعرضها الأخطار جمة ، فى حين كان إرسال قوة كبيرة أمرا مرفوضا على الإطلاق من جانبهم، فإذا كان غوردون ملما بهذه التفاصيل فهناك إحتمالان لتفسير موقفه ، أما أنه قرر بصفة جازمة الاستعانة بالقوات التى تحت تصرفه للتصدى للأنصار فى هذة المواجهة ، وأما أن الأمل كان و مايزال يراوده فى أن الحكومات التى أوفدته قد ترضخ أخيرا لرغبته وتبعث له بحملة تنقذ المدينة من براثن المهدى.

كانت حامية الخرطوم تتكون من ثلاث اورط من السود ، كل اورطة تضم حوالى ٩٠٠ رجلا، وكانوا جميعا تحت قيادة فرج بك الزينى ، وقد أنعم غوردون على فرج بك برتبة الباشوية وعينه قائدا عاما للقوات لأنه من قلائل الضباط الموجودين فى المدينة من ذوى الخبرة العسكرية رغم أنه قد عرف بميله للتمرد ، فقد عمل فى مصر قبل ثورة عرابى وقام بتحريض ضباط الآلاى السودانى على التمرد عام ١٨٨١ ، إلا أن الجند كشفوا أمره فشكلت له وزارة الجهادية المصرية محكمة عسكرية حكمت عليه بالنفى إلى السودان ، ولكن رؤوف باشا الحقه بالجيش المصرى مرة أخرى عند ولايته للبلاد، ورغم أن كثيرا من ضباط غوردون قد قاتلوا الأنصار عند

دخولهم المدينة حتى سقطوا فى الميدان،إلا أن فرج بك كان ضمن أولئك الذين تخلوا عن بزاتهم العسكرية ويمموا وجوههم صوب الصحراء .

كانت هناك أيضا ثلاث أورط من الجنود المصريين الذين سبق وأجلاهم غوردون إلى أمدرمان تحت قيادة محمد نصحى باشا تمهيدا لإرسالهم لمصر ، ولكنه أرجع إثنتين منهم إلى الخرطوم وعين أبراهيم بك فوزى قومندانا عاما للقوات المصرية . وأوكل ليوسف أفندى عفت وفرج بك على قيادة كل اورطة منفصلة . كان الباشبوزق من الشايقية والأتراك يشكلون إثنتين وثلاثين فرقة تضم الواحدة الستين رجلا تقريبا . فوضع الأتراك تحت قيادة السعيد باشا حسن الجميعابى ومعاونه حسين باشا أبراهيم الشلالى .

إلا أن هذين الضابطين قد اعدما فى أوائل أيام الحصار لإتهامهما بالتآمر مع الأنصار من أجل إنزال الهزيمة بقواتهما عمدا . تضاربت الروايات حول حقيقة هذه التهمة ، إذ تقول إحداها أن الضابطين بريئان وقد،اختلق التهمة فرج باشا الزينى الذى كانت بينه وبينهما ضغائن قديمة،وتقول رواية أخرى إن التهمة صحيحة وقد أثبتها عليهما الجنود،إلا أن الروايتين تتفقان فى أن الحكم قد نفذ سرا . الأمر الذى يلقى بعض ظلال من الشك على أن التهمة لم تكن ثابتة بشكل قاطع ، فتخوف غوردون من إعدامهما علنا .

ثم عين غوردون خشم الموسى بك قائدا للشايقية الباشبوزق،وعبد الهادى حسن على رأس قوة من المتطوعين بلغ قوامها السبعمائة رجلا .

تحصينات المدينة :

كان عبد القادر باشا حلمى أول من بنى تحصينات للخرطوم فى مايو ١٨٨٢ أثناء ولايته على السودان ، فشييد خندقا نصف دائرى يمتد حول المدينة من الشرق إلى الغرب . وقد استعان فى هذا بالضابطين أحمد ثابت وأخيه محجوب،وهما من أصل مصرى ولدا بجهات دنقلا . ثم قام دى كتلوجن بتقوية وسائل دفاع المدينة كرد فعل مباشر لهزيمة هكس باشا فى

آخر عام ١٨٨٣ . فحفر خنادق جديدة وزاد من عمق القديمة وشيد عدة طوابى على طول خط النار فبلغ طول الخندق ٥٩٠٠ ياردة فى زمن فيضان النيل،إلا أنه كان يمتد إلى ألف ياردة أخرى عند إنخفاضه . وبلغ عمقه ٨ أقدام وعرضه ١٧ قدما فى السطح و ١٠ أقدام فى قاعدته .

ثم رأى غوردون عند وصوله ضرورة تقوية التحصينات ، فزاد مرة أخرى من عمق الخندق حتى بلغ ١٨ قدما وشيد سورا من الداخل وأقام فوقه حائطا بلغ إرتفاعه خمسة أقدام وفتح فيه المزاغل . وقام أيضا بربط الجزء الغربى من الخندق بسلك شائك مع شاطىء النيل الأزرق ، ثم أتى ببعض المراكب محملة بعبوات ناسفة وربطها مع هذا السلك لتملاء الفراغ الذى يخلقه إنحسار ماء النيل .

ولقد تخللت خط الدفاع جملة من الطوابى المسلحة بالمدافع . كانت هناك طابية الكلاكلة فى أقصى الغرب تليها طابية المسلمية . وتجاور كل منهما بوابة عرفت باسميهما. وفى أقصى الشرق قامت طابية برى ببوابتها، إلا أن هذه ظلت مغلقة منذ بداية الحصار . وقد وجه غوردون ستيورت باشا وخليل أفندى للإشراف على بناء طابية أكبر فى مكان طابية برى القديمة، وفى شمال المدينة توجد طابية فى شكل مبنى ذى طابقين عرف بقصر راسخ أو السرايا الشرقية ، وهناك أيضا طابية بالمقرن وأخرى بامدرمان . ونثر غوردون الأعمدة الخشبية ذات الرؤوس المدببة على بعد عشرين مترا خارج التحصينات،ووضع العبوات الناسفة السريعة الإنفجار حول جميع الطوابى كما وأن براميل المياه الفارغة قد ملئت بالديناميت ووضعت فى النقاط الضعيفة من خط الدفاع،وزرعت الالغام فى جزيرة توتى وخور شمبات ومنطقة الحلفاية .

بداية العمليات العسكرية :

كان غوردون بلا شك يتأهب لخوض معركة عسكرية،ولا تشير الدلائل إلى أنه فكر فى الانسحاب أو التسليم . وكان الأنصار فى ذات الوقت

لا يقلون عن غوردون حماسا فيما يتعلق بالاستعداد الحربى . فلقد وطد الشيخ العبيد عزمه على تنفيذ توجيهات المهدى التى حواها خطابه اليه، فشرع أنصاره فى القاء حصار على المدينة من جهة الشرق، وقطعوا أسلاك التلغراف، وبدأوا فى إطلاق قذائفهم على طابية قصر راسخ، ثم تقدموا حتى وصلوا موقع الصبابى المتاخم لمنطقة الحلفاية فتخوف غوردون من إحتلالهم لها، فأرسل قوة من الشايقية فى ١٣ مارس ١٨٨٤ للسيطرة عليها، إلا أن أبراهيم العبيد تصدى لهم مع أتباعه وأنزل بهم هزيمة ساحقة . فسارع غوردون لإنقاذهم بارسال باخرة محملة بالجنود تحت قيادة أبراهيم بك فوزى، وبعد معركة دامت أكثر من ساعة انهزمت قوة غوردون وتمكن الأنصار من أسر مائة وخمسين من أفرادها وغنموا كثيرا من الأسلحة والذخيرة (١) .

وبما أن الحلفاية كانت منطقة إستراتيجية بالنسبة للخرطوم فقد عزم غوردون على إستردادها . فأرسل قوة فى ١٧ مارس ١٨٨٤ مؤلفة من أربع فرق من الجهادية والباشبوزق ، ثلاث منها تحت قيادة الضباط السودانيين السعيد باشا حسين، وحسن باشا أبراهيم الشلالى، ومولى بك سعيد الرباطابى، وعقدوا لواء الرابعة لميتو أغا التركى، فعبرت هذه القوة النيل الأزرق واشتبكت مع الأنصار فى موقع عرف بجليتقو . وقد جاء وصف هذه المعركة فى رسالة بعث بها الشيخ العبيد ود بدر للمهدى، إلا أن هذه الرسالة ما زالت مجهولة المكان . ولكن المهدى نقل محتوياتها فى خطاب بعث به لمحمد خالد زقل يقول فيه « .... وكذلك بيوم الأحد الموافق ١٨ جمادى أول ١٣٠١ فى ساعة الضحى خرجت اليه جردة تساوى أربعة الآف من قيقر قصر راسخ بالشرق، فتقاتلوا مع المذكورين فهزموهم فى أقل من نصف ساعة وقتلوا منهم أربعمائة نفر واستلموا منهم مدفع وجبخانة أربعة جمال

---

(١) المهدى الى محمد خالد ٤ جمادى اول ١٣٠١ (٣ مارس ١٨٨٤) زقل ٣. هذه المعلومات مضمنة فى حاشية الرسالة التى تحمل تاريخ ٨ جمادى ثانى (٦ ابريل) نعوم شقير أرخها خطأ ١٨ جمادى ثانى ، ص ٧٧٦ .

والشهداء من الأنصار عشرون شهيدا » وقد كان بين القتلى مولى بك ـ أحد قادة الفرق الأربعة ـ وأخوه فضل الله .

إستمرت بعد ذلك المناوشات بين الفريقين إلى أن وصل أول فوج من الجيوش التى بعث بها المهدى من الغرب بقيادة محمد عثمان أبو قرجة فى مايو ١٨٨٤ .

وكان المهدى قد عين أبا قرجة أميرا على القوات المحاصرة للمدينة فى وقت ما قبل ٣ مارس ١٨٨٤ . ورغم أن خطاب التعيين لم يظهر له أثر فيما بعد إلا أن المهدى ذكر فى رسالة لمحمد خالد زقل أنه قد عين أبو قرجة « أميراً لقوات البحر » . كما أنه يشير لذات الأمر فى خطاب بعث به لمحمد الطيب ود البصير .

تخوف المهدى من أن لا يقابل تعيين أبى قرجة أميرا للقوات المحاصرة بترحاب من ود البصير ، إذ كان هـــذا الأخـــير من أنسبائه الذين شهروا السلاح فى وجه الحكومة فى مطلع أيام الدعوة . ولذا توقع المهدى أن يستاء من إسناد القيادة فى منطقته لشخص غيره ، فبعث له المهدى برسالة يبرر فيها هذا التعيين ، فقد وضح أن بعض الأهالى ما زالوا يجهلون حقيقة الدعوة ، فتباطأوا فى الانضمام اليها ، ولكى يتجنب المهدى استخدام القوة ضدهم أرسل أبا قرجة ليجادلهم بالتى هى أحسن (١) وربما يتعذر لود البصير القيام بهذا الدور لأنه سبق أن اشتبك معهم فى عدة مناوشات دموية ستقف بلا شك عائقا فى سبيل إبرام تسوية سلمية . ويلاحظ أن المهدى سبق أن وجه رجال الشكرية وأتباع العبيد ود بدر بالعمل مع ود البصير ، ولكن كلا الفريقين قد تردد فى تنفيذ هذا التوجيه . كما أن صالح الملك الذى أبدى استعداده للتسليم رفض أن يتم هذا على يد ود البصير ، فآثر المهدى على ضوء هذه الوقائع أن يبعث بقائد لا تربطه بأهالى المنطقة ضغائن أو أحقاد ، وكتب فى ذات

---

(١) المهدى إلى محمد الطيب البصير بعد ٨ جمادى ثانى ١٣٠١ (٦ ابريل ١٨٨٤) فيوضات ٥٠/٣ .

الوقت لود البصير حتى لا يفقد وده وتعاونه . ولم يأبه لشرح الموقف لقادته الآخرين أمثال العبيد ود بدر وعبدالقادر أبراهيم، ربما لأن تاريخهم في المهدية ما زال قصيرا . فقد ظل أولهما على الحياد حتى أول عام ١٨٨٤ حتى تأكد له أن المهدى منتصر بلا ريب فأعلن الولاء له، أما الثانى فقد كان أكثر إيجابية، فبقى على تأييده للحكومة، وأقام بداخل الخرطوم حتى وصول غوردون . ولكن عندما اتضحت له حقيقة مشاعر الأهالى غادرها نهائيا إلى قرية الكلاكلة. لم يكن أى منهما ، إذن ، فى موقف يمكنه من استنكار عقد لواء قيادة المنطقة لقائد عريق مثل أبى قرجة .

إصطحب أبو قرجة أربع فرق من جنود كردفان بأسلحتهم النارية بالاضافة إلى ذوى الأسلحة التقليدية الذين تزايد عددهم بوصوله إلى شواطىء النيل الأبيض خاصة فى منطقة القطينه حيث تقيم عشيرته . وما أن حط رحاله بالقرب من الخرطوم حتى بعث برسالة لغوردون يطلب منه التسليم (١) . ولقد كشف بهذا التزاما بالمنهج الذى يتبعه المهدى فى مثل هذه الظروف ، فهو يستعد للحرب إلا أنه يحذر الطرف الآخر ويقدم له فرصة أخيرة لحل النزاع سلميا .

وعندما تجاهل غوردون النداء أيقن أبو قرجة أنه لا يضمر شيئا سوى الحرب ومن ثم شرع فى وضع الترتيبات النهائية لمواجهته. وكان قد عسكر عند وصوله فى منطقة الجريف، إلا أن بعض أعوانه نصحوه بأن برى قد تكون أكثر استراتيجية فارتحل إليها، وكان أول من شيد الطوابى المضادة لحصون الخرطوم هناك . ثم وضع عليها المدافع وأقام الأبراج، وما لبث أن أصبحت مراكب غوردون هدفا لقذائف الأنصار، يطلقونها عليها من وراء تحصياتهم وهى فى طريقها إلى سنار، ومنذ ذلك الحين أخذت المناوشات العسكرية بين

(١) اسماعيل بن عبد القادر ص ٣٢١؛ هذه الرسالة مفقودة ولانها قد ارسلت في حوالى يونيو ١٨٨٤ فربما ارفقها غوردون بالوثائق التى حملها ستيورت إلى مصر في سبتمبر وتناقلتها الايدى حتى وصلت إلى المهدى واختفى اثرها هنا.

الفريقين تتخذ طابعا أكثر عنفا وان اقتصرت على المعارك المحدودة النطاق . إذ كان كل منهما فى انتظار تعزيزات يأمل أن تأتى فى القريب ولم يشأ بالتالى أن يرمى بثقله فى معركة فاصلة . كان غوردون يبذل جهدا ليحتفظ بالمدينة تحت سيطرته حتى تصله قوات من مصر . ويبدو أن تعليمات المهدى لأبى قرجة كانت القاء الحصار حول الخرطوم والانتظار خارج بواباتها حتى تصل تباعا جيوشه التى تمركزت فى الرهد .

فاقتصر نشاط الأنصار على تصديهم لجنود غوردون متى ما ظهروا خارج الطوابى والخنادق أو على ظهر البواخر ، وشددوا فى ذات الوقت رقابتهم على دخول أى مواد غذائية للخرطوم .

لم تشتعل النيران فى الجبهة الجنوبية الشرقية وحدها بل قام فضلو أحمد بالتعاون مع عبد القادر أبراهيم بفتح جبهة فى الزاوية الجنوبية الغربية . فشيدا طابية فى الضفة الشرقية للنيل الأبيض واستعانا بقسم من جهادية أبى قرجه فى إطلاق القذائف النارية التى كانت كثيرا ما تصيب أهدافها داخل أسوار المدينة ، لم يقف غوردون مكتوف الأيدى إزاء هذا الوضع ، بل بعث قوة من رجاله بقيادة عبد القادر أفندى حسن وساتى بك لإسكات مدافع الأنصار ، ورغم تمكنهم من هدم الطابية وتدمير منازل الكلاكلة التى كانت تتحصن فيها القوات المهاجمة إلا أن الأنصار تجمعوا مرة أخرى وعادوا لاحتلال مواقعهم . وفى ذلك الحين كانت أفواج من جيوش المهدى تشق طريقها تباعا نحو الخرطوم ، فوردت أنباء عن تقدم قوة بقيادة حامد عبد الله الدنقلاوى ، ويبدو أن هؤلاء هم الرجال الذين إستنفرهم أبو قرجة من القطينة وهو فى طريقه إلى الخرطوم . وفى ٤ يوليو قاد ساتى بك فرقة للاشتباك معهم ووقف تقدمهم ، ولكن الأنصار انقضوا عليها فى هجوم عنيف أبادوا فيه الفرقة وقتلوا قائدها . ومن ثم واصل الفوج سيره حتى استقر فى قرية الكلاكلة . فسارع غوردون بعد خمسة أيام بإرسال فرقة أخرى بقيادة سيد أفندى أمين ، ورغم

أن الأنصار قد فقدوا فى هذه المعركة ما يقارب الألف قتيل إلا أن قوة غوردون فشلت فى إرغامهم على إخلاء الموقع .

بقى غوردون فى إنتظار الفيضان حتى يتمكن من إستخدام بواخره فى المعارك المرتقبة ضد أبى قرجة. وفى١٨ رمضان ١٣٠١ هـ (٢٧ يوليو ١٨٨٤) شن أول هجوم له على معسكر الأنصار فى برى. فبعث بقائده محمد على باشا على رأس قوة من الجهادية منقولة على ظهر البواخر وارسل خشم الموسى بك على رأس قوة من الباشبوزق . فنجحت هذه الحملة فى إنزال الهزيمة بالأنصار وإستولت على ١٦٠٠ بندقية وبعض الحراب والسيوف . ومن ثم تراجعت قوات أبى قرجة إلى معسكرها الرئيسى فى الجريف . ولكن غوردون لم يمهلهم بل تعقبهم إلى هناك. ودارت معركة فى ٤ شوال ١٣٠١هـ(٢٢ أغسطس ١٨٨٤) إنهزم فيها أبو قرجة وفقد أخويه نصر ومصطفى . وأجبر الأنصار على إخلاء معسكرهم والتراجع إلى قرية ود جار النبى جنوبى الخرطوم، كان وقع هذه الهزيمة شديدا على الأنصار ، إذ كانت بالفعل ثانى هزيمة كبرى تلحق بهم بعد الهجوم الفاشل على الابيض ، وبما أنها كانت هزيمة لأحد كبار قادة المهدى فقد أرسل خطابا لأبى قرجة يواسيه ، جاء فيه : « ولا تبتئس بما حصل فإن الله تعالى أراد أن يميز الخبيث من الطيب » .

تفاءل غوردون بعد هذا الإنتصار فبعث بمحمد على باشا وفرج الله بك على فى ٧ شوال ١٣٠٢هـ (١٥ أغسطس ١٨٨٤) لاستعادة منطقة الحلفاية حيث نجح هذان فعلا فى اجبار أولاد الشيخ العبيد ود بدر على إخلاء المنطقة، وأحس سكان المدينة لأول مرة منذ مارس أن حدة الحصار قد خفت كثيرا ، وأغرت الإنتصارات الأخيرة ـــ التى أحرزها الجنود ـــ غوردون ليحاول القضاء نهائيا على تجمعات الأنصار فى المنطقة ، وكان الشيخ العبيد قد أصدر منشورا لرجال القبائل يدعوهم فيه للتجمع فى العيلفون ، فاستجاب له ١٠ الف رجل، كما استنفر الشيخ مضوى ٥ آلاف محارب ، فحاول هؤلاء إقامة معسكرات لهم على شاطىء النيل الأزرق حتى يتمكنوا من شل حركة بواخر

غوردون أثناء قيامها بدوريات استطلاعية، أو في رحلاتها إلى سنار، وما أن أيقن غوردون من غرض الأنصار حتى بعث محمد على باشا في ٢١ شوال ١٣٠٢هـ (٢٩ أغسطس ١٨٨٤) على رأس قوة مختلطة مـــن الجهادية، والباشبوزق، وكان هدفها القضاء على الأنصار قبل إحتلالهم لأى مواقع يهددون منها سير الملاحة. ولعبت البواخر دورا رئيسيا في انزال الهزيمة بالأنصار واستولت القوة على كميات من المؤن الغذائية.

وربما لهذا السبب تعقبهم محمد على باشا حتى توغلت قوته داخل غابة أم ضبان، ولكن جهل محمد على وقواته بالمسالك أدى إلى تعرضهم لنيران الأنصار المفاجئة. فكانت ضربة قاضية، فقد فيها غوردون محمد على باشا و ١٦٠٠ من خيرة جنوده الذين ينتمون للآلاى السودانى الأول.

أسطول الخرطوم:

كان الاسطول النهرى الصغير الموجود بالمدينة دعامة من الدعائم التى إرتكز عليها غوردون فى دفاعه. فبالاضافة إلى الاستفادة من تلك المراكب فى وظيفتها البديهية كوسيلة لنقل المؤن الغذائية والمكاتبات من العاصمة وإليها، فقد أثبتت السفن النهرية فعالية شديدة فى التصدى لهجمات الأنصار من جهات النيل الأبيض والأزرق. كما أنها إستعملت للقيام بحملات تفتيشية منتظمة على الشواطىء لمراقبة تحركات الأنصار وما يدب من نشاط فى معسكراتهم. (١)

كان لبواخر الأسطول تاريخ بدأ فى عهد محمد سعيد باشا حين وصلت إلى الخرطوم أربع سفن هى « الفاشر » و « المسلمية » و « التوفيقية » و « نمرة تسعة » (٢) وقد وصل فوج آخر من السفن عندما أوكلت لصموئيل بيكر قيادة حملة للمديريات الإستوائية، وضم هذا الفوج كلا من « تل الحوين » و « البوردين » و « الصافية » و « المنصورة » و « شبين » و « امبابة »

---

(١) Datsun, "The Campaign of Gordon's Steamers" *The Royal Engineers Journal*, 21st October 1888, p. 8.

(٢) Hill, *Sudan Transport*, pp. 3-5.

و « الإسماعيلية » و « الخديوى » و « نيانزا » وعند مجيء غوردون إلى السودان فى عام ١٨٧٧ طلب باخرتين إضافيتين هما « العباس » و « محمد على » إلا أن تجهيزهما للعمل لم يتم إلا فى عهد رؤوف باشا ١٨٨١ — . وقد تم أثناء حصار الخرطوم تركيب باخرتين هما « الحسينية » و « الزبير » فاعدت الأولى للاستعمال فى أكتوبر ١٨٨٤ والثانية فى ٢٧ نوفمبر ١٨٨٤.(١)

إلا أن غوردون لم يتمكن بسبب الحرب من الإحتفاظ بكل المجموعة تحت تصرفه طوال مدة الحصار . ففقد أولا « المسلمية » و « الفاشر » التى استولى عليها الأنصار فى بربر ، ثم فقد « محمد على » فى فداسى وقد استعملها محمد عثمان أبو قرجة فيما بعد فى نقل الذرة من قرى شواطىء النيل الأزرق إلى معسكره جنوب الخرطوم .

كما أن « العباس » التى حملت ستيورت وقافلته إلى مصر فى سبتمبر قد تحطمت على صخرة فى قرية هبه بين مروى وأبى حمد . ورأى غوردون تعطيل « نمرة سبعة » وإستعمال أجزائها فى إصلاح بقية البواخر ، وحطمت قوات الأنصار « الحسينية » بعد فترة وجيزة من إنزالها للماء بالقرب من المقرن. تبقى لغوردون بعد ذلك اسطول يتكون من « التوفيقية ، وتل الحوين ، والصافية ، والمنصورة ، والبوردين ، والإسماعيلية » .

كانت تلك البواخر صغيرة الحجم ولم تبن أساسا لتستخدم فى أغراض عسكرية . إلا أن غوردون إستطاع أن يدخل عليها من التعديلات ما جعلها قادرة على القيام بمهام حربية ناجحة . فكان أن ثبت قطعا خشبية سميكة على جانبى كل باخرة من الخارج ، وقطعا حديدية من الداخل ، وسلح كلا منها بمدفع جبلى وضع فى المقدمة ، وآخر فى المنتصف ، مع مجموعة تتكون من خمسين جنديا مزودين بكمية من الذخيرة والمؤن الغذائية .

واستخدم غوردون البواخر فى نقل المكاتبات بين الخرطوم وبربر حينما قام الأنصار بقطع الخط التلغرافى . فكان أن بعث فى أيام الحصار

---

(١) Hill, "Gordon's Steamers".

بموسى بك شوقى ليأتى بالبريد من بربر على ظهر الباخرة « العباس » وتحت حراسة سفينتين ، وظلت هذه وسيلته فى نقل الرسائل إلى القاهرة طوال مدة الحصار ، إذ بات يبعث بها إلى بربر بواسطة إحدى بواخره ، ويحملها الجواسيس من هناك إلى دنقلا .

كان دور البواخر فى القيام بمراقبة تحركات الأنصار كبيرا . فما أن تقاطرت الأنباء عن تقدم قوة للأنصار من جهة القطينة حتى أصدر غوردون أوامره لساتى بك ليقوم بحملة على ظهر الباخرة « المنصورة » ذات هدف مزدوج ، إذ عليها أولا تقدير قوة الأنصار وموقعهم ، ثم الاشتباك معهم . وقد أدى ساتى بك هذه المهمة بنجاح ، فأعقبها غوردون بأخرى على ظهر « تل الحوين » و « البوردين » واستمرت هذه الحملات إلى أن تمت هزيمة أبى قرجة ، وتراجع إلى الجريف . فداوم غوردون بعد ذلك على على إرسال باخرة لتستكشف تحركات الأنصار وتهاجم أى فئة منهم تحاول الوصول إلى برى أو المنطقة التى تجاورها .

تمركزت فائدة الأسطول بالدرجة الأولى فى مقدرته على صد هجمات الأنصار المتتالية على المدينة . فما أن يسمع غوردون عن تجمعات لهم خارج الأسوار حتى يبعث بجنده على ظهر البواخر للتصدى لهم وإجبارهم على التراجع . الا أن الأنصار سريعا ما فطنوا إلى الدور الذى يقوم به الاسطول ، فشيدوا طابية فى شجرة محو بك ، ودأبوا من هناك على ضرب البواخر أثناء قيامها بالحملات التفقدية . فأرسل غوردون ساتى بك على رأس مجموعة من الجند على ظهر كل من « البوردين » و « المنصورة » و « الإسماعيلية » فكان أن أنزل ساتى بك نصف مجموعته إلى الشاطىء ، واحتفظ بالنصف الآخر فى البواخر ليقوم بحماية المهاجمين عند تراجعهم وقد نجحت هذه الحملة فى تدمير الطابية والإستيلاء على المدفع الذى كان فيها .

ورغم النشاط المتعدد الجوانب الذى كانت تقوم به البواخر ، إلا أن

صغر حجمها كان يشكل نقطة ضعفها الأساسية . فقرر غوردون الاستفادة من المراكب الشراعية وتقويتها بقطع من الخشب السميك وتسليحها بالمدافع، فكان من جراء هذا أن ارتفع العدد الذى يمكن أن تحمله الباخرة إلى حوالى المائتين جنديا .

وقد تمكن بعد هذا من إيفاد ثمانمائة من الجنود النظاميين والباشبوزق على ظهر كل من « البوردين » و « تل الحوين » و « المنصورة » و « العباس » لمهاجمة قوات أبى قرجة فى معسكرها ببرى. وقد أدت الحملة مهمتها بنجاح، بل أن هذه العملية تعد من أنجح العمليات التى قامت بها قوات الحكومة على الاطلاق . إذ طبقت فى الهجوم خطة إنزال قوات لتهاجم ، وأخرى لتبقى فى البواخر لترسل بقذائفها نحو الأنصار وتحمى فى ذات الوقت خط تراجع القوات البرية ، فأجبرت أنصار أبى قرجة على إخلاء المعسكر والتراجع حوالى ١٠٠٠ متر جنوب الخرطوم، كما تمكنت من الاستيلاء على كميات وافرة من المواد الغذائية . وقد أثبت أسلوب إشراك البواخر مع المشاة فى الهجوم فعاليته ، فكان أن اشتركت كل من « المنصورة » و « تل الحوين » و « الصافية » محملة بثمانمائة جندى فى معركة العيلفون التى هزم فيها محمد على باشا أنصار الشيخ العبيد وأجبرهم على التقهقر إلى قرية أم ضبان .

ومن ثم يمكن القول إن العمليات الناجحة التى حققها غوردون أثناء الحصار كانت فى جملتها تلك التى ساهمت فيها البواخر بمفردها أو بمساندة قوات برية .

كذلك استعملت السفن فى حملات إمداد المدينة بالأغذية من سنار والقرى المجاورة ، فأرسل غوردون أولا محمد على باشا على ظهر ست بواخر إلى أبى حراز لجمع ما يجده فيها من مؤن .

وقد واصلت إثنتان من البواخر رحلتهما إلى سنار تحت قيادة بخيت بك بطراكى وقد عاد قائدا الحملتين بكميات من الذرة والمواد الأخرى،

ولعل نجاح هاتين الحملتين قد شجع غوردون ليبعث بنصحى باشا بعد أربعة أسابيع لسنار مع مائتين من الجنود على ظهر « البوردين » «وتل الحوين» وقد عادتا محملتين بحصيلة من الذرة تعتبر أكبر ما أدخل للمدينة طوال فترة الحصار .

إلا أن ذلك النشاط الفعال قد تقلص كثيرا عندما قرر غوردون التخلي عن بعض قطع أسطوله . ففى ١٢ سبتمبر ١٨٨٤ تخلى عن الباخرة « العباس » فرحلت وعلى ظهرها ستيورت باشا وقناصل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبعض التجار الراغبين فى العودة إلى مصر . كما رحلت « المنصورة » و « الصافية » مع هذه القافلة لتأمين خط سيرها حتى تتعدى منطقة الخطر عند مشارف بربر . ورغم أن هاتين الباخرتين عادتا إلى الخرطوم مرة أخرى فى العشرين من نفس الشهر ، إلا أن مهمة أخرى خارج نطاق الحصار كانت معدة لهما ، إذ قرر غوردون أن يبعث بهما لانتظار حملة الإنقاذ فى شندى مع باخرة أخرى هى « تل الحوين » فغادرت هذه المجموعة الخرطوم فى ٣٠ سبتمبر ، وأرسل فيما بعد « التوفيقية » وهى تحمل البريد ،وأمر نصحى باشا الذى عقد له لواء قيادة أسطول المتمة بالإحتفاظ بها وإرسال تل الحوين بدلا عنها إلى الخرطوم .

وعند وصول هذه ، بعث بها مرة أخرى مع « البوردين » ومع تعليمات لخشم الموسى بك بالبقاء فى شندى على ظهر « المنصورة » فى حين يتوجه نصحى باشا فى « التوفيقية » و « تل الحوين » و « الصافية » إلى المتمة وتعود « البوردين » مرة أخرى إلى الخرطوم .

ومما لا شك فيه أن غوردون ارتكب خطأ بايفاده تلك السفن لانتظار حملة الإنقاذ زهاء خمسة أشهر فى شندى دون أن تقوم بأى عمل من شأنه أن يساعد فى تخفيف حدة الحصار المضروب حول المدينة . بل أن هذه البواخر كانت معطلة تماما طوال مدة بقائها هناك ، إذ أن غوردون قد أمر

الجند بعدم المبادرة بالهجوم خوفا من أن تقضى عليهم قوات الأنصار التى تتفوق عليهم عدديا ، وكان من الممكن أن تواصل تلك البواخر نشاطها فى الدفاع عن المدينة خاصة وأن الخرطوم كانت تمر بأحرج فترتها ، إذ شهد شهر سبتمبر وصول تجمعات إضافية للأنصار ، وتصاعدت الإشتباكات بصور لم يسبق لها مثيل .

عجز غوردون بعد ذلك التاريخ عن التصدى الفعال لقوات المهدى، ناهيك عن مبادرتها بالهجوم، إلى درجة أنه اضطر لإخلاء الحلفاية. ولم يتمكن أيضا من إيفاد أى حملات لسنار للحصول على مواد غذائية، إذ كانت آخرها تلك التى قام بها نصحى باشا بنهاية سبتمبر .

لم تدم فترة الهدوء الذى أعقب تراجع قوات أبى قرجة طويلا . فسرعان ما استدعى المهدى قائده عبد الرحمن النجومى من جبل الداير ليقود حملة إلى الخرطوم فى ١٨ شعبان ١٣٠١ – (١٣ يوليو ١٨٨٤) (١) وغادر النجومى الرهد فى غرة شعبان ١٣٠١ هـ (٢يونيو ١٨٨٤) على رأس جيش يقارب الستين ألفا ، وقد اجتمعت معه قوات عبد الله ود النور التى قدرت بالعشرين ألفا (٢). تسلحت غالبية المحاربين بالحراب والسيوف ، إلا أنه كانت هناك قوة من الجهادية تبلغ عشرة الآف رجل مسلحين بالبنادق ، بالإضافة إلى قوة مماثلة من الخيالة . وكانت معهم أيضا أربع مدافع جبلية، وأربع مدافع كروب، وصاروخ واحد، وسار مع هذه القوة مجموعة من الأمراء، بينهم حسن النجومى، وعبدالقادر ود مدرع – شيخ قبيلة الحسنات، وعبد الله سالم بن حاج عبد الله .

---

(١) المهدى إلى عبد الرحمن النجومى وحمدان أبو عنجة وموسى الحلو فيوضات ج ١٩٣/٣ .

(٢) عبد الله ود النور من قبيلة العركيين ، أعلن انضمامه للمهدى فى أولى مراحل الدعوة. شارك فى حصار عدة مواقع فى كردفان بما فيها بارة والأبيض، قتل فى احدى معارك حصار الخرطوم قبل حوالى شهرين من سقوط المدينة فعين ابراهيم أبو بكر مكانه. (أبوسليم معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم).

وما أن وصل النجومى إلى ضواحى الخرطوم حتى شرع فى توزيع المنشورات على الأهالى يحثهم فيها على القيام لمساندة القوات المحاصرة فاجتمعت اليه أعداد هائلة .

عسكر النجومى مع جزء من قواته فى قرية القوز ليقابل طابية الكلاكلة حيث يوجد أكبر قدر من الجند والعدة والعتاد الحربى ، وقد وجه الشيخ عبد القادر أبراهيم لإقامة معسكره فى منطقة تواجه طابية المسلمية فى حين تمركزت قوات عبد الله ود النور وعبد الحليم مساعد فى منطقة برى المعروفة بحساسيتها ، إذ منها يمكن السيطرة على الملاحة فى النيل الأزرق وشل حركة بواخر غوردون فى ذلك الاتجاه .

وكان المهدى يزود قادته بتعليمات من الرهد ، فبعث يوجه شيخ فضلو ود أحمد الذى كان مقيما فى شجرة محوبك لينضم مع عبد الله ود جبارة إلى الشيخ العبيد ود بدر لتعزيز الجبهة الشرقية ، إذ أنها تمثل المدخل الرئيسى لأية قوات قادمة من الخارج . ولهذا السبب بعث لهم فيما بعد بقوة إضافية بقيادة أبى بكر ود عامر .

خزن النجومى المواد الغذائية فى الجريف تحت حراسة حاج خالد العمرابى ، ثم شيد طابية وضع عليها كلا من شريف سليمان العبيد ، وحمد النيل حامد ، وعمر الخليفة محمد سوار الدهب ، فجعلوا رجالهم فى حالة تأهب لإرسال أية نجدة قد تطلبها برى .

وشيد النجومى أيضا جملة طوابى فى مقابل طوابى الخرطوم حتى يتمكن أنصاره من إرسال قذائفهم عند ظهور أى من رجال الحامية خارج بواباتهم . وداوم المهدى على إرسال أفواج من المحاربين بصفة منتظمة ، كما يفهم من إحدى رسائله ، وفيها يشير على النجومى بتوزيع القوات الموفدة على طول خط النار مع وضع كل راية فى موقع إستراتيجى (١) وعند مقتل

---

(١) المهدى إلى عبد الرحمن النجومى ٨ ربيع أول ١٣٠٢ (٢٦ ديسمبر ١٨٨٤) فيوضات ج/١٧٨ .

عبد الله ود النور إنتقل النجومى إلى معسكر برى بناء على تعليمات المهدى فى حين حل أبو قرجة مكانه فى مقابل طابية الكلاكلة .

المرحلة الختامية للحصار :

وبوصول فوج المهدى إلى مشارف المدينة فى ٢٣ أكتوبر ١٨٨٤ وصل موقف الحصار إلى ذروته المتوقعة ، فقد بدأت المسيرة من الرهد فى ٢٢ أغسطس. ولعل ضخامة حجمها قد اضطرها إلى اتخاذ ثلاثة طرق منفصلة إلى الخرطوم، فسار المهدى والخلفاء فى طريق الطيارة ، شركيله ، شات ، الدويم ،واتخذ رعاة الإبل الطريق الشمالى مرورا بخور سو ، هلبة ، والترعة الخضراء،أما الطريق الجنوبى فكان يناسب البقارة نسبة لوفرة المياه على طول إمتداده . ووصف أحد شهود العيان هذه المسيرة بقوله « بحال قيام المهدى من الرهد إلى الخرطوم بالجيوش الجرارة التى ليس لها نظير قامت الدنيا بأثرها وتوجهنا مسافرين كأننا قرعة على البحر لا نعرف أولنا من آخرنا » .

وقدرت القوات التى جاءت فى ركاب المهدى بحوالى ٢٠٠,٠٠٠ شخص ، وقد شملت هذه بالاضافة إلى المحاربين كثيرا من زعماء القبائل الذين سارعوا باعلان الولاء للمهدى قبل مغادرة الرهد ، وانضموا اليه مع عائلاتهم ، ولعل الهدف من النزول فى القرى التى تقع على طول الطريق لم يكن الاستجمام وحده،بل جذب أعداد إضافية من الأهالى لتسير فى معية المهدى إلى الخرطوم .

ومن الطريق بعث المهدى برسالة إلى قواته المحاصرة للمدينة يدعوهم إلى تشديد قبضتهم عليها ويعلن لهم أن إلمامه بهم قد أصبح وشيك الوقوع ، كان الموقف فى المنطقة يهدد بالانفجار ،إذ أن الاتجاه العام لكل فريق قد تحدد بصفة نهائية ، ولم يكن أى منهما يقبل التنازل عنه قيد أنملة. و كشفت الرسائل المتبادلة أن فريق المهدى لا يقبل حلا سوى التسليم المطلق ، وإلا فلا مناص من الحرب . فكتب الشيخ عبد القادر أبراهيم « ... ان ذات الإمام الشريف

حضرت بشات ومعه من الجيوش ما لا يحصى عددا وعن قريب حاضر بجيوشه للبندر فوجب علينا إعلامكم بذلك فلعل وعسى أن تقبلوا وتتركوا كلام المفسدين وتسلموا أمركم لهذا الإمام عليه السلام لأنه لا شك أنه هو المهدى المنتظر عليه السلام، وأن جميع الدول يصير هلاكها على يده، ولأنه مؤيد ومنصور بقدرة الله .. وهذا ما نصحناكم به إن أراد الله لكم ولأهل البندر قبوله، وأعلموا يا سعادة الغوردون إننا خاطبنا حضرة الإمام المهدى فى حقكم ووردت إفادته بما يوجب سروركم وتأمينكم إن حصل منكم له الانقياد أو التسليم (١) » .

ويكرر الشيخ عبد القادر ذات الدعوة فى خطاب آخر ويطلب من غوردون إغتنام هذه الفرصة لتأمين سلامته وسلامة المسلمين، وإلا فإن الأنصار لن يترددوا بعد ذلك فى اقتحام أسوار المدينة « فهم فى غاية التصميم وقوة العزم وكل منهم يغدو ويروح راضيا بالموت » (٢) . إلا أن غوردون كشف فى رده على الشيخ عبدالقادر أنه لن يسلم لهم، بل هو على استعداد لمواجهتهم عسكريا، إذ يقول «زيادة على ما قوينا به إستحكام الخرطوم من الغام وسلوك فإننا شارعين فى أعمال زلزلة أرضية بواسطة الأجزاء الكهربائية » (٣) .

وبعث عبد الرحمن النجومى أيضا خطابا لغوردون يكرر فيه ما ورد فى خطاب الشيخ عبد القادر ويقول « فإن اتبعت وسلمت الأمر لله ورسوله فزت بأجرك وأجر جميع من معك » (٤) فجاء رد غوردون ليقنعهم بالا مجال لحل القضية سلميا، فهو لن يعترف بالمهدى، ولن يستسلم له. فأيقن النجومى عندئذ أنه لم يعد هناك طريق سوى الحرب، ومن ثم بدأ يدعو غوردون اليها بقوله « وأعلم أن المهدى عليه السلام ما قدمنا الا لمحاربتك ومدافعتك وتوطية

---

(١) عبد القادر ابراهيم إلى غوردون باشا ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ.
(٢) عبدالقادر ابراهيم إلى غوردون باشا غاية ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب.
(٣) غوردون إلى عبد القادر ابراهيم. ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب.
(٤) عبد الرحمن النجومى وعبد الله النـور إلى غوردون باشا ٢١ ذو القعدة ١٣٠١ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج .

لجيشه واسيادته، وما دام أنت واليا من دولتين عظام كما ذكرت وحضرت لتسوية أحوال السودان فلا تجد فرصة لتنجح قصدك وما مولك الا فى هذين اليومين قبل حضور الجيش وإستكماله فإنك إن تأخرت أنت ومن معك بداخل القفرة إلى أن تم وصول الجيوش وحل الركاب الشريف بهذا الطرف وأنتم تحت انتظار الانكليز فقد خاب قصدكم وأملكم فالاولى أن تجمع كافة حزبك ورجالك وتخرج لمقابلتنا ومقاتلتنا خارج الإستحكام » (١) .

ويلاحظ أن غوردون رغم رفضه المبدئى للتسليم ما زال يتجنب المعارك الواسعة النطاق التى يمكن أن تنزل ضربة قاضية بقوته ، فهو يريد أن يصمد أطول وقت حتى تصل حملة الإنقاذ . ولا بأس فى هذا الاثناء من بذل محاولة أخيرة علها تنجح فى إقناع قادة الأنصار بنبذ أمر القتال . فعرض على النجومى وأبو قرجة فكرة الاعتراف بهما سلطانين على الغرب اذا ما عادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل الثورة (٢) إلا أن هذه المناصب لم تغر الأميران فقابلا عرض غوردون باستخفاف ظاهر. ثم جسمت آخر رسائلهم القضية، فلا دعوة للتسليم بعد ذلك ولا قبول لها « فبعد هذا لم يكن بيننا وبينكم مكاتبه أو مخاطبة إلا الحرب » (٣) .

وقد عكست مكاتبات المهدى التى بعث بها لغوردون نفس الإتجاه الذى حملته رسائل قادته ، فإما التسليم أو الحرب ، فى حين أكد غوردون رفضه للحل الأول وإصراره على الصمود ، والبقاء من بعد للأقوى .

ولقد كتب المهدى فى أول رسالة بعث بها لغوردون بعد وصوله لمشرع القيعه بالقرب من أمدرمان قائلا « فإن انبت إلى الله تعالى وأسلمت

---

(١) عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور إلى غوردون باشا ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د .

(٢) غوردون إلى الشيخ عبد الرحمن النجومى ، ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د.

(٣) عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور إلى غوردون ٣ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق هـ .

وسلمت الأمر لله ورسوله وصدقت بمهديتنا أرسل مخاطبة منك ومن معك جميعا الينا بعد وضع السلاح ورفع المحاربة لنرسل لكم من يؤمنكم ، وان لم تفعلوا ذلك فأذنوا لحرب من الله ورسوله » (١) ثم كرر المهدى هذا النداء فى كل خطاباته التى بعث بها من ديم أبى سعد طوال الثلاثه أشهر التى سبقت مهاجمته للمدينة . ويبدو أن المهدى كان يأمل أن تثمر هذه الخطابات وتتم له السيطرة على الخرطوم دون اللجوء إلى الحرب ،إذ كان يعتقد ألا فائدة من الاقتتال اذا كان بالامكان اتباع طريق الحق سلميا (٢) .

ثم كتب المهدى رسالة لأهالى الخرطوم يبدو أنها الأخيرة ، يعرض عليهم إغتنام هذه الفرصة للنجاة بأرواحهم ، ويلومهم على إنتظار النجدة من الانكليز . فقال « نعرفكم أن الله تعالى غنى عن العباد يهدى من يشاء إلى طريق الرشاد ويضل من يشاء ، ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا وقد طال ما تكررت منا النصائح وأردنا نجاة عباد الله ورسوله لطريق الله فاناب الله من أراد الله سعادته وخالف من خذله الله فاصمه وأعمى بصره فلا أدرى ما الداعى إلى عدم الانقياد أو لله شركاء يستشيرهم فيمن يكون مهديا أم له منازع فى إرادته كلا بل هو القادر الفاعل لما يشاء فيجب على كل ذى بصيرة الوقوف معه على حد الأدب .... ومن المعلوم أنى عبد دال إلى الله ، فمن اتبعنى فقد حاز السعادة الكبرى ،ومن خالفنى سيذيقه الله عذاب الخزى .. وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فإلى متى الغفلةوالتسويف وإلى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ، ألم يأت لكم أن تميل قلوبكم إلى ما ينفعكم فى آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر والضير ، أو ترغبون النجـــدة والفرج عند الإنكليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذى بيده أموركم وقوامكم وهو القوى

(١) المهدى إلى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٢ اكتوبر ١٨٨٤) ملحق د.

(٢) المهدى إلى محمد الطيب البصير بعد ٤ جمادى أول ١٣٠١ (٣ مارس ١٨٨٤). فيوضات جـ ٣/ ٥٠.

العزيز فما الانكليز وغيرهم أضعافا مضاعفة بشيء فى جنب قدرة الله التى يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب . وما القوت الا من عند الله القريب المجيب » (١) .

يقال أحيانا إن المهدى لم يبدأ فى مخاطبة غوردون عند وصوله إلى مشرع القيعه إلا بعد نهاية محرم (١٩ نوفمبر) ذلك لأنه كان يتجنب الحرب فى ذلك الشهر ، ويصور هذا القول المهدى كأنما كان يسعى إلى الحرب ويبادر بالعنف ، إلا أن الوثائق ثبت غير هذا . فرغم أن المهدى قد أعلن صراحة إستعداده لخوض غمار الحرب إلا أنه بذل جهدا كبيرا ليغرى غوردون بالتسليم ، وكانت استجابة الأخير الرفض الصريح ، ومن ثم فلم يعد خافيا على أحد بعد ذلك أن الحرب هى السبيل الوحيد .

وضع غوردون الفرقة المصرية الأولى المكونة من ثلاثمائة وعشرين جنديا تحت قيادة يوسف أفندى عفت فى أول خط الدفاع من الجهة الغربية ، ويلى هذه عشر فرق من الباشبوزق الشايقية والمتطوعين تحت قيادة عثمان بك حشمت . ثم الفرقة المصرية الثانية بقيادة فرج بك على وأبراهيم بك صالح ، وكانت تسيطر على المنطقة الممتدة حتى بوابة الكلاكلة ، وقد وضع هذا الجزء من خط الدفاع تحت قيادة حسن بك بهنساوى . وإلى الشرق من بوابة الكلاكله وضع غوردون ثلاث فرق من الباشبوزق الأتراك والشايقية ، ثم الفرقة السودانية الأولى تحت قيادة على أفندى صقر ، ثم تسع فرق أخرى من الباشبوزق بقيادة سرور بك بخيت ، ويلى هؤلاء الفرقة السودانية الثانية بقيادة محمد أفندى عثمان ، ثم فرقتان من الباشبوزق ، فالفرقة السودانية الثالثة بقيادة أحمد أفندى السوكى ، وقد كان هذا الجزء تحت قيادة بخيت بك بطراكى .

واتخذ غوردون جملة احتياطات دفاعية فى أقصى الجزء الغربى من خط النار ذلك لأن انخفاض النيل قد أدى إلى ظهور جزيرة صغيرة بين طابية

(١) المهدى إلى كافة أهالى الخرطوم ، انذارات ب ص ٢٢٥ - ٦ .

المقرن وأمدرمان ، ولم تغب عن ذهن غوردون إمكانية إحتلال تلك الجزيرة بواسطة الأنصار ، فبعث لتوه بمائة جندى لحـــراستها . إلا أن إستمرار إنخفاض النيل أدى إلى إتساع تلك الرقعة حتى بلغ طولها حوالى ١٥٠٠ مترا فشرع الجند فى حفر الخنادق وتشييد الأسوار حتى تمكنوا من تغطية حوالى ١٠٠٠ متر . ويبدو أن حالة الإرهاق التى وقع فيها الجند لم تمكنهم من إتمام الخمسمائة مترا المتبقية ، فظل ذاك الجزء ثغرة فى خط الدفاع . ولقد تدهور الموقف من الناحية الشمالية أيضا ، اذ أن غوردون اضطر لاخلاء الحلفاية عند إرسال البواخر إلى شندى فما كان من الشيخ العبيد إلا أن تقدم لاحتلالها و بدأ أنصاره يرسلون قذائفهم بصورة منتظمة على المدينة .

طبق المهدى حال وصوله خطته النهائية فى توزيع قواته حول المدينة . فعسكر محمد عثمان أبى قرجة فى الجنوب الغربى بمحاذاة النيل الأبيض ، فى حين حاصر فضل المولى بك طابية أمدرمان ، وعسكر حمدان أبو عنجة بين الطابية والنهر ، وأرسل غوردون ثلاث بواخر لتصد هجوم أبى عنجة على طابية أمدرمان حيث نشبت معركة بين الفريقين كان تفوق الأنصار فيها عدديا هو السبب المباشر فى انزال الهزيمة بقوة الحكومة ، فأغرقوا إحدى السفن وهى «الحسينية » ، قرب جزيرة شيخ أبو زيد ونجحت الاثنتان فى الرجوع إلى الخرطوم تحت وابل من الرصاص ، استمر التراشق بالنيران حتى تم تسليم حامية أمدرمان ، فكان لهذا أثر مباشر على موقف الخرطوم ، إذ إجتمعت قوات المهدى بأسرها حول المدينة ، وظلت ترسل قذائفها ليلا ونهارا على الجند والبواخر على حد سواء ورغم هذا صمدت الخرطوم قرابة الثلاثة أسابيع ويبدو أن الأنباء التى وصلت إلى المهدى عن قرب وصول حملة الإنقاذ جعلته يعجل بالهجوم . كما وضح ، من ناحية أخرى ، أن لا أمل البتة فى السيطرة على المدينة سلميا . ولكن هذه القوة الآتية من الخارج ربما تدعم حامية الخرطوم لدرجة لا تمكن الأنصار من إحراز النصر السريع الذى توقعوه ، فمن الأفضل — إذن — شن هجوم شامل قبل وصولها . وتمكن المهدى من

الإلمام بتفاصيل خطة دفاع غوردون من بعض الجنود الهاربين، فعلم أن القوات النظامية تقوم بحماية النقاط القوية، في حين تركت الثغرات تحت حراسة الأهال والضعفاء . ولهذا فقد بدأ الهجوم في صبيحة الاثنين ٩ ربيع ثاني ١٣٠٢هـ (٢٦ يناير ١٨٨٥) بالتركيز على أكثر المناطق ضعفا ، تلك التي في أقصى الغرب ، وسرعان ما فوجيء رجال حامية الخرطوم بالأنصار وهم يضربونهم من الخلف ، فلم تكن هناك مقاومة تذكر بل ، أن أغلبهم وضع السلاح دون أن يطلق قذيفة . لم يكن بامكان رجال الحكومة أن يردوا هجوما يشنه ما يقارب المائة ألف محارب . بالاضافة إلى هذا فقد أفقدهم الارهاق الجسدي الذي تعرضوا له من جراء المجاعة التي اجتاحت المدينة كل لياقة تمكنهم من خوض معركة متكافئة .

أما حملة الإنقاذ فقد كان تاريخ وصولها إلى القبة يوم ٢٠ يناير . ولعل ذاك القول الذي يردده بعض المؤرخين بأن الحملة لو سارعت طلائعها إلى الخرطوم يوم وصولها القبة لتمكنت من تغيير مجرى التاريخ هو مجرد تصور . فماذا كان يمكن أن تفعل حفنة من الجند على ظهر « البوردين » و « تل الحوين » أمام تلك الجحافل ؟. ولعل القول بأن وصول الطلائع كان سيدفع برجال الحامية إلى الصمود لأنه يبشر بقرب وصول حملة الإنقاذ هو الآخر بعيد عن الواقع ، اذ أن رجال الحامية كانوا في حاجة إلى من يحارب في صفوفهم لا إلى من يرفع من روحهم المعنوية .

الخاتمة

بسقوط الخرطوم فى أيدى الأنصار ، فى السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ ، وضعت النهاية العملية للمهمة التى أوكل أمر تنفيذها لغوردون . فبعد انقضاء زهاء العشرة أشهر فى المدينة ، وضح تماما أن تعليماته التى تلقاها فى كل من لندن والقاهرة ما زالت حبرا على ورق . وفى المكان الأول ، لم يتمكن من اخلاء أى من الجنود والمدنيين من رعايا الامبراطورية العثمانية الذين كانوا يرغبون فى العودة إلى مصر . كل ما تم فى هذا المجال هو ترحيل قرابة الألف شخص يشكلون فى معظمهم عائلات الضباط والجنود الذين هلكوا مع هكس باشا فى شيكان . ولم يتعد نشاطه إزاء حامية الخرطوم فى هذا الصدد سوى نقل فرقتين من الجنود المصريين إلى أمدرمان تأهبا للرحيل ، إلا أن تزايد جموع الأنصار حول المدينة قد إضطره لالغاء الخطة ، أو على الأقل تأجيلها ، فعاد بهم مرة أخرى إلى الخرطوم حيث بقوا فيها حتى سقوطها . لم يتمكن غوردون من عمل شىء أيضا فيما يتعلق بالحاميات الاخرى التى كان من المقرر أن يشملها قرار الإخلاء . فقد تأكد له أن الوضع فى منطقة الخرطوم وفى المراكز التى تقيم فيها تلك الحاميات لا يسمح بسحب أى منها ، فبقيت فى مكانها تسعى بامكانياتها لتشتيت شمل الأنصار من حولها ، فسقط منها من خارت قواه وبقى بعضها يدافع عن نفسه لوقت لاحق لسقوط العاصمة .

أما الشق الآخر من تعليمات غوردون ، ذلك الذى يتعلق بالجانب السياسى ، فلم يكن نصيبه من النجاح أكثر من الشق الأول . فقد فشلت محاولاته فى إبقاء السودان تحت النفوذ التركى — المصرى ولو صوريا . وتأكدت أول بوادر هذا الفشل عند سقوط بربر بعد حوالى ثلاثة أشهر من تاريخ تعيين مجلس الوجهاء الوطنيين الذين نصبهم غوردون ليحفظوا سلطة الخديوى . أما بالنسبة للخرطوم فرغم أنه شخصيا ظل يسيطر على الموقف

طوال مدة بقائه ، إلا أنه حاول تطبيق خطة بربر بتعيين مجلس من الأعيان يحتل رعايا الإمبراطورية العثمانية أغلب مقاعده . ولم تلق محاولته لاغراء ذوى النفوذ من الأهالى بالسلطة صدى فى نفوس هؤلاء . من ثم غادر عبد القادر أبراهيم قاضى الكلاكله الخرطوم نهائيا رغم تمتعه بعضوية ذلك المجلس . ولم يتمكن عوض الكريم أبو سن من قبول منصب مدير الخرطوم الذى عرضه غوردون عليه متعللا بخطورة السفر وسط منطقة فقدت الحكومة السيطرة عليها تماما . ولعله آثر مراقبة الوضع عن بعد خاصة وأن قبيلته كانت تتأرجح فى موقفها بين الفريقين المتنازعين .

لم تثمر ، إذن ، محاولات غوردون فى الوصول إلى حل وسط يتمثل فى سحب السلطة التركية الفعلية وإبقاء نفوذ صورى يسنده جهاز حكومى يقف للمهدى بالمرصاد ، ولم يكن الوضع فى الواقع يحتمل حلا وسطا ، وكانت الثورة قد انتظمت جميع القطاعات القبلية ، وأكد المهدى سيطرته التامة على أجزاء كبيرة من البلاد ، فاندفع الناس لمساندته بحماس منقطع النظير . وأبدوا استعدادهم للتضحية بأرواحهم وأموالهم . كانت الرؤيا أمامهم واضحة لا غموض فيها ولا لبس ،فهم يسعون للسيطرة على الخرطوم كجزء من مخطط يستهدف القطر بأكمله ، بالاضافة إلى هذا فقد توفرت لهم العوامل التى تساعد فى إستكمال هذا النجاح ، توفر لهم العنصر البشرى المسلح بأسلحة تقليدية ، وتوفرت لهم أيضا كميات من الأسلحة الحديثة والأموال والعتاد الحربى ، ولم تفتقر حامية الخرطوم إلى كل هذا فحسب ، بل افتقرت فى المكان الأول إلى روح المبادرة التى تدفع الجنود إلى خوض معارك ضد الأنصار بحماس حقيقى ، فقد تاه الهدف من تلك الحرب بالنسبة لهم وسط ضباب كثيف ، فهل يحاربون من أجل ترسيخ أقدام الحكومة المصرية التى أعربت عن زهدها فى البلاد رسميا ؟ أم من أجل الحكومة البريطانية ؟ أم من أجل غوردون ؟ كان بالطبع ثمة جنود بين أفراد الحامية لا تنقصهم الشجاعة والاقدام،ولكنهم كرهوا التفريط فى أرواحهم من أجل

قضية غامضة أهدافها وغير محددة معالمها .

كان لا بد أن تكتمل سيطرة الأنصار على البلاد بعد سقوط الخرطوم فتشمل المراكز التى لم تزل تحت قبضة جنود الحاميات الحكومية ، وكانت كسلا فى حالة حصار بواسطة عامل المهدى مصطفى مهدى وأعوانه ، فكتب مديرها أحمد عفت إلى السلطات المصرية طالبا النجدة ، إلا أنه لم يكن فى الامكان الاستجابة له بعد سقوط الخرطوم ، فقد انتزع المهدى من أيديهم السلطة التى كانت تخول لهم حق التدخل فى البلاد . وقد خشى حكام مصر أن تفسر أى إشارة بارسال جنود إلى السودان على أساس أنها محاولة للتصدى عسكريا للأنصار ، الأمر الذى سيعرض حدود مصر الجنوبية على الأقل للخطر . إزاء هذا الوضع لم يكن أمام مدير كسلا سوى الرضوخ لنداء التسليم الذى وجهه له عامل المهدى ، فتم هذا فى شعبان ١٣٠٢ (مايو ١٨٨٥) .

أما حامية سنار فقد ظلت حبيسة خنادقها لفترة لاحقة لسقوط الخرطوم حتى أرسل المهدى محمد عبدالكريم ، فتم له الاستيلاء على الموقع فى جمادى آخر ١٣٠٢ هـ (مارس ١٨٨٥) .

ومن ثم فطن المهدى إلى ضرورة تأمين منطقة شمال الخرطوم المتاخمة لحدود مصر والتى يمتد عبرها أسهل الطرق البرية والنهرية التى تربط بين البلدين . فأوكل لعبد الرحمن النجومى مهمة تعقب الحملة الانكليزية ، فسار إلى المتمة وبقى فيها يتسقط أخبار الحملة ، وفى يونيو من نفس العام قررت حكومة جلاد ستون إخلاء دنقلا ، فأمر المهدى محمد الخير بالتوجه إلى إحتلالها ، فوقعت فى قبضتهم لقمة سائغة .

نظم المهدى أيضا حملة بقيادة حمدان أبى عنجة إستهدفت بعض قبائل جبال النوبه وجبال تقلى التى تمردت على سلطته .

لم تبلغ إنتصارات الأنصار ذروتها إذن فى السادس والعشرين من يناير كما يتبادر للذهن لأول وهلة ، بل تم لهم هـــذا بعد خمسة أشهر من ذلك

التاريخ . ففى ذلك الحـــين لم يسيطروا على الخرطوم فحسب ، بل أمن لهم سقوطها إمكانية الاستيلاء على كل المراكز التى كانت لم تزل تحت سيطرة الحاميات ، وقد انقلب الانكليز على أعقابهم عائدين من حيث أتوا . وبدأ المهدى يتطلع إلى بسط نفوذه وسيطرته على مناطق خارج حدود البلاد . وعادمرة أخرى إلى ممارسة إستراتيجيته الاعلامية التى درج عليها فى نشر الدعوة عن طريق المنشورات العامة والرسائل الخاصة ، فكتب خطابا إلى الخديوى وآخر إلى أهالى مصر وزود دعاته بالوثائق ، فأخذوا يجوبون بلاد العرب من مشرقها إلى مغربها فى محاولة للخروج بالدعوة إلى نطاق يشمل العالم الإسلامى بأكمله .

المصادر

مصـــادر أوليـــة :

(أ) : مخطوطات دار الوثائق المركزية ، الخرطوم .

Board of Officers headed by Muhammad Nushi Pasha,
The Life of Gordon Pasha in Khartoum.
Ramadan 1303.
Egyptian Intelligence, Class I, Box 3/20

ابراهيم البوردينى ،
تقرير عن حصار الخرطوم وسقوطه
٢٠ أغسطس ١٨٨٧

Egyptian Intelligence, Class I, Box 10/52

عبد الرحمن النجومى .
مخطوط النجومى .
Mahdia Class 8/*Box* 4.

محمد خالد زقل ،
Mahdia Class 8/ *Box* 4.
مجموعة زقل

أفراد من الجنود والمدنيين ،
تقارير وإفادات عن حصار الخرطوم وسنار
Egyptian Intelligence Class I Box 8/54.

أبو سليم ، م . أ ،

معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم

(غير مصنفة وغير مرقمة)

دوائر رسمية ،

A Handbook of Khartoum Province

(غير مصنف وغير مرقم)

Leverson, J.,

Insurrection of the False Prophet
Egyptian Intelligence, Class I, Box 8/3

Col. Fraser,

Report on the Relief of Khartoum 30.4.1884.
Egyptian Intelligence, Class I Box 8/4

مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية – جامعة درام

نصيحة العوام للخاص والعام

Box. 98/4 ٢٠ رمضان ١٣٠١

إسماعيل بن عبد القادر ،

سعادة المستهدى فى سيرة الإمام المهدى (إسماعيل بن عبد القادر)
Box 99/6

عوض الكريم على المسلمى ،

الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية محمد المهدى المنتظر
Box 98/5

مقالات لم تنشر :

Parr, M. W., 'A Rough Outline of the History of Gordon Notes
Box 424/10

Tarttelin, B, *'The Gordon Currency Notes'* *Box* 424/10
Box 424/10

Hill, R., 'Gordon's Steamers'
(unclassiffied)

Public Records Ofice, London

Official Papers Egypt FO 78

Cromer's Papers 633.

Granville's Papers G/D 29.

British Musuem

Gordon, C.G.,

The Journals of Gordon at Khartoum 34473–9

Gladstone Papers, Add. MSS.

Hansand Perliamentary Debates. 1884.

State Papers Vol.42. (Egypt No. 1,5,6,12).

قسم السودان ، مكتبة جامعة الخرطوم

محمد نصحي باشا ،
جورنال الحوادث

(غير مصنف وغير مرقم)

عثمان دقنة ،
دفتر وقائع عثمان دقنة ، ف.

مكتبات خاصة :

ابراهيم البورديني ،

تقرير عن حصار الخرطوم وسقوطها
٢٠ أغسطس ١٨٨٧
(بروفسور ب . م . هولت)

يوسف ميخائيل ،
تاريخ حياتى
١٥ر١٢ر١٩٣٤ (بروفسور ب .م .هولت)

ب : مطبوعات
محمد أحمد المهدى :
– منشورات الإمام المهدى ، الجزء الأول ، ديسمبر ١٩٦٤ ، الطبعة الثالثة
– منشورات الإمام المهدى ، الجزء الثانى ، يوليو ١٩٦٤ ، الطبعة الثالثة
– منشورات الإمام المهدى ، الجزء الثالث ، الأحكام والآداب ، يوليو ١٩٦٤
الطبعة الأولى

نعوم شقير ،
جغرافية وتاريخ السودان
دار الثقافة بيروت ١٩٦٧

ابراهيم فوزى ،
السودان بين يدى غوردون وكتشنر
المؤيد ، القاهرة ١٣١٩ ه

بابكر بدرى ،
تاريخ حياتى

محمد عبد الرحيم ،
النداء فى دفع الإفتراء ، المقطم ، ١٩٤٦ .

Cuzzi, G.,
15 *Years Prisoner of the False Prophet* (*English, Translation* 1967).

Hake E. *The Journals of Gordon at Khartoum,* London 1885.

Ohrawlder, J., *Ten Years Captivity in the Mahdist Camp.* 1883–1892, London 1892.

Slatin, *Fire and Sword in the Sudan* London, 2nd Ed. 1896.

المصـــادر الثـــانوية

Allen, *Gordon and the Sudan,* Macmillan and Co., London (1931)

Cromer, Earl of, *Modern Egypt,* Macmillan and Co., London (1908)

Dictionary of National Biographies, Oxford, (1900).

Elton, L., *General Gordon,*

Gailskell, A., *The Gezira, A Story of Development in the Sudan,* London, 1958).

Hill, R., *Egypt in the Sudan,* Oxford University Press, (1958)

Hill, *Sudan Transport.* Oxford University Press, (1966)

Hill, *A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan,* Clarendon Press, Oxford, (1951).

Holt, P.M., *The Mahdist State in the Sudan* 1881–1898, Oxford University Press, 1958.

Shibeika, M., *British Policy in the Sudan* 1882–1902 Oxford University Press, (1952).

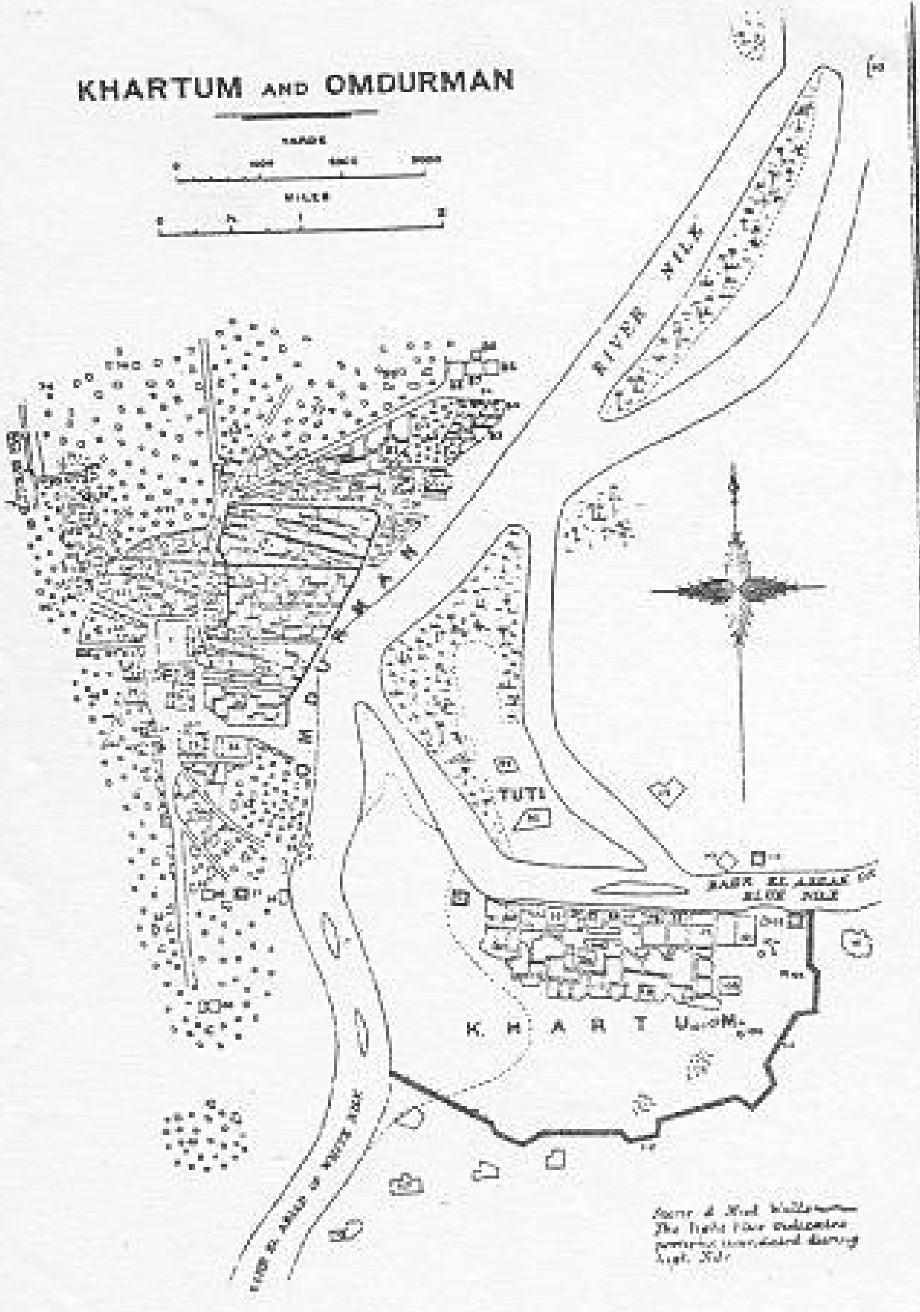
Wingate, F. R., *Mahdiism and the Egyptian Sudan,* Macmillan and Co., London (1891).

الشيخ أحمد كاتب الشونة ،
تاريخ ملوك السودان ، تحقيق م . شبيكة ،
الخرطوم (١٩٤٧)

سليمان كشه ــ تأسيس مدينة الخرطوم
الخرطوم (١٩٦٦م)

دوريات :

The London Times
The Royal Engineers Journal
Sudan Notes and Records
Bulletin of School of Oriental and African Studies



OMDURMAN.

1. The Mosque
2. Mihrab
3. Kubbet of Mahdi (Mahdi's tomb)
4. The old Mosque
5. Khalifa's storehouse
6. Khalifa's special guard
7. Khalifa's Palace
8. Khalifa's Harem
9. Khalifa's harem school
10. Houses of Khalifa's Mulazemin (body guard)
11. House of Mahdi's son
12. Khalifa's stables
13. Khalifa's stores
14. Mahdi's Harem
15. House of Mahdi's family
16. Khalifa Ali Wad Helu's house
17. Houses of Khalifa Ali Wad Helu's Mulazemin & relations
18. House of Khalifa's son Osman
19. Great stone wall of Omdurman
20. Mud wall of Omdurman
21. House of the Khalifa's relations
22. [illegible] new house
23. } Houses of Kadis
24. }
25. Yakub's old house
26. Yakub's new house
27. Houses of Yakub's [illegible]
28. Khalifa's old house
29. [illegible]
30. [illegible]
31. Other houses of Khalifa's relations
32. Prison
33. Arms Factory
34. Quarters of the Western people
35. Quarters of Borgo & Takarna people
36. Mashra (Ferry)
37. Khalifa's house on the Nile
38. Old fort of Omdurman
39. House of the commandant of Jehadia
40. Quarters of the Black Jehadia
41. Khalifa's house in [illegible]
42. Mixed villages of the Feshash Arabs
43. Quarters of [illegible], Fellata & [illegible] people
44. House of Nur Angara
45. Quarters of Homr Arabs
46. Quarters of Kababish and other camel-owning Arabs
47. Quarters of [illegible] Arabs
48. Quarters of Habbania Arabs
49. Quarters of Rizeigat Arabs
50. Quarters of Kenana Arabs
51. House of Abdalla Wad Ahmed
52. Quarters of Dagheim Arabs
53. Quarters of White Nile tribes
54. Quarters of Jaalin Arabs
55. Carpenters' shops
56. Market [illegible] of [illegible]
57. [illegible]
58. Salt Market
59. [illegible] market
60. [illegible] shops
61. [illegible] shops
62. [illegible] market
63. [illegible] shops
64. [illegible] market
65. Grain & date market
66. Grain & date stores
67. Wood market
68. Women's market
69. European cook shops
70. The Mushrameh quarter
71. Old house of [illegible]
72. Cemetery
73. House of Ahmed Sherif & family of Khalifa Sherif
74. Quarters of [illegible]
75. Quarters of the Danagla
76. Quarters of the [illegible] Arabs
77. Tombs of the Martyrs
78. Quarters of different tribes
79. Tombs of the Mahdi's family & relations
80. Powder factory
81. Beit el Mal
82. Slave market
83. [illegible] of the Mulazemin & Kadis
84. Quarters of the Fur tribes
85. Quarters of the Egyptians (Ibrahim Pasha Fauzi, [illegible] Bey [illegible], Yusef Effendi Mansur & others)
86. Khalifa's [illegible] house
87. Khalifa Ali Wad Helu's [illegible] house
88. The [illegible] Mosque
89. Quarters of the Wad [illegible] Arabs

TUTI ISLAND.

90. Powder Magazine
91. Tuti village

KHARTUM.

92. Mukran fort
93. Gardens
94. Church
95. Sanitary Department
96. Post and Telegraph offices
97. Austrian Consulate
98. Government House (Mudirieh)
99. Governor's palace (Saraya)
100. [illegible]
101. Arsenal
102. [illegible]
103. Hospital
104. [illegible]
105. Small arms ammunition stores
106. Artillery ammunition stores
107. Cartridge factory
108. A place of worship
109. French Consulate
110. Italian Consulate
111. Houses of the [illegible]
112. [illegible]
113. Fort [illegible]
114. The [illegible] palace (Saraya)
115. North Fort

116. [illegible]
117. [illegible]
118. [illegible]
119. [illegible]
120. [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد فمن عبد ربه احمد المصطفى عامل المهدي عليه السلام الى الفقرا الاحباب الى [illegible] سبيك

فيجابر [illegible] وكافة [illegible] والعساكر اجمالا هداهم الله للصواب

ايها الاحباب لقد طالما دعوناكم الى الله ورسوله ومهديه عليه السلام بالرجوع فلم كان تحضروا ولا
ترسلوا لنا رسل من طرفكم كما طلبنا منكم ذلك ولكن مادام ان الفقرا اهل [illegible] والفقرا [illegible] الناس انكم
لم تقربوهم اذا حضروكم وجروا بالحرب [illegible] فلم تعترضوا [illegible] ونحن هنا اعلمناكم الخير ورجونا لكم من الله
الهداية وقد كان في الزمن فسحة والان قد ظهر صاحب الوقت امام المسلمين كافة خليفة رسول الله سيدنا
محمد المهدي ابن عبد الله بمحل قريب منا على مرحلة واحدة من [illegible] هذا فمن باب شفقتنا على عباد الله
كلفنا خاطرنا بخبر هذا بعد ما جرى منا لكم مرارا وتكرارا وارسلنا لكم اخوانكم السيد [illegible] ولد الطاهر وحامد
ادريس الشايب لاجل ان تقابلوهم خارجا عن [illegible] وتوافقوهم على الراي الذي به سلم اموالكم واولادكم
ولكم علينا قبل وصول المهدي فتضيعوا جميع الغايبين [illegible] لا [illegible] شفقتنا على الناس
وعدم تعرضنا على اموالهم [illegible] فلا تخشوا امننا ولا من الامام عليه السلام الذي
هو افضل منا وافضل من خلق الله بعد رسول الله فعليكم ما من الله ورسوله ومهديه واما [illegible] الفقير
وانتظرنا هذا [illegible] علينا [illegible] في الدنيا والاخرة ان [illegible] عليكم [illegible] واولادكم واموالكم
ان [illegible] تتوسلوا على [illegible] هذا الليل الذي هو ليل الثلاثاء [illegible] فاذا [illegible] بعد هذا
فلا تجدوا طريقا في الوصول الينا [illegible] وقد [illegible] بان هذا المهدي
هو المنتظر حقيقة الذي يملك مشارق الارض ومغاربها [illegible] والحلي
والفاطيم [illegible] قبلت
والفقرا [illegible] فلا [illegible] وقد نصحتكم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد فمن عبد ربه [illegible] الفقير الى الله [illegible] المصطفى [illegible] محمد [illegible] الى [illegible]

[illegible] السلام عليكم ورحمة الله [illegible] اليكم [illegible] احوالكم [illegible] وليس [illegible] في [illegible]

[illegible] بالنفيسة [illegible] من [illegible] النفث [illegible] الاتفاق [illegible]

ولا زال [illegible] ليلا ونهارا [illegible] لانها كانت [illegible] الامام عليه السلام [illegible] الله تعالى

[illegible] حيث [illegible] البلدة [illegible] واراد الله [illegible] عليكم [illegible] المهدية [illegible]

[illegible] الدول [illegible] من [illegible] شفقة عليكم [illegible] الى الله تعالى [illegible]

[illegible] حبنا [illegible] خروجكم [illegible] محبتنا الله تعالى [illegible]

[illegible] من [illegible] الحبيب من حيث حقيقة هذه [illegible]

[illegible] الناس [illegible]

[illegible] الاشراف [illegible]

[illegible] وان هذا الرجل هو ذاك المهدي الذي [illegible] تلك الافاضيل [illegible] لنا [illegible]

[illegible] القرآن العظيم [illegible] به لانه [illegible]

[illegible] الامان [illegible] الامام [illegible] والاسلام [illegible]

[illegible] الى [illegible] الله [illegible]

[illegible] الى المهدي عليه السلام [illegible] الامان [illegible] عليكم [illegible]

[illegible] الامام عليه السلام [illegible] عشر يوم [illegible]

[illegible] من [illegible] والجبخانة [illegible]

[illegible] هذا العام [illegible] فاحضروا بانفسكم [illegible]

[illegible] بينكم وبين [illegible] الاما عليه السلام

[illegible] الاحكام [illegible]

[illegible] الناس من الامام [illegible] الامان [illegible]

فاحضروا الينا [illegible] حقيقة المهدي [illegible] رحمه الله [illegible]

[illegible] الينا [illegible] الغيب [illegible]

[illegible] اهل المكاشفات [illegible] الله [illegible]

[illegible] بنفسك [illegible] وانا [illegible]

[illegible] الينا [illegible] ان [illegible] الذي [illegible]

[illegible] هذا اهل الله [illegible] حاكم [illegible] الامام عليه السلام

[illegible] من [illegible] والمعرفة [illegible] الامام [illegible] والسلام

الفقير [illegible] احمد [illegible]

الفقير الا [illegible]

جامعة الخرطوم

مطبوعات دار التأليف والترجمة والنشر

الكتب العربية التى صدرت

الكتاب	المؤلف
«١» دراسات فى الأدب والنقد	الاستاذ معاوية محمد نور
«٢» قصص وخواطر (الجزء الثانى)	الاستاذ معاوية محمد نور
«٣» الحركة الفكرية فى المهدية	د. محمد ابراهيم أبو سليم
«٤» الضرائب فى السودان	د. على أحمد سليمان
«٥» معجم المصطلحات القانونية	د. سعيد محمد أحمد المهدى
«٦» اجراءات تحرير الاقتصاد السودانى	د. عثمان حسن سعيد د. عبد الرحمن الطيب على طه
«٧» تاريخ دارفور السياسى	الاستاذ موسى المبارك
«٨» البحر القديم « شعر »	الاستاذ مصطفى سند
«٩» سالى فو حمر « قصص »	الاستاذ جمال محمد أحمد
«١٠» نماذج من الأدب الزنجى	الاستاذ على المك
«١١» تأميم المصارف فى السودان	لجنة الدراسات الاقتصادية بنك السودان
«١٢» دبلوماسية محمد	د. عون الشريف قاسم
«١٣» الصهيونية وعداء السامية	د. محمد ابراهيم الحردلو
«١٤» كوبا الجزيرة التى احببت	د. يوسف بشارة
«١٥» طبقات ود ضيف الله « تحقيق »	د. يوسف فضل حسن
«١٦» أعمال الليل والبلدة	الاستاذ ابراهيم اسحق
«١٧» الصحافة السودانية فى نصف قرن	الاستاذ محجوب محمد صالح
«١٨» الأرض الآثمة « مترجمة »	الاستاذان: صلاح أحمد ابراهيم وعلى المك
«١٩» الشعر الحديث فى السودان	د. محمد ابراهيم الشوش
«٢٠» مصادر الدراسات السودانية	الاستاذ قاسم عثمان نور
«٢١» بعانخى « مترجمة »	د. متوكل أحمد امين
«٢٢» الجريمة والعقوبات	د. سعيد محمد أحمد المهدى
«٢٣» ظلال شارده	الاستاذ محمد محمد على

«٢٤» دراسات سودانية	د. عبد المجيد عابدين
«٢٥» خواطر طبيب	د. محمد سليمان شاهين
«٢٦، ٢٧» الفكر الاسلامى والفلسفات المعارضة (جزءان)	د. عبد القادر محمود
«٢٨، ٣١» أفق وشفق «٤ اجزاء» «تحقيق»	الشاعر توفيق صالح جبريل د. محمد ابراهيم أبوسليم ومحمد صالح حسن
«٣٢» نحو الغد	محمد احمد محجوب
«٣٣» القصة الحديثة فى السودان	الاستاذ مختار عجوبة
«٣٤» نماذج من القصة القصيرة فى السودان	الاستاذ مختار عجوبة
«٣٥» مبادئ الكونيات	الاستاذ الامين محمد احمد كعوره
«٣٦» صحو الكلمات المنسيه	النور عثمان ابكر
«٣٧» مسائل فى الابداع	الاستاد جمال عبد الملك (ابن خلدون)
«٣٨» اطفالنا غذاؤهم وصحتهم	دكتور حافظ الشاذلى
«٣٩» حصار وسقوط الخرطوم	ميمونه ميرغنى حمزه
«٤٠» أدب وأدباء	دكتور محمد ابراهيم الشوش
«٤١» التربية من اجل الاعتماد على النفس ترجمة	الاستاذ على النصرى حمزه
«٤٢» اتجاهات وميول الطلاب	د. السمانى عبدالله يعقوب د. عزيز حنا داؤود
«٤٣» محمد على فى السودان	دكتور حسن احمد ابراهيم

دوريات عربية :ـ

مجلة كلية الآداب

كتب تصدر قريباً :

«١» نداء المسافة «شعر»	تيراب الشريف
«٢» العوده الى سنار	محمد عبد الحى
«٣» تصدع وقصص اخرى	الفائزون فى مسابقة المجلس القومى للآداب والفنون
«٤» مقدمة فى الرياضيات الحديثة	الاستاذ عبدالله صالح حامد
«٥» الرحيل فى الليل	الاستاذ عبد الرحيم ابوذكرى
«٦» غربة الروح	الاستاذ ابراهيم الحاردلو

